

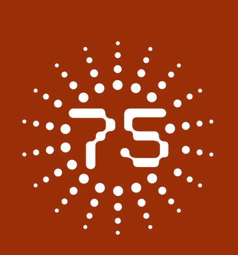
مجلة ثقافية تصدر
كل شهرين • يوليو - أغسطس 2008

نحو عمارة متوافقة مع المناخ

نحن والمعارض التشكيلية

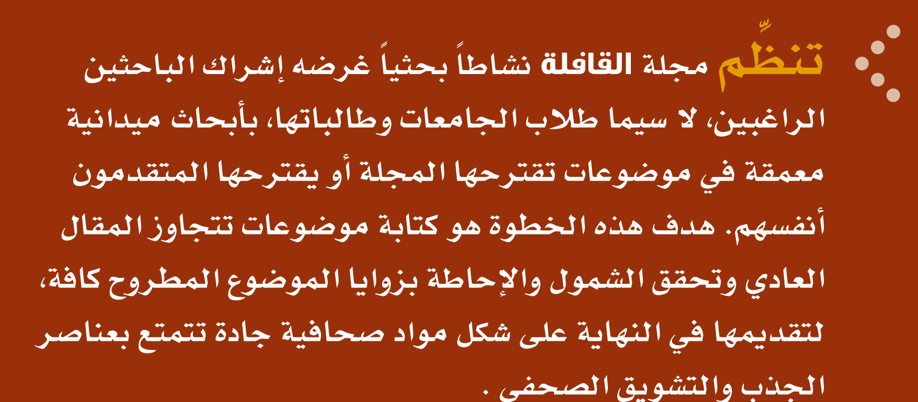
ملف العدد

البطاطس



العدد 4
المجلد 57

قافلة الأبحاث



تنظِّم مجلة **القافلة** نشاطاً بحثياً غرضه إشراك الباحثين الراغبين، لا سيما طلاب الجامعات وطالباتها، بأبحاث ميدانية معمقة في موضوعات تقترحها المجلة أو يقترحها المتقدمون أنفسهم. هدف هذه الخطوة هو كتابة موضوعات تتجاوز المقال العادي وتحقق الشمول والإحاطة بزوايا الموضوع المطروح كافة، لتقديمها في النهاية على شكل مواد صحافية جادة تتمتع بعناصر الجذب والتشويق الصحفي .

للمشاركة في هذا النشاط البحثي يرجى مراسلة فريق تحرير القافلة على العنوان الإلكتروني التالي:
qresearch@qafilah.com

وذلك من أجل

- الاطلاع على قائمة الأبحاث المقترحة من المجلة.
- معرفة شروط اعتماد البحث وصلاحيته للنشر.
- الاتفاق على الموضوع وتبادل الرأي حول محتوياته وآفاقه.
- تحديد عدد الكلمات وملحقات البحث.
- تعيين المهلة الزمنية للبحث والاتفاق على موعد التسليم.

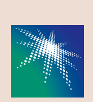
بعد اعتماد البحث للنشر من هيئة تحرير المجلة، ستصرف مكافأة الباحث حسب سلم المكافآت المعتمد لدى المجلة لكتَّابها.

صورة الغلاف

الاهتمام بدور الظلال في تبريد منازلنا صيفاً كما يتمثل هنا في ظل نخلة على جدار.

المحترف السعودي

القافلة



أرامكو السعودية
Saudi Aramco

الناشر
شركة الزيت العربية السعودية (أرامكو السعودية)، الظهران

رئيس الشركة، كبير إدارييها التنفيذيين
عبدالله بن صالح بن جمعة

المدير التنفيذي لشؤون أرامكو السعودية
خالد عبدالله البريك

رئيس التحرير
محمد عبدالعزيز العصيمي

مدير التحرير الفني
كميل حوّا

مدير التحرير
محمد أبو المكارم

سكرتير التحرير
عبود عطية

سكرتير تحرير مساعد
د. فكتور سحاب

قافلة الأبحاث ومكتب جدة
فاطمة الجفري

مكتب بيروت
رولان قطان

مكتب القاهرة
ليلى أمل

أمريكا الشمالية
أشرف إحسان فقيه

الإنتاج والموقع الإلكتروني
طوني بيروتي

المخرج المنفذ
حسام نصر

الصور الفوتوغرافية
أنور الخليفة

تصميم وإنتاج
المحترف السعودي

طباعة
مطابع التريكي

ردمد ISSN 1319-0547

محطات العدد

يوليو - أغسطس 2008
رجب - شعبان 1429

توزع مجانًا للمشتركين
- **العنوان:** أرامكو السعودية
ص . ب 1389، الظهران 31311 المملكة العربية السعودية
البريد الإلكتروني: alqafilah@aramco.com.sa

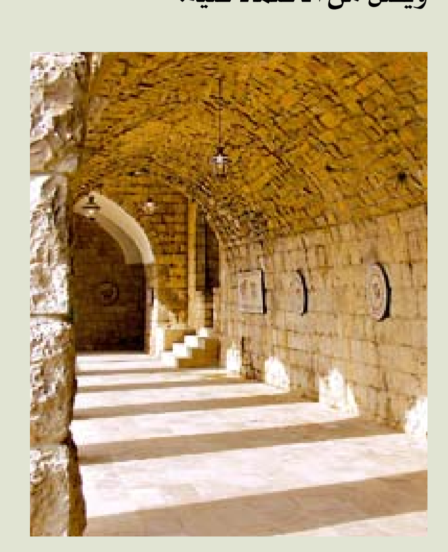
- **الهواتف:** رئيس التحرير 5346 874 3 966+
فريق التحرير 0607 897 3 966+
الاشتراكات 6948 874 3 966+
فاكس 3336 873 3 966+

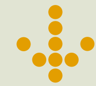
رسالة المحرر

1 قضايا

خلال فصل الصيف، يصبح تبريد المنازل والمكاتب قضية بحد ذاته. وعلى الرغم من اعتماد العالم على مكيفات الهواء، فإن الكثيرين يشعرون وكأنهم مكبَّلون بهذه المكيفات التي لا يمكنهم الاستغناء عنها.

«القافلة» تتناول هذه المسألة في بداية هذا العدد من خلال ثلاثة إسهامات لا تنكر ما لمكيف الهواء من دور، ولكنها تعترض على الاعتماد عليه منفرداً، مؤكدة أن مواجهة حر الصيف في منازلنا تبدأ عند تصميم هذه المنازل، وقبل وضع حجر الأساس فيها، وتمر باختيار مواد البناء وتخطيط الجوار، الأمر الذي وإن كان لا يلغي التكييف الصناعي، إلا أنه يدعمه بشكل ملحوظ ويقلل من الاعتماد عليه.





أما قول في مقال فيتناول موضوعاً على صلة قرابة غير مباشرة، بموضوع غلاف العدد السابق «دور البشر في حياة الأفكار»، من خلال تناول كتاب «خلقت لتبقى» الذي يبحث في حياة الأفكار وزوالها وسبل ترسيخها وترويجها.



2 طاقة واقتصاد

في مناخ الطاقة والاقتصاد موضوع واحد يتناول ظاهرة طالما حيَّرت المراقبين، ألا وهي استغناء الشركات الناجحة عن مؤسسيها، الذين كانوا وراء الفكرة الأساسية وأصحاب الخطوات التنفيذية الأولى، غير أن نمو الشركات يفرض إزاحتهم عن قيادتها. هذه الملاحظة المستمدة من أرض الواقع في عشرات الشركات الكبرى، كانت محور البحث الذي نشرته مجلة «هارفرد بزنيس ريفيو» الأمريكية، وحصلت القافلة على حقوق ترجمته ونشره.



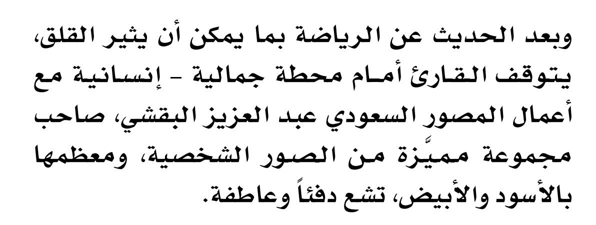
3 علوم وتقنية

وكان من الطبيعي أن تترك دورة الألعاب الأولمبية في بكين بصماتها على صفحات القافلة، لا من خلال مسارها ونتائجها المعروفة لدى الجميع من خلال وسائل الإعلام اليومية، بل من خلال الوجه الجديد للرياضة الذي لا يزال في الظل. فتعرض القافلة مجموعة من آخر ما توصل إليه العلم بشأن الرياضة وفوائدها، وصولاً إلى الجنوح بها عن الغاية السليمة منها، وآخر المحطات في هذا المجال العلاج الجيني الذي يحسن أداء الرياضيين من خلال التلاعب بتكوينهم الجيني، ولا يمكن لمراقبي الغش والمنشطات كشفه. ومن الطبيعي أن يحتل موضوع كهذا مكانه في باب العلوم.

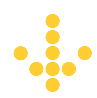


الفاصل المصور



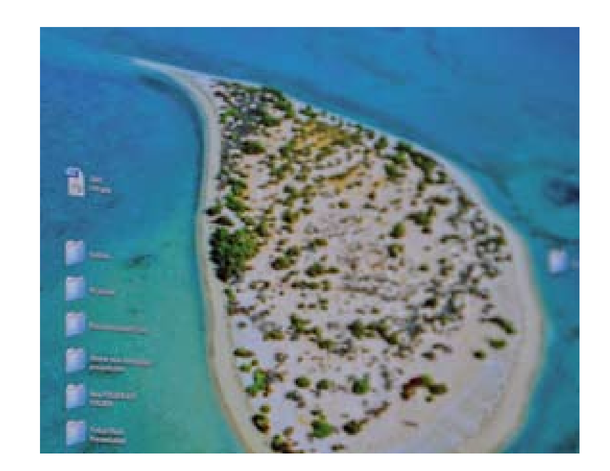



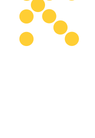
وبعد الحديث عن الرياضة بما يمكن أن يثير القلق، يتوقف القارئ أمام محطة جمالية - إنسانية مع أعمال المصور السعودي عبد العزيز البقشي، صاحب مجموعة مميَّزة من الصور الشخصية، ومعظمها بالأسود والأبيض، تشع دفئاً وعاطفة.



4 الحياة اليومية

بالوصول إلى الحياة اليومية يفتح هذا العدد ملف موضوع محبَّب إلى قلوب الجميع، وخاصة الموظفين منهم: عطلة نهاية الأسبوع. فيتناول الموضوع تاريخ هذه العطلة التي تطبع ببصمات واضحة الحياة العملية والاجتماعية، ويبحث في سبل الاستفادة منها على أفضل وجه، وهو ما لم يعد يحسنه الكثيرون، رغم الاتجاه الجديد إلى إطالة هذه العطلة، كما بدأ يظهر في بعض البلدان الغربية.





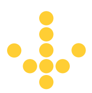
5 الثقافة والأدب

ولمناخ الثقافة والأدب حصة الأسد في هذا العدد، إذ تتوزعه ثلاثة موضوعات مختلفة.

الأول: يستعرض المكانة المتواضعة التي يحتلها الفن التشكيلي في حياتنا الثقافية مقارنة مع باقي الفنون كالموسيقى والشعر والأدب، ويسعى إلى تفسير هذه الظاهرة من خلال توزيع المسؤوليات على التربية والفنان والناقد.

ولمناسبة رحيل المفكر المصري المعروف عبدالوهاب المسيري، كان من الطبيعي أن تتوقف القافلة أمام الحدث، وتعرض لقرائها باختصار شديد أبرز إسهامات هذا المفكر في النقد السياسي والأدبي والاجتماعي، ومنهجه العلمي الفريد في هذا المجال.

أما الموضوع الثالث: فهو عرض لمجموعة قصصية هي الأولى للأديب السعودي الشاب خالد الصامطي، متوج بنشر بعض ما في هذه المجموعة التي وللأسف الشديد، لم تلق في وسائل الإعلام المطبوع الاهتمام الذي تستحقه.



6 ملف العدد

ختاماً، ومواكبة للحديث الدائر بصوت عالٍ عن أزمة الغذاء العالمية، تفتح القافلة ملف «البطاطس»، هذه الثمرة الطيبة التي يتطلع إليها العالم كوسيلة للخروج من مأزق المجاعة، وذات التاريخ الاجتماعي والثقافي الذي يعود إلى يوم اكتشافها مع اكتشاف أمريكا قبل خمسة قرون.



الرحلة معاً

سوق عكاظ

من باب الاحتياط المعرفي إليكم هذه الديباجه: جاء في سبب تسميته وأصل كلمة (عكاظ) بأنه سُمّي بهذا الاسم؛ لأن «العرب» كانت تجتمع فيه فيعكظ بعضهم بعضاً في المفاخرة أي يقهره ويغلبه، ويُقال: فلان يعكظ خصمه بالخصومة: يمعكه. إن بين تسميتها وبين ما يدور فيها من أوجه نشاط صلة قوية، فقد اشتق اسمها من المعاكظة وهي المحاجة في المفاخرة التي كانت ضمن نشاط ذلك السوق، ولقد تحدث عن ذلك اللغويون. «الخليل ابن أحمد»، مثلاً يقول: (وسُمّي به لأن العرب كانت تجتمع فيه كل سنة فيعكظ بعضهم بعضاً بالمفاخرة والتناشد: أي يُدعك ويُعرك، وفلان يعكظ خصمه بالخصومة: يمعكه). ويقول «ابن دريد»: (عكظت الرجل أعكظه عكظاً إذا رددت عليه وقهرته بحجتك، وعكاظ بهذا سُمّي، وهو موضع لمواسم العرب كانوا يتعاكظون فيه بالفخر). ويقول «ابن سيدة»: (عكظ دابته يعكظها: حبسها، وعكظ الشيء يعكظه: عركه، وعكظ خصمه يعكظه عكظًا: عركه وقهره، وتعاكظ القوم: تعاركوا وتفاخروا). ويقول «الليث»: (سُمّيت عكاظ لأن العرب كانت تجتمع فيها فيعكظ بعضهم بعضاً بالمفاخرة أي يدعك، وعكظ فلان خصمه باللدد والحجج عكظاً).

وينقل ياقوت عن السهيلي قوله: (كانوا يتفاخرون في سوق عكاظ إذا اجتمعوا، ويُقال: عكظ الرجل صاحبه إذا فاخره وغلبه بالمفاخرة، فسُمّيت عكاظ بذلك) ثم يضيف: وقال غيره: (عكظ الرجل دابته يعكظها إذا حبسها، وتعكظ القوم عكظاً إذا تحبسوا ينظرون في أمورهم، قال وبه سُمّيت عكاظ). ويقول «الزمخشري»: (وعكاظ متسوق للعرب كانوا يجتمعون فيه فيتناشدون ويتفاخرون... ومنه قالوا تعكظوا في مكان كذا إذا اجتمعوا وازدحموا، قال عمرو بن معد يكرب: *ولكن قومي أطاعوا الغواةَ حتى تعكظ أهلُ الدمِ*. وكما شغلت لفظة (عكاظ) اللغويين فقد شغلت النحويين فنظروا إليها وهم مختلفون من ناحية صرفها وعدمه، وأدلى كل فريق بعلته مستنداً على ما قيل فيها من شعر وخلاصة القول ما قاله اللحياني: أهل «الحجاز» يجرّونها، «تميم» لا تجرّها، قال أبو ذؤيب: *إذا بُني القبابُ على عكاظ وقام البيعُ واجتمع الألوف*.

وهكذا بقيت (عكاظ) في الذاكرة حتى وصلت إلينا بسهلها المنبسط بين مكة والطائف، وبصعوبتها الحالية حيث تنازع القوم وجاهة إحيائها أو إبقائها قتيلة التاريخ السحيق، حيث يموت كل ملمح جاهلي،



كما يسمى ذلك العصر العربي الذي ازدهر شعراً وحكمة و(معاكظة): وممن برز فيه وعلا شأنه «النابغة الذبياني»، الذي ترأس سوق عكاظ، وفي ذلك يقول «الأصمعي»: «كان النابغة يُضرب له قبة حمراء من أدم بسوق عكاظ، فتأتيه الشعراء فيعرضون عليه أشعارهم».

وفيها كان يخطب كل خطيب مصقع، ومنهم «قس ابن ساعدة» الأيادي؛ إذ خطب خُطبته الشهيرة هناك، وهو على جمله الأورق؛ والتي جاء فيها: «أيها الناس، اسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، ليلٌ داجٍ، ونهار ساجٍ، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهر، وبحار تزخر، وجبالٍ مرساة، وأرض مدحاة، وأنهار مجراة، إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعبراً، ما بال الناس يذهبون فلا يرجعون، أرضوا بالمقام فأقاموا أم تُركوا فناموا، يقسم قس بالله قسماً لا إثم فيه، إن لله ديناً هو أرضى له، وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه، إنكم لتأتون من الأمر منكراً».

وفيه عُلِّقت «القصائد السبع» الشهيرة افتخاراً بفصاحتها على من يحضر الموسم من شعراء القبائل إلى غير ذلك، وكان كل شريف إنما يحضر سوق بلده إلاّ سوق عكاظ، فإنهم كانوا يتوافدون إليها من كل جهة، فكان يأتيها قريش، وهوازن، وسليم، والأحاشيش، وعقيل، والمصطلق، وطوائف من العرب.

كما اجتمع فيها في موسمها الأخير طوائف من حواضر العرب وممثلي أمصارهم التي تفرقت على كل شيء واجتمعت على الشعر والفن وممارسة النثر الحكيم: قصة ورواية ومسرحية. لقد كانت هامة الخنساء حاضرة في السوق التي نُفض عنها غبار القرون، وخيمتها جاورت خيمة النابغة الذبياني في تلاقح طبيعي ما بين الخيمتين التاريخيتين. قالت الأخبار المنقولة من هناك: «.. بدأت الأمسية التي أقيمت في موقع السوق وتم الربط ما بين خيمة الخنساء المخصصة للفعاليات الثقافية النسائية وخيمة النابغة الذبياني المخصصة للفعاليات الثقافية الرجالية صوتياً بحديث مفتوح مع الشاعرة حليمة مظفر حيث أكدت أن سوق عكاظ عزَّز مشاركة المرأة بداية من تسمية الخيمتين الخنساء والذبياني، لافتة إلى أن استحضار المرأة كرمز شعري وتاريخي يجسِّده سوق عكاظ الآن وهو تأكيد لدور المرأة الشعري».

مثل هذا الخبر يثلج الصدر العربي الثقافي، الذي نسي، أو تناسى، لزمن طويل إرثه العربي من الشعر والنثر والحِكمة وغيَّب رموز هذا الإرث حتى كادت هذه الرموز أو النجوم العربية القديمة تنمحي من أذهان أجيالنا الحديثة.

ليس هناك أمة على وجه الأرض تخجل من ماضيها كله، فلربما أخجلها بعضه واحتفظت ببعضه الآخر في ذاكرتها ونقلته إلى أجيالها، فلماذا إذن يراد لأمة العرب أن تخجل من كل عصرها ما قبل الإسلام؟ على الأقل يمكن أن نبقي ذاكرتنا مفتوحة على الجيد من القول والفعل السابق، وهو، بالمناسبة، كثير يصعب حصره.

إن فكرة سوق عكاظ الجديدة تستحق تحية عربية بالغة، كما يستحق من نظَّموا واجتهدوا وشاركوا كل التقدير والإعزاز نظير ما لاقوه من عنت التنظيم والتشكيك بنجاحهم. يكفينا إلى الآن نصف نجاح وسنصل قريباً بهذه السوق إلى النجاح الكامل، بإذن الله.

رئيس التحرير



قافلة القرّاء

إلى.. رئيس التحرير

ترحّب القافلة برسائل قرائها وتعقيبهم على موضوعاتها، وتحتفظ بحق اختصار الرسائل أو إعادة تحريرها إذا تطلب الأمر ذلك.

البطارية.. هكذا تتميَّز المجلات

استوقفني في عدد القافلة الذي استلمته للتو، المقال المطول بعنوان «البطارية، مارد الطاقة داخل القمقم».
وإنني إذ أشير إلى هذا الموضوع بالذات فلأنه إن دلَّ على شيء، فإنما يدل على تميز مجلتنا الجيدة في انتقائها موضوعات شيقة وحياتية ومهمة للغاية، ولكن لا أحد غيرها من المجلات ينتبه إلى وجودها، وإلى أثرها في حياتنا.
وأريد أن أضيف فكرة على هذا الموضوع، وهي أنه طالما أن معظم البطاريات يعاد شحنها بالكهرباء، ومصدر الكهرباء هو النفط والغاز، فمعنى هذا أن النفط سيبقى أصل في مختلف أشكال الطاقة، أو معظمها على الأقل.
كما أحب أن أسجِّل إعجابي بالعنوان الطريف الذي اختاره الكاتب للموضوع. فالبطارية هي فعلاً القمقم الذي يحتوي على مارد الطاقة.

إسماعيل محمد الديري
حلب، سوريا

اكتشفتها في العيادات

حظيت مؤخراً بفرصة تصفح مجلتكم في غرفة الانتظار في العيادات الخاصة بمستشفى الجامعة الأمريكية في بيروت.
وقبل كل شيء أود أن أهنئ فريقكم على هذه المجلة المحترفة والجميلة، والباقة الجذَّابة من الموضوعات. وآمل أن تضعوا اسمي على لائحة المشتركين، كي تصلني الأعداد المقبلة.

نمير كنعان
برمانا، لبنان

القافلة: شكراً على رأيك بالقافلة، وستصلك أعدادها تباعاً، إن شاء الله.

تحية إلى جهاد فاضل

أعجبني ما نشرتموه في العدد الأول من المجلد السابع والخمسين (يناير - فبراير)، المتعلق بالشعر العربي: (حالنا مع الشعر.. أين الأزمة؟).
فلقد كنت متشوقاً إلى هذا الموضوع منذ زمن بعيد، متشوقاً إلى من يدرسه بنظرة فاحصة متأنية بعيدة عن العواطف والتأثيرات.
كما أطلب منكم إبلاغ تحيتي وتقديري للأستاذ الناقد من لبنان جهاد فاضل.
فقد كان مقاله: (ألا يزال للشعر دور في حياتنا؟) فاضلاً!
وأنا لا أعرف الناقد إلا من خلال هذا المقال الرائع ولا أعلم عنوانه!
ولقد استفدت من مقاله فائدة كبيرة، عندما أشار إلى تردي شعرنا المعاصر إلى هوة مليئة بالظلام والغموض! ما خلا النزر القليل!
والناقد، سلَّمه الله، قد وضع يده على الداء.
فجزاه الله عنا خير الجزاء.
كما لا يفوتني أن أشكر القائمين على هذه المجلة عندما أشادوا باليوم العالمي للاحتفال باللغة الأم.

المجلد 56

سرني كثيراً اطلاعي على المجلد 56 من مجلة القافلة وأسجِّل لكم التميز والإتقان في تناول أعداد المجلة الواردة في المجلد، وما احتوته من موضوعات مهمة تستوجب مناقشتها والاهتمام بها وتسليط الضوء الإعلامي عليها.
أخي الكريم...
أشكر لكم اهتمامكم بتزويدي بنسخة من هذا المجلد ويسعدني أن يستمر التواصل معكم وإدارتكم في مجال الإعلام والصحافة والنشر.
وتقبلوا صادق تحياتي والله يرعاكم

محمد بن عبد الله الوعيل
رئيس تحرير جريدة اليوم

فيا قافلة الخير سيري وأنت قافلة بالنفع والفائدة دوماً.

فهد بن علي الغميز
ثانوية الأبناء، الرياض

قصة فزَّاعة

في معرض الحديث عن «الفزَّاعة» الذي أثرتموه في القافلة، تحضرني قصة طريفة حصلت في إنجلترا. ومفادها أن شخصاً مسؤولاً عن أحد المباني العامة ضاق ذرعاً بما كانت تخلفه أسراب الحمام من تلوث على سطح المبنى وجوانبه. فما كان منه إلا أن صنع فزَّاعة على شكل طائر بوم، وكساها بريش أسود ووضعها في مكان ظاهر على أعلى المبنى.
وما أن انتشر خبر الفزَّاعة، حتى استبد الغضب بأهل البلدة لهذه الفعلة «غير الإنسانية»، كما تصدَّت بعض الصحف بالاستنكار الشديد لترويع الحمام وزجرها بهذا الشكل.
رد الرجل بالتمني على أولئك الغيارى، بأن يتبرعوا ببضعة جنيهات كل شهر، تسمح باستخدام عامل تنظيفات يتولى إزالة مخلفات الحمام. فكان له ما أراد.

عبد اللطيف حسن كنفاني
بيروت

القافلة للعائلة

يسرني أن أكتب هذه الرسالة لأقدِّم شكري وتقديري لكم على الاستمرار في إرسال القافلة التي لم تنقطع عني طيلة اشتراكي بها منذ أربعين عاماً. فبعد أن أقرأ القافلة فور وصولها، يأخذها أولادي الذين يشتاقون إلى قراءتها، فهي النافذة التي يطلون منها على العالم؛ وذلك لتنوع موضوعاتها في شتى المجالات. ولهذا أرجو أن تكثروا من المقالات العلمية وأخبار العلوم المفيدة للجميع.

عبد الله محمد القويع
عنيزة

لأسرتي الجديدة

كنت أحد قرَّاء القافلة منذ أن كنت في المرحلة المتوسطة، إذ كانت تصلنا بشكل منتظم إلى مكتبة المدرسة. ولما انتقلت إلى المرحلة الثانوية في مدرسة لا تصلها القافلة، صرت أقرأها في المنزل لأنها كانت ولحسن الحظ تصل إلى والدي.
ولكني الآن، بعدما خرجت من بيت والدي إلى منزلي الصغير وأسرتي الجديدة، أصبحت أشعر بشوق إلى مجلتي الحبيبة التي لم أجد ما يغنيني عنها من المجلات التجارية. فكلي أمل أن تجد القافلة طريقها إلى منزلي لأكمل المشوار معها.

حسين علي إسماعيل
الأحساء

القافلة: أحلنا عنوانك إلى قسم الاشتراكات، وستصلك القافلة إلى بيتك الجديد، إن شاء الله.

واحة الغروب

سرني جداً أن تتناول القافلة في قسمها الأدبي (عدد مارس - أبريل 2008م) رواية الكاتب العربي الكبير بهاء طاهر «واحة الغروب»، التي حازت جائزة عالمية.
وكل ما كنت أتمناه هو أن تكون القافلة سبَّاقة إلى تقديم الأعمال الأدبية رفيعة المستوى، مثل روايات بهاء طاهر، قبل أن تحصل هذه الأعمال على جوائز عالمية. وأنا على ثقة أن القافلة بما فيها من كفاءات يمكنها أن تكون رائدة وسبَّاقة في توجيهنا إلى الأعمال الجادة التي تستحق الاهتمام.

أسماء وجدي الصافتلي
دمشق، سوريا

المشتركون الجدد

العقيد صلاح بن سعد الجنيدي، الدمام - عبد العزيز بن صالح الذياب، الدلم - عبد الرحمن ابن محسن المحمود، الدمام - باقر عبد الوهاب العبد الله، الهفوف - أحمد بن خضران الزهراني، المدينة المنورة - منال سليم جان محمد، البحرين - الدكتور فؤاد محمد نواب علي، مكة المكرمة - محمد بن عبدالله المشور، القطيف - محمد رشاد شريف، مكة المكرمة - محمد بن عبد الله بالعمش، الجبيل الصناعية - عبد الله حسين الغامدي، جدة - يوسف حجي البرية، الهفوف - محمد جواد الممتن، الهفوف - مبارك الردادي، المدينة المنورة - عبد الله إبراهيم العجاجي، الرياض - وليد علي الردادي، المدينة المنورة - عبد الله راشد عبد الله المسلم، الأحساء - فهد الخالدي، سيهات - عبد الله على مسعود، نجران - أحمد جابر الزهراني، جدة - الدكتور نهاد رزوق، لبنان - بو شقيف سليم، الجزائر - محمد زكي التركستاني، جدة - محمود حبيب محسن، جدة - صالح بن محمد بن عبد الرحمن الثنيان، الأحساء - زكريا المكي مجول، الجزائر - محمد توفيق محمود عمر، الإسكندرية، مصر - أحمد على الحدب، الأحساء - زينب راشد، القاهرة - زيد بن محمد العصيمي، الغاط - عبد العزيز العساف، القصيم - محمد علي المهدي، الخبر - محمد بن منصور آل عضيد، الباحة - علي ابن محمد الحجيلان، بريدة - منصور عبد الله المنصور، الرياض - عبد الله حسن الصالبي، المندق - عبد الرحمن بن علي الغانم، الزلفي.

القافلة: وصلتنا عناوينكم وما طرأ على بعضها من تعديل، ونرحِّب بكم أصدقاء لـ «القافلة» التي ستصلكم أعدادها بانتظام من الآن فصاعداً -إن شاء الله-.

قافلة القرّاء

نافذة جديدة في بريد القافلة لكتابات تناقش موضوعات طُرحت في أعداد المجلة فتكون أكثر من رسالة وأقل من مقال.

قرَّاء القافلة مدعوون إلى الإسهام في هذا النقاش على أن تكون كلمات المشاركة بين 300 و600 كلمة، مع احتفاظ فريق التحرير بحق الاختصار إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

حول

وجهتا نظر في عدد مايو-يونيو

تمكنت أخيراً بحمد الله تعالى من تحميل العدد الثالث من المجلة للعام 2008م الجاري. وعندما قرأت محتوياته وتصفحته؛ تذكرت العدد الثالث من المجلة للعام 2007م الذي لفت انتباهي واستثارني أسلوبه لقراءة حتى الموضوعات التي لا أميل لقراءتها..

كلا العددين -من دون شك- متميزان، وإن كنت أجد -من وجهة نظري- فرقاً كبيراً بينهما؛ فالقافلة عودتنا أن نلحظ تقدم كل عدد عن سابقه.

صورة الغلاف التي تعبِّر عن ملف العدد مع إشارة علامة الاستفهام التي هي عنوان الملف؛ أثارا فضولي لقراءة الملف.. وقد جاء أسلوب طرح الملف وإخراجه الفني -من وجهة نظري- جذاباً جداً.

الموضوعات التي تطرَّقت لها القافلة هذه المرة جميعها دون استثناء -من وجهة نظري- ذات عناوين لافتة جداً للقارئ؛ لذلك فهي ستثير من دون شك فضوله لقراءتها..

سررت عندما قرأت في هذا العدد تعقيباً على موضوع «كيس البلاستيك.. أفضل اختراع سيئ»؛ فالموضوع أعجبني جداً؛ طريقة عرضه وأسلوب تناوله وكلمات المقدمة والخاتمة، وحتى المعلومات التي حفل بها أيضاً كانت وافية.

هذا الموضوع «كيس البلاستيك.. أفضل اختراع سيئ» لفت انتباهي.. فأنا أقرأ مقالات للأستاذ الكاتب أشرف إحسان فقيه خصوصاًماينشر منها له في القافلة، وخصوصاً وأن «العالم من بعدنا!» جاء شيقاً للغاية.. فقد شعرت وأنا أقرأه وكأنني في رحلة من رحلات الخيال العلمي.

من وجهة نظري، ألاحظ أن كتابات الأستاذ الكاتب أشرف إحسان فقيه أصبحت أكثر قوة وجاذبية مقارنة بمقالاته السابقة.. هي تحمل للقرَّاء أمثالي لا فائدة القراءة فقط بل المتعة أيضاً.

ومن الزوايا التي أحبها كثيراً في القافلة زاوية قول في مقال. وفيها جاء مقال «الترجمة.. عندما يكون غيابها أفضل» والذي أعتبره قوياً؛ فكأنه رصاصة موجهة إلى مترجم فلم «الفالس الأخير» في تلك الفضائية العربية وإلى كل مستهتر بالترجمة أمثاله.

كقارئة، أشعر بتفاقم الوضع. فنحن أمة لا نترجم إلا القليل وإذا قمنا بالترجمة تكون منحطة!.. في هذه الحال، لاشك أن غياب الترجمة سيكون هو الأفضل.

طريق العظماء ليس مفروشاً بالزهور دائماً، وإن الإرادة القوية تقهر الصعاب.. احترام الإنسان وحبه لعمله وتفانيه وصبره على كل مايلاقيه من مصاعب وتواضعه لمن حوله؛ كل ذلك يرفع من قدره، ويخلق منه إنساناً عظيماً بكل ما تحمله تلك الكلمة من معنى.. هذا بعض ما كانت تهمس لنا به الصورة الشخصية الرائعة في هذا العدد المتميز.

أهنئ الباحثة ليلى أمل على الموضوعات التي تطرحها في القافلة؛ ففضولي لم يهدأ عندما قرأت العنوان «أمراض تنقذ شعوباً» وأيضاً «دور البشر في حياة الأفكار» إلى أن أنهيت قراءة الموضوعين..

ولست أتكلف إن قلت إن الأمر نفسه حدث لي مع هذا العدد، من غلاف المجلة الذي أثار فضولي لقراءة الملف إلى عناوين الموضوعات التي احتواها.

فالأمر لا يتوقف على غلاف وعناوين لافتة تثير فضول القارئ والتي هي من وجهة نظري من المميزات التي تميز بها هذا العدد عن غيره؛ بل يتعداها إلى الموضوعات التي احتواها هذا العدد. فقد كنت أعيد القراءة -سواء الموضوع أو مقاطع منه- أحياناً مرات ومرات من شدة استمتاعي بقراءته.. تماماً كما حدث لي عندما قرأت «شباب في مواقع القيادة» الذي تناولته القافلة في أحد أعدادها، وكما حدث لي عندما قرأت «المونديال.. الذي لايشبه شيئاً آخر»، وكما حدث لي عندما قرأت تعقيباً للأستاذ كميل حوا على ملف الشاحنة، على سبيل المثال، فهذه من الموضوعات التي أبدعت القافلة فيها وتميزت في طرحها وتناولها.

أريج المحفوظ
جدة
حول محتويات «القافلة»، عدد مايو-يونيو 2008

حول

أفكار حول حياة الأفكار

تصفحت على الإنترنت عدد القافلة لشهري مايو - يونيو 2008م، وقد شعرت بشعور كئيب ابتداءً، بسبب الغلاف. فقد صدتني الألوان المظلمة عن تأمل الصورة -تأملت الصورة لاحقاً وأدركت كم هي معبِّرة عن حيرة نافذة تستعصي أمامها الكلمات، رغم أني ما زلت على تحفظي حيال الألوان- لكن عبارة: دور البشر في حياة الأفكار، استفزتني، ما المقصود بها؟ فتحت المجلة لأصل إلى الموضوع، فصافحني مقال الأستاذ عبود عطية. كان مشوقاً، وثرياً بحق، والسؤال الذي توقفت عنده ليس الذي طرحه الكاتب الفاضل عن الترجمة وجوداً وغياباً، وإنما هو: لماذا لا تخصِّص القافلة زاوية لترجمة أهم الكتب الجديدة في الثقافات غير العربية، أثق حقاً أنكم ستقدمون شيئاً محترماً، ومتميزاً، واختياراتكم ستكون غير متأثرة بالضجة التي تثار حول كتاب ما إن لم يكن يستحق حقاً الوقوف عنده.

أعود إلى مقال الأستاذة ليلى أمل، مدخله مميز، والقطع الذهبية متناثرة في كل مكان، لا يدعك تتجاهل بعضاً من الكلام لئلا تشعر بالخسارة، فضلاً عن صياغة متماسكة، وسلسة. لكني كنت مع ذلك أقرأ بسرعة. كنت أقول لنفسي إني لا أهتم بالأفكار التكنولوجية أو الزراعية، ولست مهتمة حقاً بالجانب التسويقي وأثره. ومع ذلك، فإن سرعتي في القراءة لم تمنعني من الحرص على الفهم، وأتعجب بحق من قدرة الكاتبة على جعلي أهتم بالفهم ولو سريعاً لما أقرأ، رغم تركيزي على الوصول إلى ما ستقوله حول دور البشر في حياة الأفكار المتعلقة بالعلوم الإنسانية. وبالتالي، فقد شعرت بخيبة أمل من السطور القليلة التي خصصتها للحديث عن دور الناس في حياة الفكرة «الأدبية»، ومن ثم فقدت الأمل في الحديث عن الأفكار المتعلقة بالعلوم الفلسفية والاجتماعية والإصلاحية والتي كان للبشر دور في إحيائها أو مواراتها.

كنت أنتظر أن أقرأ حكايات عن أفكار أحياها أصحابها لما قدموا حياتهم فداءً لها ، فقتلوا أو سجنوا أو شردوا أو أحرقت كتبهم. وعن أفكار أخرى، أحيتها السلطات، وفرضتها على الناس، وأخرى أحياها وبعثها أفراد آمنوا بها بعد زمن طويل من موت أصحابها، وأفكار أخرى أحيتها مجتمعات وأماتتها مجتمعات أخرى. وكنت أرجو أن تعرج الكاتبة على دور التدوين الإلكتروني في إحياء أفكار معينة سياسية أو اجتماعية أو دينية، ودور المنتديات الإلكترونية في بعث مذاهب مندرسة. هذا بعض ما عنَّ على بالي بعد نهاية المقالة، لكن هناك أمرين، أحدهما: أن اختيار الكاتبة هذه الزاوية بهذه اللغة السهلة الممتنعة هو محط تميز وجد، والثاني: أن لدي أمل أن تثرينا الأستاذة ليلى أمل بجزء ثان من المقال ثري كثراء الجزء الأول، وتخصصه للأفكار المتعلقة بالعلومِ الإنسانية، ودور البشر في حياتها أو اندراسها.

مقالان مهمان جعلاني كل واحد منهما مجبرة حباً وتقديراً على تصفح بقية العدد باهتمام، مقالة الأستاذ كميل حوا قالت لي صديقة إنها استثنائية، لكني لم أستطع قراءتها، حاولت ذلك فلم أفلح.

«ملف العدد» فكرته لافتة جداً، الإخراج أيضاً كان مميزاً، وساعدني على قراءة حتى ما بدا لي مملاً بعض الشيء من الملف، وقد كنت أرجو أن تحدثوني عن أسئلة قتلت أصحابها، وأخرى أضافت إلى حياتهم، وعن أهم الأسئلة في الشعر العربي من زاوية تختارونها، أيضاً أهم الأسئلة التي يطرحها المرء عندما



يريد أن يقدم على عمل جديد، أو عندما يزور بلداً جديداً، ولمن يسألها، أسئلة الأطفال المحرجة، وكيف يتعامل معها الأبوان.

أسئلة الحب المرتبك المشوب بالحيرة، توقعت أن تجد مكانها في الملف. السؤالان اللذان ترافقهما في الذهن صورة الوردة وتساقط أوراقها، ورقة ورقة، لترافق «يحبني أم لا يحبني»، وكذا ما خلدته أحلى الأغاني العربية من أسئلة الحب أو الحرب أو السلام.

كما كنت أتوقع أن تعرجوا على الأسئلة الخطأ من حيث الفرضية التي تنطلق منها، وأثرها في التواصل الثقافي، أو التشريع القانوني.

كما كنت أرجو أيضاً أن يكون لأسئلة الشك، نصيب في هذا الملف، وقد طافت بذهني المقولة الشهيرة: الشك طريق اليقين، وكذا أسئلة اليقين: كما جاء في القرآن الكريم عن سيدنا إبراهيم قوله في سؤال اليقين: ﴿وإذْ قَالَ إبراهيمُ رَبِّ أرني كيفَ تُحْيي المَوْتى قالَ أوَ لم تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى ولكن ليطمئنَّ قَلْبِي قال فَخُذْ أَربعةً من الطَّيْر فَصُرْهُن إليك ثم اجعَلْ على كلِّ جَبَل مِنْهُنَّ جُزءاً ثم ادْعُهنَّ يأتِينَكَ سَعْياً واعْلَمْ أنَّ اللهَ عَزيزٌ حَكِيم﴾ سورة البقرة، آية 260.

هل تراني تشعبت ؟ لكن هي شذرات كنت أرى أنها ستجعل القارئ يخرج من الملف وهو محمل بالأسئلة، يصحبها معه، فيكون الملف ممتداً في عقله امتداد المجهول.

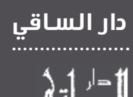
حسناً، ما كتبته آنفاً، لا يقلِّل أبداً من قيمة العدد، ولا يخدش الجمال الذي أكرمتمونا به، فكراً، وخطاً (أبيات الأستاذ بخيت كانت جميلة، والخط الذي كتبت به كان معبِّراً جداً).
عدد مميز، يشعرك أنه صديقك، شكراً لكم.

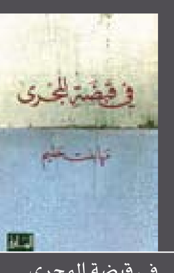
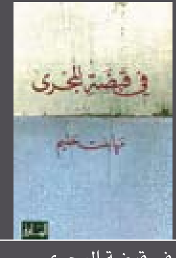
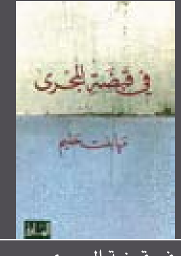
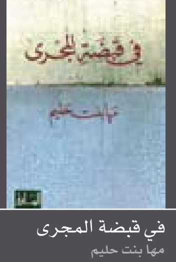
مروة أبو بكر
جدة
حول محتويات «القافلة»، عدد مايو-يونيو 2008

قافلة النشر



دار الساقي




البوم والمقص
هاڤال أمين

في قبضة المجرى
مها بنت حليم

فنطاسيا
طراد حمادة

قصيدة النثر وإنتاج الدلالة
د. عبدالكريم حسن

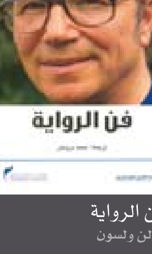
شكوتُ نفسي
إبراهيم محمد النملة

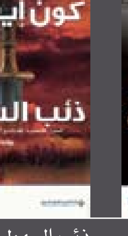
استديو بيروت
هالة كوثراني

الدار العربية للعلوم ناشرون







مأزق الطاقة والحلول البديلة
ديفيد هويل وكارول نخلة

تفعيل الرغبة في التعلم
بوب سولو

مذكرات مَنْ نجا
دوريس ليسينج

ذئب السهول
كون إيغلدن

فن الرواية
كولن ولسون

احذر الوجبات السريعة
إيريك شلوسر

الكتاب الجديد









سوسيولوجيا المثقفين
جيرار ليكلرك

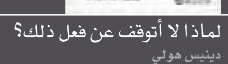
كلود ليفي ستروس
كاترين كليمان

الفلسفة الأخلاقية
مونيك كانتو-سبيربير، روفين أدجيان

أوروبا التنوير
بيار - إيف بوروبير

مكتبة جرير



ولو ليوم واحد آخر
ميتش آلبوم

لماذا لا أتوقف عن فعل ذلك؟
دينيس هولي

البيع للفوز
د. ريتشارد ديني

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

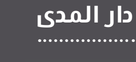




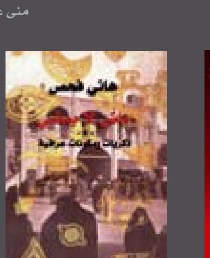


- المشبك الخشبي — فراس عبدالعزيز عالم
- التربية السياسية للبحرينيات.. الأثر والرؤيا — منى عباس فضل
- بين الصحراء والماء — محمد عيد العريمي
- فتنة السؤال — قاسم حداد
- الورم — إبراهيم الكوني

دار المدى















- الأعمال الشعرية الكاملة لسنية صالح — تقديم: خالدة سعيد
- ماضٍ لا يمضي — هاني فحص
- مثلث متساوي الساقين — علي الشوك
- قصائد تمطر نرجساً — كزال أحمد
- جبل الزنابق — سمر يزبك
- طهران مدينة بلا سماء — أمير حسن جهل تن

مكتبات ونشر العبيكان







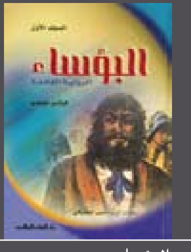






- المرأة والسياسة — سارة بنت محمد الختلان
- فن خدمة الآخرين — غاري مورش، دين نلسن
- العالم والغرب — فيليب كورتن

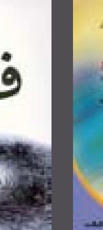
دار العلم للملايين

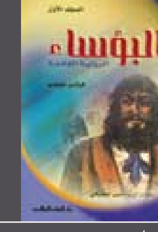


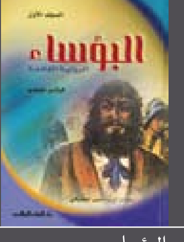








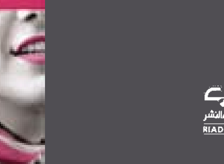


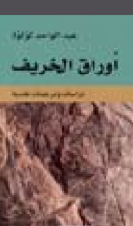


- البؤساء.. — فيكتور هيجو
- فتنة — أميرة القحطاني
- أنا العصفور — خيرية درزي
- قمرٌ من ذهب
- رائية في المستشفى — أمل أيوب فريجي
- موسوعة صحة العائلة

رياض الريس للنشر والكتب













- على ضفاف بابل — خالد القشطيني
- الصفحة الثانية — إلهام منصور
- أوراق الخريف — عبدالواحد لؤلؤة
- برهان العسل — سلوى النعيمي
- تاريخ لبنان الحديث.. من الإمارة إلى اتفاق الطائف — فواز طرابلسي

نحو عمارة متوافقة مع المناخ..

برداً وسلاماً في البيوت



خـلال فصل الصيف، يصبـح الحر في مدننا العربية كابوساً ثقيـلاً يسلبنا الكثيـر من الشعور بالراحة ومـن القدرة على أداء مهـام حياتنـا المختلفـة. يلاحقنـا فـي الشـوارع وفـي الأسـواق وفـي أماكـن العمـل، والمشكلة الأكبر أنـه يلاحقنا حتـى فـي المنزل .. المـكان الذي يفترض أن نجـد فيه أكبر قدر من الراحة. ورغم أن جهاز التكييف صار خلال السنوات الماضيـة شيئـاً حيويـاً في حياتنـا، إلا أنـه الآن أصبح عاجزاً عن أن يوفر لنا وحده جواً معتدلاً مريحاً داخل منازلنا. فما العمل لمواجهة حر الصيف والتخفيف من وطأته علينا؟
تؤكد هذه الدراسة التي شارك في إعدادها كل من المهندس علي بن عثمان الناجم[1]، والدكتور إبراهيم بن سعد الجوير[2]، ونبيـل خمـار[3]، أن الاعتمـاد على التكييف، ورغـم وصوله إلى الـذروة، لا يشـكِّل حـلاً نهائيـاً ولا مثاليـاً. إذ إن مواجهة حر الصيـف يجب أن تبـدأ أساساً منذ المراحل الأولى لتخطيط المنازل والمباني.



1 نائب رئيس مجلس العمارة بالهيئة السعودية للمهندسين
2 أستاذ البيئة المبنية وتصرف الإنسان بجامعة الملك سعود
3 مهندس تكييف



تشير الدراسات المناخية إلى أن كوكب الأرض يشهد هذه السنوات أعلى معدلات لدرجات الحرارة في تاريخه. وكنا بتنا نعرف ظاهرة الاحتباس الحراري، التي تطل علينا أخبارها كل يوم في نشرات الأخبار والصحف والكتب وحتى الأفلام.

وهذا الارتفاع الكبير في درجات الحرارة، يلحظه الناس في حياتهم قبل أن ترصده الدراسات العلمية، حين يقارنوا صيفهم الحالي، بالصيف الذي كان قبل سنوات عشر أو ربما أقل، والذي أصبحت حرارته أشد وأكثر إنهاكاً، وأصبح «التسلح» ضدها يحتاج إلى أجهزة تكييف أكبر وذات قدرات أعلى، مما كان يكفيهم في السابق.

من ناحية أخرى فإن زيادة معدلات النمو السكاني والعمراني، التي لا يصاحبها ارتفاع مماثل أو حتى مناسب في مصادر الطاقة ومواردها، أصبحت تشكِّل هاجساً يتعلق باليوم الذي لن نجد فيه ما يكفي من كهرباء لتشغيل أجهزة التكييف في منازلنا. الحقيقة أن الأمر يزيد على كونه مجرد هاجس إذا عرفنا أن التكييف يحتل المركز الأول في معدلات استهلاك الكهرباء في معظم دول العالم. وتوضح الدراسات التي تتتبع استهلاك الطاقة في المملكة أن نسبة 66% من إجمالي استهلاك الكهرباء يذهب إلى تبريد المباني خلال شهور الصيف الحارة.

المحترف السعودي

يشير الخبراء إلى أن السؤال حول تحقيق الجو المريح في منازلنا في فصل الصيف، يجب أن يذهب إلى مساحة أخرى بعيدة تماماً عن جهاز التكييف. إذ إن المشكلة تبدأ من الأساس بكون مساكننا أبعد ما تكون عن ملاءمتها لطبيعة المناخ السائد في المنطقة. وبالتالي فإن الحل يأتي من إعادة النظر في المفاهيم العمرانية التي نتبعها في إنشاء وتصميم هذه المساكن، كي تصبح متماشية مع بيئتها، وليست معادية لها. وأن نعيد إبداع عمارة عصرية «أذكى» في خطوطها العريضة والتفصيلية، تتكون من عناصر تساعد في اندماجها وتكيفها مع بيئتها، بدلاً من العناصر التي تخلق مشكلات معها، ثم تعييننا بعدها في إيجاد الحل.

مراعاة العمارة لعنصر المناخ، والنظر إليه كأحد العوامل المهمة التي تؤثر في عملية التخطيط العمراني، جزء من مخطط أكبر لعمارة تراعي البيئة التي تحتضنها، بظروفها وخصائصها وطبيعة مواردها، وتندمج فيها بطريقة تتكامل معها وتثريها وتحفظها، وتحقق لساكنها أكبر قدر من الراحة، والظروف الصحية الملائمة.

مساكننا بعيدة عن ملاءمة مناخ المنطقة، والحل في إعادة النظر بالمفاهيم العمرانية المتبعة

لقد ارتبطت هذه العمارة «الخضراء»، في بدايتها كاتجاه عالمي، بأزمة الطاقة في السبعينيات، التي جعلت المعماريين يراجعون اتجاهات العمارة السائدة في تلك الفترة وما قبلها، ويسألون عن الحكمة من بناء مبانٍ صندوقية محاطة بالزجاج والفولاذ تتطلب قدراً كبيراً ومكلفاً من الطاقة من أجل تدفئتها وتهويتها وتبريدها. هذا العنصر الاقتصادي الذي مثلته أزمة الطاقة، صاحبه عنصر آخر أسهم في تقويته هو «الصحوة» البيئية التي اجتاحت العالم في تلك الفترة، والتي مست كل أوجه النشاط الإنساني ومنها بالطبع النشاط العمراني. تشير الدراسات العالمية إلى أن المباني تستهلك سدس إمدادات الماء العذب في العالم، وربع إنتاج الخشب، وخُمسي الوقود والمواد المصنعة. وفي نفس الوقت تطلق نصف كمية غازات (البيت الزجاجي) الضارة. وتؤكد هذه الأرقام الهائلة أن عمليات إنشاء وتشغيل المباني بكافة أنواعها هي واحدة من أكثر الصناعات استهلاكاً للموارد الطبيعية، وأشدها ضرراً على البيئة.

هذا الترابط مابين النشاط العمراني من جهة، والبيئة والاقتصاد من جهة أخرى، هو ما دفع مجموعة من المعماريين على مستوى العالم في بداية السبعينيات إلى

الظل والتهوية: تحديان رئيسان أمام الهندسة الحديثة

فيصل المالكي

العمل على استكشـاف رؤى ومفاهيم معمارية جديدة تركِّز على العلاقة بين المبنى وبيئته. وإذا اعتبرنا أن السبعينيات كانـت مرحلـة استكشـاف واختبـار هـذه المفاهيـم، فإن الثمانينيـات هي المرحلـة التي تحوَّل فيها هـذا الفكر إلى اتجـاه مهم فـي العمارة يعـرف الآن بالعمـارة المستدامة. والتـي يعرِّفها المتخصصون بأنها العمـارة التي تسعى إلى تلبية حاجـة الأجيال الحالية دون الإضـرار بقدرة الأجيال القادمة على تلبية حاجتها. وذلك عبر تصميم مبانٍ تتعامل مع بيئتها بأعلى درجات الكفاءة و«الحكمة»، وتحقق أقصى معـدلات الإفـادة مـن الطاقة والمياه والمـوارد، سواء في عمليـة إنشائها أو في كافة نشـاط الحياة اليومية لسكانها، وتنتج أقل ضرر ممكن على صحة الإنسان وسلامة البيئة.

المناخ.. غير قابل للعولمة

حيـن نتأمـل التـراث العمرانـي في بلادنـا، نجد أنـه ينتمي إلـى طـرز كانت تهتم بأن يكـون نتاجها نابعاً مـن وعي كامل لخصائص بيئته، وحرص كبير على الاتساق معها. ولهذا فقد كانت طبيعة المناخ من العوامل المهمة التي يراعيها المسكن العربـي القديم. من دون اللجوء إلى آلات التبريد الصناعية، كان تصميـم هـذا المسكـن يوفـر لساكنيه الجـو المعتدل. ويحميهم من حـرارة الشمس خلال ساعات النهار، في نفس الوقت الذي يسمـح لهم بالاستمتاع بالنسائـم الباردة خلال ساعـات الليل. وهو مع ذلك لم ينتصـر للوظيفة على حساب الذوق، ولم يغلـب المضمون على الشكل. وإنما راعى الجمال والعملية معاً بالقدر نفسه، ولم يعرف الفصل بينهما.

كان المسكن العربي القديم يتفهم حاجات سكانه، ويحرص على توافقه معهم ومع بيئتهم. على عكس مساكننا الحديثة التـي تتبع فكراً معمارياً قمنا باستيراد قوالبه الجاهزة كما هي، من دون البحث عن مدى ملاءمتها لنا. فقد تعاملنا مع مبادئ العمارة الغربية الحديثة وكأنها حقائق علمية لا تقبل النقاش، في حيـن أن العمارة أحد أوجـه النشاط البشري التـي لا يمكن تجاهل مكونها الثقافـي، ولا يمكن عزلها عن السيـاق الفكري الـذي خرجت من تحـت عباءته. نظريات العمارة الحديثة هي نتاج مـا توصل إليه معماريون غربيون رأوا أن نمـط العمـارة القديـم لـم يعـد يلائـم خصائص المجتمـع الصناعـي. ولهذا رغبـوا في أن يقطعـوا الصلة مـع العمـارة السابقـة وتقاليدهـا. فتوصلوا إلـى بناء كتل حجميـة كبيرة وجـرداء، بلا زينة أو زخـارف أو أية ملامح مـن الجمـال. وكانت المـواد المفضَّلة لديهم هـي الزجاج لواجهـات المبنى، والفولاذ كدعامـات خارجية، والإسمنت المسلَّح للألـواح والدعائم الداخلية. وأصبحت المباني من ذلك الحين أحجاماً هندسية مكعبة تشبه الصناديق، تفتقر إلى الإنسانية، ومحملة بالكثير من البرود والحدة.

بعـد كل هـذه السنوات مـن اتباع نمـط العمـارة الغربية، وما سببتـه لمدننا مـن مشكلات، علينـا أن نعيد النظـر إلى هذا النمط من العمـارة ، وأن نفهم أن النظريات التي قامت عليها العمـارة الغربية الحديثة ليست نظريـات قطعية، يتوجب على الجميـع اتباعهـا. وإنما هـي ردات فعـل إنسانية علـى أوضاع وقواعد معينة، سادت في مكان ما، وفي فترة معينة من الزمن، ولا يمكـن جعلهـا عالميـة. لأننـا لو سلَّمنـا جدلاً أنـه بات من الممكن عولمـة الثقافات وطبيعة بناء المجتمع وصبها بسهولة فـي القالب الغربي، إلا أن المناخ عنصر لا يمكن عولمته مهما حاولنـا ومهمـا بذلنا من جهـد! ولهذا فإننا نحتـاج إلى إعادة صياغة المفاهيم العمرانية في المدينة العربية لتحسين أدائها الوظيفي وقيمها الجمالية، وذلك بتقديم نموذج جديد للعمارة يجمـع بين ما تميزت به عمـارة الأمس من تكيفهـا مع المناخ والبيئـة المحيطـة وثرائها بالخبـرة الإنسانيـة والجمال، وما تتميز به عمـارة اليوم من استجابات لإيقـاع الحياة العصرية ومتطلباتها، واتباعها لنظريات العلم الحديث وتقنياته.

عمارة الظل بدل لعمارة الشمس

عمارة المدن العربيـة المعاصرة تتعامل مع الشمس وكأنها عمارة مدينة من مدن الدول الأسكندنافية شديدة البرودة، أو كأنهـا صممت خصيصاً لتكون وحـدات تجميع شمسية.

بين عمارة الأمس واليوم



علي مبارك

وللتأكيد على أن هذا القول لا يتضمَّن مبالغة نشير إلى أن مركز شمال كارولينا للطاقة الشمسية (NCSC)، يوصي بتصميم الوحدات المستخدمة لتجميع الطاقة الشمسية، بحيث تكون أسطحها مستوية مكشوفة للشمس، وبعيدة عن أدنى قدر من التظليل. أليست هذه هي الصورة التي تلخص وصف الغالبية العظمى من مبانينا؟

وعلى العكس من ذلك، كان الظل من أساسيات تخطيط المدينة العربية، لأنه يضفي عليها الراحة والسكينة والجمال. فالمدينة العربية عرفت للظل قدره وأهميته، ولهذا، فإنها كانت تبحث دائماً عنه وعن كل العوامل التي يمكن أن تساعد على إثرائها به. لقد كانت الفكرة التي تستمد منها مبانينا تخطيطها وتصميمها تنطلق من الحماية من الشمس وتوفير الظلال، أما مدينة اليوم فعلى العكس تماماً، بدأت مسيرتها الحديثة وهي تحاول أن تتنصل من الظل وكأنها تحتمي منه أو تبحث عن الشمس وتتكشف لأشعتها من كل جانب.

تعاني مدننا العربية كثيراً من آثار عمارة الشمس. تلك العمارة التي ترتكز فلسفتها على ثلاث خصائص: التوجه نحو الخارج، والتعرض المباشر للشمس، وكثرة الفتحات الشفافة المعرَّضة للضوء. تطل مبانينا المعاصرة خارجياً على الشارع بحره وغباره، وتتميز بواجهاتها المسطحة المنبسطة تماماً أمام الشمس، والمنفتحة عليها بسخاء عبر فتحات ينفذ عبرها الضوء والحرارة إلى الداخل بحرية تامة. ولكي نتمكن من تصحيح هذا الوضع، علينا أن نتحوَّل من المألوف الخطأ، إلى الصحيح الذي كان مألوفاً. فتنتقل عمارتنا من نموذج عمارة الشمس، إلى نموذج جديد هو عمارة الظل، المعتمدة في فكرتها على جعل الظل هدفاً رئيسياً في التخطيط العمراني وفي تصميم المباني والمنشآت. والقائمة على التخطيط الذي يراعي توفير المساحات الظلية في ممرات وطرق المشاة وعلى الجدران الخارجية. وعلى التصميم الذي يراعي توفير هذه المساحات الظلية على فتحات النوافذ والأبواب والقشرة الزجاجية بشكل خاص والغلاف الخارجي للمبنى عموماً. ويكون ذلك باستخدام أية عناصر إنشائية أو معمارية مظللة، أو باستخدام كاسرات أشعة الشمس، أو حتى باستخدام المظلات أو الشجر.



الظل ومادة البناء.. حيث نجحت العمارة التقليدية

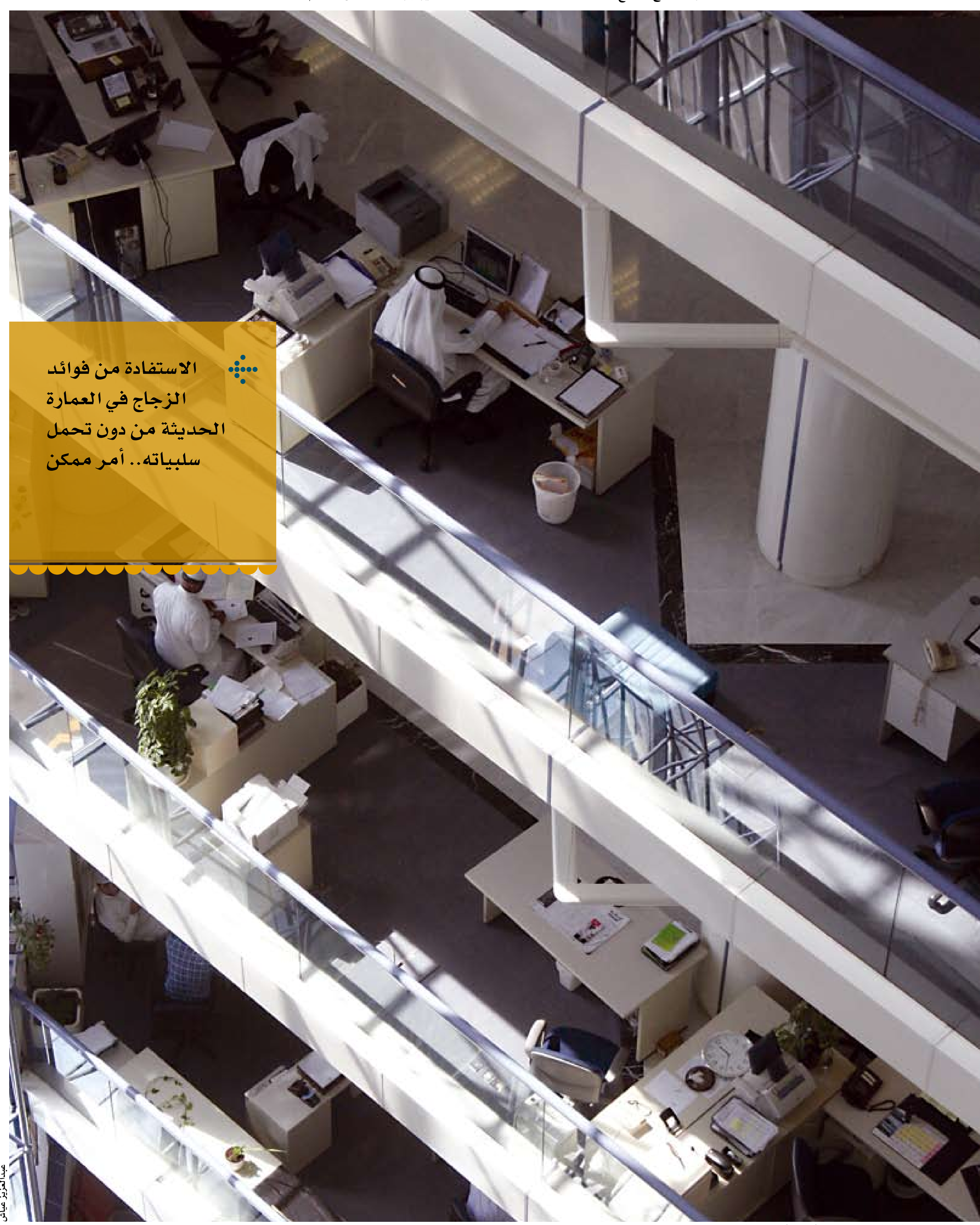
فيصل المالكي

توفير الظل

يتم توفير الظل في المباني السكنية والفيلات، عن طريق استخدام عناصر معمارية كالبروزات والتجاويف والمظلات التي تحيط بفتحاتها وتكسوها بطريقة تتباين بين المناطق المشمسة والمناطق المظللة، تاركةً لمسات جمالية تكسر السطحية والصندوقية التي تميِّز واجهات المساكن المعاصرة. ويجب أن يتم تصميم المبنى بحيث تتجه واجهاته نحو الظل. إذ إن أعلى شدة للإشعاع الشمسي الساقط في الصيف تحدث على الجدران الشرقية والغربية. وهذا النمط من الإشعاع الشمسي، يعني ضرورة تفضيل الاتجاهات الشمالية والجنوبية للواجهات الرئيسية، خصوصاً للنوافذ. أما الجدران الشرقية والغربية التي تستقبل أعلى قدر من أشعة الشمس وحرارتها، فيمكن الحد من قدرتها على امتصاص الحرارة بواسطة استخدام عناصر معمارية مظللة، أو طلائها بألوان فاتحة تعكس أشعة الشمس الساقطة عليها.

ويمكن معالجة المباني المكتبية بأسطحها الزجاجية المنفذة لأشعة الشمس، بجعلها تغور داخل عناصر المبنى كامتداد بلاطة السقف، أو باستخدام بروز من كاسرات أشعة الشمس الأفقية أو العمودية أو المركبة الخرسانية أو غيرها. أما المعارض التجارية والتي يستدعي تصميمها اتصال الداخل بالخارج وبالتالي استخدام مواد شفافة تبرز المعروضات مثل ألواح الزجاج، فيمكن أن تغور واجهاتها في مناطق مظللة. فتحل بذلك مشكلة انكشافها لأشعة الشمس، ونتمكن بالتالي من الاستفادة من الزجاج الذي يشكِّل أحد أهم عناصر العمارة الحديثة، وتوظيفه، من دون تحمل سلبياته.

تمثل الأبراج والمباني الضخمة ذات القشرة الزجاجية مساحة تطبيقية مهمة لعمارة الظل. وذلك من خلال



الاستفادة من فوائد الزجاج في العمارة الحديثة من دون تحمل سلبياته.. أمر ممكن

عبدالعزيز عياش

تسلل الشمس إلى الداخل يزيد الاعتماد على التكييف

تجزئـة وتكسير القشـرة إلى وحدات كتحويـل الواجهة إلى مربعات كما في برج منظمات المدن العربية في الكويت، أو بتظليل القشرة بالكامل بكاسرات أفقية. ومن أفضل الأمثلة علـى توظيف عمارة الظل في الأبراج العالية برج الفيصلية في الرياض. حيث استخدمت فيه كاسرات الشمس الأفقية وبعدة أحجام ليكتسي البرج بأكلمه بالظل.

وتراعـي عمارة الظل خلال مرحلة التخطيـط إسقاط الظل بيـن الوحـدات السكنية والمبانـي المختلفـة، وعلى ممرات المشاة فـي الطرقات، أو بين مجموعات من المباني تضمها منشأة واحـدة. وذلك بتغطيتها عن طريق استخدام عناصر معماريـة، أو بواسطـة مظـلات مستقلة أو عناصـر طبيعية كالأشجـار. وبذلك يتـم توظيف الظل في الممـرات كما في جامعة الملك فهد للبتـرول والمعادن في الظهران التي تعد، في مجمل تخطيطها وتصميمها، مثالاً جيداً لعمارة الظل.

لقد غاب الظل عن مدننا وهي في أشد الحاجة لتنميته وتكثيفه فـي أركانها. ولن تتمكـن من استعادته إلا عـن طريق تطبيق وتفعيـل قوانين التظليل في المشروعـات العمرانية، وتشجيع استخدامهـا وتبنيهـا كمؤشر لجـودة التصميـم والتخطيط وكشـرط لترخيص المشروعات. وحينئـذ سنتمكن من الحد مـن التلوث الداخلـي للمباني الذي يسببه الانغـلاق والتكدس الحـراري الناتج عن كثافة القشرة الزجاجية. وسنتمكن أيضاً مـن زيـادة مساحـات الجمال فـي أحياء المدينة وترقيـة ذائقتها المعمارية. وهذا مـا تسعـى إليـه عمـارة الظل التـي تنقل عمـارة الماضـي بكل ثرائه إلـى الحاضر بكل عطائه ونظرياته وتقنياته.

الفناء يوفِّر التهوية والتبريد للمسكن من خلال عمله كخزان للهواء البارد ليلاً، يعيد ضخه نهاراً

التبريد والتهوية الطبيعيان

وكمـا تقف فكرة عمارة الظل على الجسر الذي يربط التراث المعماري بالاتجاهات الحديثة المعاصرة، تقـف فكـرة أخرى هـي استخدام وسائـل التهويـة والتبريد الطبيعيـة في العمارة. كانت البيوت في الماضي تشيَّد بحيث تعتمـد فـي تهويتها على التهويـة الطبيعية، وكانـت النسائم دائمـاً مستحبة، لأنها كانت الوسيلـة الوحيدة للتبريد وكسح الهواء الساخن الراكد.

ويحفـل تراثنا المعماري بالأدوات التـي صممت للاستفادة من تبريد النسائم الطبيعي. وقد استوحت العمارة الحديثة هـذه الأدوات، وعملـت علـى تطويرهـا، وإعـادة إنتاجهـا بأساليب تعتمد على التقنيات الحديثة، وبتصاميم عصرية جذَّابـة لتقديـم أنظمة تهويـة وتبريد تعتمد علـى استغلال الهواء الخارجي، بعد تبريده طبيعياً، لخفض درجة الحرارة داخل المباني، بدون استخدام الطرق الميكانيكية المعقَّدة التي تدار بالطاقة الكهربائية مثل مكيفات الهواء المعروفة. ومن أهم هذه الأدوات الفناء وبرج التبريد الطبيعي.

يعتبـر فنـاء المنـزل أحـد العناصـر المعمارية التـي شاع استخدامهـا فـي العمارة العربيـة القديمة، وهـو يعبِّر عن واحـد من أهم المبادئ التي راعتهـا تلك العمارة وهو مبدأ التوجـه للداخل. إذ يتم بناء المسكـن بحيث تتوجه فتحاته نحو الفناء الداخلي الذي يوفر الظل والهواء النقي المعتدل، علـى عكس مبانينـا الحديثة التي تتوجـه نحو الخارج حيث الشارع بحرارته وغباره وضجيجه.

ويوفـر الفنـاء التهويـة والتبريـد الطبيعيين للمسكـن، إذ يعمـل كخزان تبريد يتجمع فيه هـواء الليل معتدل الحرارة فـي طبقات، ثم ينساب إلى الحجـرات المحيطة فيبرِّدها. وفي الصباح تبدأ حـرارة الهواء الذي تظلله جدران الفناء الأربعـة وكذلـك هـواء الحجـرات المحيطـة فـي الارتفاع تدريجيـاً وببطء، ولذلك تظـل حرارتها معتدلـة نسبياً في الوقت الذي تغمـر فيه أشعة الشمس أرجـاء المسكن. ومع تقـدم المساء يتصاعد هذا الهواء الدافئ إلى الأعلى ويحل محله هواء الليل الأكثر اعتدالاً في حرارته.



إسقاط الظل على ممر للمشاة

ويمكن زيادة فعالية الفناء عن طريق إتاحة مساحات واسعة من الظل خلاله. ويتم ذلك بعدة طرق منها زيادة ارتفاع المبنى المحيط بالفناء. فكلما زادت نسبة ارتفاع المبنى المحيط بالفناء إلى عرضه عند مستوى السقف، كلما قلت أشعة الشمس المتغلغلة إلى مستوى أرض الفناء. كذلك يمكن توفير الظل باستخدام عناصر معمارية كالسقوف البارزة أو البلكونات، أو استخدام أغطية السقف القابلة للانسحاب، أو اللجوء إلى عناصر التظليل الطبيعية كالأشجار.

أما فكرة أبراج التبريد الطبيعي، فهي تعتمد على واحدة من العناصر المهمة في التراث المعماري وهي الملاقف أو أبراج الهواء. في المباني القديمة في اليمن وعسير ودولة الإمارات، وفي إيران ومصر والسودان، نجد أبراجاً صُممت لتستقبل الرياح وتحولها إلى داخل البيت. فالهواء الساخن، وهو أخف من البارد، يتجه صاعداً إلى أعلى البرج، فيستدرج الهواء البارد إلى داخل البيت، لينشأ تيار مبرد «يكيِّف» المبنى بطريقة طبيعية. وكان البناؤون يجعلون واجهة برج التهوية في مقابل الشمال لاستقبال الهواء البارد الآتي من البحر المتوسط. وفي بعض الحالات كان سكان البيت يعلِّقون قماشاً مبلولاً في أعلى البرج، فإذا تبخر ماؤه ازدادت برودة النسيم الداخل. وكانت بعض الأبراج تزوَّد بشبك من السلك الناعم أو الخشن لتنقية الهواء من الأتربة والشوائب والحشرات، والبعض الآخر كان يُزود بكميات من الفحم المحروق الذي يساعد على امتصاص الروائح الكريهة من الهواء.

وفي عصرنا الحاضر أدخلت العمارة الحديثة الكثير من التطوير على الفكرة، لتقديم نظام أبراج التبريد الطبيعي التي تعتمد على إدخال الهواء الساخن الجاف عبر فتحات ضيقة، إلى عنصر التبخير المسؤول عن خفض درجة حرارة الهواء، وبالتالي، ينساب الهواء البارد إلى أسفل البرج نتيجه زيادة كتلته، ليصل إلى الفراغ المراد تبريده.

ليس بإمكان أحد أن يشكك في مدى الكفاءة التي تتمتع بها نظم أبراج التبريد الطبيعي، وقدرتها على إحداث فارق حقيقي في درجات حرارة المباني التي تزود بها، خلال فصل الصيف الحار. وهو الأمر الذي أدى إلى اعتمادها في الكثير


أشرف إحسان فقيه

الضوء في الداخل من دون الحرارة





عناصر العمارة التقليدية تنظر للظل أولاً

من التصاميم المعمارية الحديثة للأبنية السكنية في المملكة، بالإضافة إلى عدد من المنشآت مثل مبنى وزارة المعارف، ومركز التعمير الأول في مدينة الرياض. وفي مدينة دبي استخدم مجمع فندق مدينة الجميرة أبراج التبريد الطبيعي لإحياء فن المعمار التقليدي القديم على مقاس كبير، فقد كانت أبراج الهواء عنصراً أساسياً في مباني المدينة القديمة، حتى أن دبي كانت تبدو فيما مضى غابة من هذه الأبراج.

العزل الحراري

وخلال فصل الصيف تتدفَّق الحرارة الخارجية إلى داخل مساكننا، عبر الجدران والأسقف وكذلك عبر النوافذ وفتحات التهوية الطبيعية، فتتسبب في ارتفاع درجة حرارتها. ولذلك فإن أحد المبادئ التي تقوم عليها العمارة المتوافقة مع المناخ، هو مبدأ الفصل بين الجو الخارجي والجو الداخلي للمبنى، والحد من عملية التبادل الحراري بين الداخل والخارج، وهو ما يعرف بالعزل الحراري للمبنى.

يهدف العزل الحراري للمبنى إلى عزل غلافه الخارجي من هيكل إنشائي وجدران ونوافذ وأبواب لتوفير نوعين من الحماية. الأول هو الحماية الإيجابية لجدران وأسقف المسكن من أشعة الشمس المباشرة، والثاني هو الحماية السلبية لجدران وأسقف المسكن من اختراق الحمل الحراري إلى داخله والتي تحدث عن طريق التوصيل الحراري نتيجة الفرق بين درجات حرارة الهواء خارج وداخل المسكن.

العزل الحراري للمسكن يمكنه أن يخفِّض درجات الحرارة داخل المنزل صيفاً ما بين 10 و15 درجة مئوية

تعتمد فكرة العزل الحراري المبدئية على استخدام مجموعة مختلفة من المواد، تشترك في كونها مانعة لانتقال الحرارة (أو ما يطلق عليه المواد التي لها عامل توصيل حراري منخفض). مواد غير عضوية كالزجاج والاسبستوس والصوف الصخري، أو مواد عضوية مثل القطن وأصواف الحيوانات، والمطاط الرغوي أو البولي ستايرين أو البولي يوريثين. ويتم استخدام هذه المواد بإدراجها في الهيكل الخارجي للمبنى، أو عن طريق بناء الحوائط الخارجية للمبنى على هيئة جدارين مزدوجين تشغل المواد العازلة الفراغ الموجود بينهما.

لكن تحقيق العزل الحراري لمبنى ما بصورة كاملة ومتقنة يتطلب القيام بتجهيزات أخرى إضافية. إذ يجب الاهتمام بعزل السقف الأخير للمبنى، وكذلك عزل العناصر الإنشائية الخارجية مثل الأعمدة والكمرات والأعتاب. كما يجب تجهيز النوافذ بحيث تكون مزدوجة الزجاج ومزوَّدة بحاجز خارجي يقلل من نفاذ أشعة الشمس الحارة إلى الداخل، بالإضافة إلى إحكام الفتحات الأخرى مثل فتحات التهوية والتكييف. كذلك يجب استخدام أبواب خارجية مزدوجة عبارة عن بابين بينهما مسافة لا تقل عن المترين، حتى لا تتسبب حركة الدخول والخروج من المنزل في السماح للهواء الساخن بالاندفاع للداخل.

يقدِّم العزل الحراري فوائد كبيرة حين تطبيقه. أهمها تحقيق الراحة لمستخدمي المنزل. فقد ذكر الكثير من السكان أن درجات الحرارة في منازلهم المعزولة عزلاً كاملاً انخفضت من 10 إلى 15 درجة في الصيف بالمقارنة مع منازلهم السابقة غير المعزولة. كما أن العزل الحراري يؤدي وبشكل ملحوظ إلى تقليل قيمة فاتورة استهلاك الطاقة الكهربائية على صاحب المنزل في فصل الصيف. إذ يقل الاعتماد الكلي على أجهزة التكييف لتوفير درجة حرارة مناسبة، ويسمح ذلك باستخدام أجهزة تكييف ذات قدرات أصغر، وبالتالي تقل تكاليف استهلاكها للطاقة. ويمتد هذا التأثير إلى خفض استهلاك الطاقة على مستوى الدولة، وتخفيف الضغط على أحمال شبكات ومحطات الكهرباء بها. وتشير الدراسات في هذا الصدد إلى أن تطبيق استخدام العزل الحراري في المباني السكنية والمنشآت



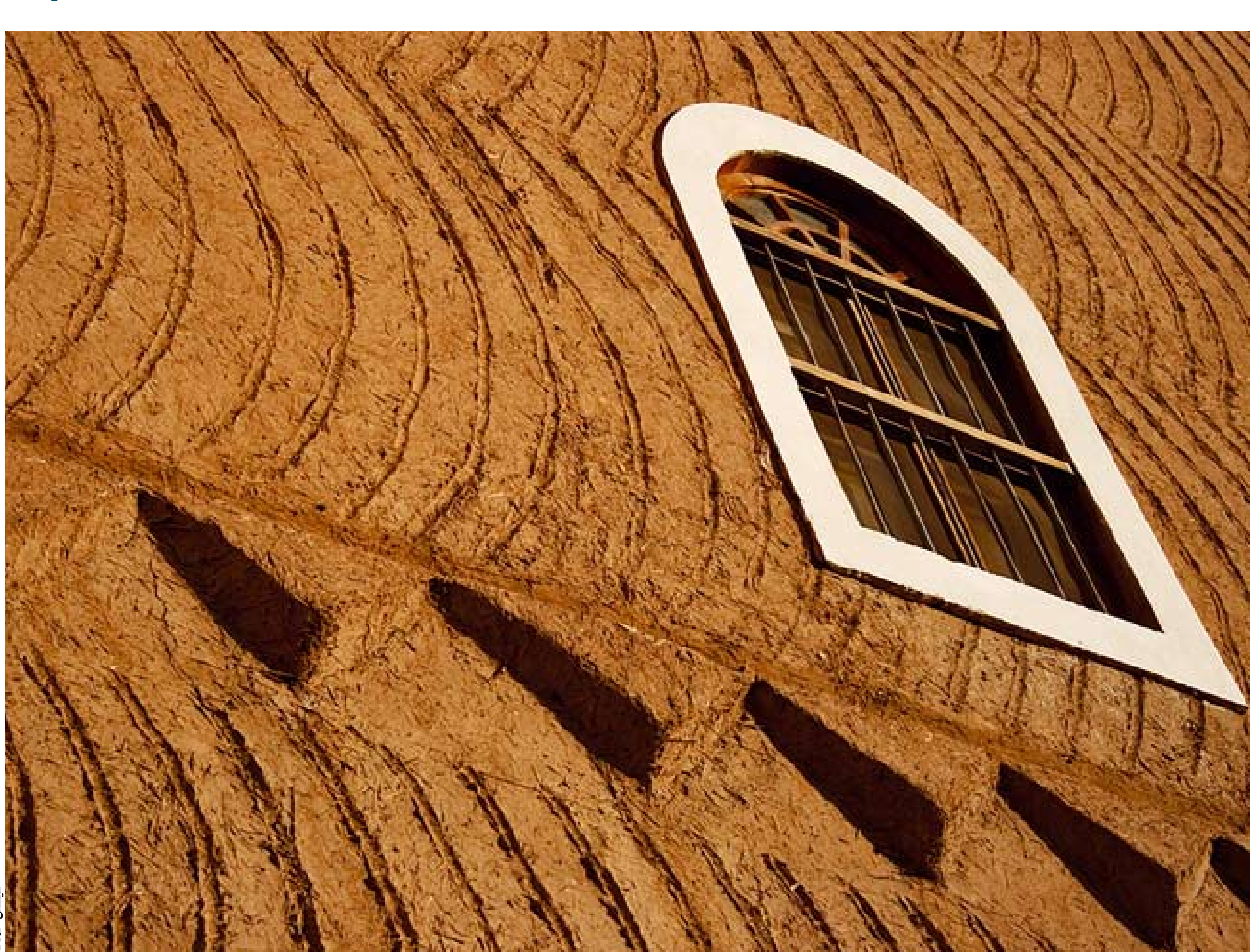
لتشجير الجوار دور كبير في تبريد المنازل

الحكومية والتجارية والصناعية يقلل من استهلاك الطاقة الكهربائية بمعدلات قد تصل إلى 40%. كما يعمل العزل الحراري على حماية المبنى من الإجهاد الحراري الناتج عن الفرق الكبير بين درجات الحرارة المرتفعة جداً في النهار، والمنخفضة نسبياً خلال فترة الليل. هذا التفاوت الذي يؤدي تعرض المبنى له باستمرار إلى اختلال في الخواص الطبيعية والميكانيكية لطبقة السطح الخارجي، وهو ما يتسبب في حدوث تشققات بها، وتصدعات وشروخ في هيكل المبنى.

إن العزل الحراري للمبنى هو تطوير لما كانت عليه العمارة القديمة من انتقائية في مواد البناء. فقد كانت جدران المنازل تبنى أساساً من طبقات سميكة من الطين المعروف بمقاومته العالية لنفاذ الحرارة، وكانت الأسقف المدعمة بالأخشاب، تُغطَّى كذلك بطبقات من الطين، لمنع حرارة الشمس من الدخول للمبنى عن طريق الأسقف والجدران. وإن كنا الآن لن نستطيع الاستغناء عن مواد البناء الحديثة التي تجمع الحرارة وتخزنها داخل المنزل، إلا أن عزلها حرارياً يسمح لمبانينا بالاستفادة من ميزاتها، في الوقت نفسه الذي يحد فيه من قصورها في الطريقة التي تتعامل بها مع حرارة الشمس.

وتتعدد الأسباب التي تقف خلف حاجتنا لعمارة جديدة متوافقة مع خصائص بيئتها ومناخها. وإذا كانت الأسباب التي تتعلق بالبيئة وبالاقتصاد هي أوضح هذه الأسباب، إلا أن الأمر يتعدى في حقيقته فكرة الحفاظ على البيئة، أو حفظ الموارد الاقتصادية التي ستصبح محدودة في يوم ما بالتأكيد. فحاجتنا اليوم لعمارة تتفق معنا، وتوفِّر لنا راحة العقل والجسم والحواس والروح، هي حاجة تمتد جذورها إلى مابعد هذه الأسباب «العملية». فمنذ أن عرف الإنسان معنى كلمة «البناء»، وهو يبني ما يعبِّر عنه.. عن فكره، وحاجاته، وتصوره لعلاقته بالعالم من حوله، مهما اختلفت خصائص حضارته، ومهما اختلف الحيز الذي يشغله على ظهر الأرض. أما اليوم فيرى المختصون ونرى معهم، أننا نعيش في مبانٍ لا تفهمنا، صممناها من دون أن نفهمها. يقول المفكر والمؤرخ المعماري جيمس واينس إن القرن العشرين بدأ بمعماريين يستمدون إلهامهم من النهضة الصناعية التي تفجرت أمام أعينهم، فأصبح كل منهم يرى المبنى وكأنه آلة، ويسعى في تصميمه إلى أن تحاكي مبانيه رمز ذلك العصر.. المحرك. لكن إذا تفهمنا أن يكون المحرك مصدر إلهام معماريي عصر الإمبراطوريات الصناعية، فإن كونه مصدر إلهام مستمر لنا حتى الآن في عصر المعلومات والتكنولوجيا النظيفة والوعي البيئي، هو أمر عصي تماماً على الفهم.







فيصل المالكي

مواد العمارة التقليدية تبقى الأجدى على صعيد العزل الحراري

تطبيق العزل الحراري في المنزل السعودي

لقد مَّر أكثر من عقدين من الزمن على صدور الأمر السامي رقم 7/905/م في 12/4/ 1405هـ (6/3/1984م) الذي ينص على وجوب المحافظة على الطاقة الكهربائية وترشيد الاستهلاك باستخدام العزل الحراري في المباني التي سيتم إنشاؤها مستقبلاً لمرافق الدولة. كانت مباني القطاع العام هي المقصودة بهذا القرار، وقد قطعت شوطاً طويلاً في طريق تنفيذه، حتى أصبح العزل الحراري الكامل والصحيح في وقتنا الحالي من المسلمات لدى القطاع الحكومي. أما بالنسبة للقطاع الخاص فمازالت معظم مبانينا عامة، والسكنية منها خاصة، تشيد بدون عزل حراري.

يتطلب الأمر تضافر جهود عدد من الجهات الحكومية المعنية بالأمر، سواء أكان ذلك عن طريق إصدار القوانين أو اتخاذ إجراءات عملية تمثل حافزاً للمواطنين على تطبيق نظام العزل الحراري في منازلهم. ويشمل ذلك تخفيض تعرفة استهلاك الكهرباء للمباني المطبق بها العزل الحراري الكامل، وألا يطبق عليها نظام تعرفة شرائح الاستهلاك المتصاعد الحالي، أو رفع تعرفة استهلاك الكهرباء للمباني غير المطبق بها العزل الحراري الكامل.

كذلك لابد لوزارة الشؤون البلدية والقروية من إصدار نظام يضمن تنفيذ العزل الحراري الكامل للمباني السكنية، وذلك عن طريق عدم اعتماد أي مخطط لأي مبنى سكني لا يتوافر به العزل الحراري لكامل أجزاء الغلاف الخارجي للمبنى، وإلزام المكتب المصمم بتقديم ما يفيد بقيام المالك بتنفيذ ما يتعلق بذلك في المخططات المعتمدة. وكذلك عدم توصيل خدمات الماء والكهرباء لأي مسكن لا يقدم تقريراً موقعاً من المكتب المصمم يفيد الالتزام بالعزل الحراري.

فقد بات من الممكن اليوم التأكد من عزل أي مبنى حرارياً عن طريق استخدام كاميرات تعمل بالأشعة تحت الحمراء لقياس مدى تسرب الحرارة إلى داخل المبنى.

أخذ الظل بالحسبان عند وضع التصميم.. حواف أفقية وعامودية تصد أشعة الشمس



فيصل المالكي



لماذا لم يتطور التكييف؟

حتى أواخر القرن التاسع عشر، كان التحكم في خصائص الهـواء مقصـوراً على معالجـة حرارته باستخـدام وسائل بسيطة لرفعها أو خفضها. كانت المراوح تستخدم للتهوية، ولكنهـا لم تكن مفيدة في كل الأحوال. وكان استخدام الثلج هو الطريقة الوحيدة للتبريد. فكان الثلج يُصنع في المصانع المحلية، قرب مواقع استهلاكـه، لأن وسائل نقله بعيداً من دون أن يـذوب لم تكن متوافرة. وبالرغم من أن استخدامه الأساسي كان تبريد الطعام وحفظه من الفساد، إلا أنه كان دليلاً مبكراً على إمكانية «تصنيع البرد» باستخدام الآلات. لكـن الأمر لم يصبـح ممكناً قبل العـام 1901م، حين قدَّم المهندس الأمريكـي ويليس هافيلاند كاريير أول تصميم لجهاز التكييف كما نعرفه الآن.

استخـدم كاريير نظرياته وخبرته العمليـة لتصميم جهاز يعتمـد علـى سحب الهـواء عبر مصـاف، ثـم تمريره على ملفـات تحتوي على مـواد مبردة. بعدهاً يتـم توجيه الهواء البـارد قليـل الرطوبـة إلى داخـل الغرف، بينمـا يتم طرد الهواء الساخن للخارج.

وعلى الرغم من أن التعريف العام للتكييف كجهاز يستخدم لضبط الهواء بالتحكـم في حرارته ورطوبته، لم يتغير منذ اختراعـه وحتـى أيامنا الحاليـة، إلا أن تكييـف اليوم يوفر لمستخدمـه مجموعة أخرى مـن المزايـا. فبالإضافة إلى توفيـر آليـة لضبط حـرارة الهـواء ورطوبته إلـى المعايير المناسبة والمريحـة، يتيح التكييف طريقة للتحكم في هذه الآلية بحسب رغبة المستخـدم. ويكون هذا التحكم تحكماً دقيقاً وتفصيلياً، في المقدار وكذلك في المدة الزمنية التي تعمل خلالها. وبالنسبة لاستهلاك الطاقة فإن تكييف اليوم يتعامل بكفاءة أعلـى مع الكهرباء، ويقدِّم ميزات أكبر فيما يتعلـق بتكاليفه سـواء أكانت تكاليف الشـراء أو التركيبات أو تكاليـف التشغيـل والصيانـة. كذلك فإن جمـال الشكل و«عصريتـه» ليسـت ميـزة هامشيـة، فالشـيء المؤكد هو أنـه أحد العوامل المهمة في اتخاذنا قـرار شراء التكييف، وتفضيل إحدى الماركات على الأخرى.

يحـاول تكييف اليـوم أن يكون صديقـاً للبيئة، فلا يستخدم مواد سامة في عملية التبريد، وتنخفض فيه معدلات انبعاث غازات البيت الزجاجي الضارة لأقل ما يمكن.

لكـن تكييف اليوم مع كل ما يقدِّمـه لنا، يبدو واقفاً في آخر الصف فيما يتعلَّق بالتطور التكنولوجي الذي يمس كل ملامح حياتنـا المعاصرة. تكييف اليوم مازال آلة إنتاج للضجيج.. مازلنـا نشعـر بالارتياح والدهشـة حين نوقفه مـن العمل، فنكتشف في ظـل الهدوء الذي ساد فجأة، حجم الضوضاء المزعجة التي كانت تحيطنا وقت عمله. تكييف اليوم مازال «جسماً غريباً» يفرض وجوده في كل غرف منازلنا. صحيح أنـه أصبح أصغر حجماً، وأكثر أناقة وانسيابية، لكنه مازال هنـاك. يشغل حيزاً من جدران الغرفة، كان من الممكن أن يكـون محفوظاً لعمل فني أو مـرآة، أو قطعة أثاث أجمل من هذا «الصندوق» وأكثر عملية منه.

والغريـب أن جهـاز التكييف لـم يبتعد خطـوات كثيرة عن المبـدأ القديم الـذي يكون الدافع فيه إلـى الابتكار هو حل المشـكلات. فحتى في أكثر صوره عصريةً، مازال التكييف يتبـع مبـدأ «الحاجة أصـل الاختـراع»، بينما يتبـع التقدم التكنولوجي الآن مبدأ الاختراع الذي يخلق حاجات جديدة.. حاجـات جديـدة لمستويـات أعلى مـن الراحـة والرفاهية والوفرة والسهولة في حياتنا.

لمـاذا لـم يصبـح التكييف فـي منازلنـا وحـدات صغيرة متصلة، تتم زراعتها وسـط هيكل المنزل، ويصلنا هواؤها البـارد المريـح عبر قنـوات، أو فتحات خفية فـي السقوف والجدران؟ لماذا لم يصبح نظاماً أكثر كفاءة، يقوم بتوزيع الهواء بطريقة متجانسـة في كل أرجاء الغرفة، فلا نضطر للجلوس «في حمـاه» في الأيام الحارة، ويخـرج منه الهواء منسابـاً، وليس مندفعاً في وجوهنا كما يفعل الآن؟ أو لماذا لـم يصبـح نظامـاً «أذكى» يعـرف حاجة أهـل المنزل من درجات الحرارة والرطوبة للهواء، عبر أجهزة قياس دقيقة. أو حتـى لماذا لـم يصبح نظاماً أكثر رفاهيـة، يقدم الهواء

لغرف المنزل محملاً بعطور، يختار صاحبه نوعها حسب ذوقه وحالته؟

يقول الخبراء إن الأمر يصبح أكثر تعقيداً حين يتعلق بالتكييف، عنه في حالة الأجهزة الأخرى التي نستخدمها في منازلنا. فأداء التكييف لا يعتمد فقط على الأداء الميكانيكي لأجزائه المختلفة، وإنما يعتمد وبالقدر نفسه على هندسة النظام ككل التي تترتب بواسطتها الأجزاء الميكانيكية المختلفة، بالإضافة إلى القنوات والأنابيب والوصلات ومخارج ومداخل الهواء وغير ذلك من لواحق. وبالتالي فإن تقديم أنظمة تكييف متطورة، يحتاج إلى أكثر من التطوير في الآلات المستخدمة لتركيبه. إذ إنه من الضروري أن يصل هذا التطوير إلى الطريقة التي ترتبط بها هذه الآلات لتكوين نظام التبريد بأجزائه ومراحله المختلفة. وتطوير الآلات وحدها لن يسهم بالكثير في تطوير التكييف، فحتى مع استخدام أحدث الأجهزة وأفضلها، فإن النظام ضعيف التصميم، سيستمر في تحقيق نتائج غير مرضية.

ربما يحمل هذا التفسير قدراً كبيراً من المعقولية، لكنه لا يقدِّم لنا الإجابة الكاملة. إذ إن الأمر يظل محيراً حين نجد أن التكنولوجيا التي نجحت في تصميم نظام لنقل المعلومات عبر كل أنحاء الكرة الأرضية، عاجزة عن تصميم نظام فعال ومريح لنقل الهواء البارد بين غرف منازلنا.

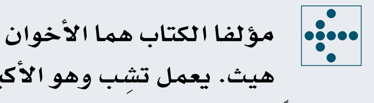

عبدالعزيز عياش

وأحياناً.. بعض أشعة الشمس قد يكون مطلوباً

قول في مقال

«خُلقت لتبقى»

أمام كتاب «خُلقت لتبقى: كيف يمكن لبعض الأفكار أن تعيش، بينما يموت الباقي؟» ستقف أمام مفترق طرق، حتى وإن كان وقوفك هذا لثوان. على يمين الكتاب، ستجد كتاباً آخر بعنوان «دليلك لتصبح مبدعاً خلال خمس دقائق»، وعلى يساره ستجد آخراً يقدِّم لك «وصفات وألعاب لعائلة خلّاقة».. وستسأل نفسك: هل تقرأ هذا النوع من الكتب، أم لا تقرأه؟ هل ستنضم إلى جماعة النوايا الطيبة، وستترك هذا الكتاب يقنعك أخيراً بأن هناك احتمالاً، ولو ضئيلاً، بأن في إمكانك أن تتعلم كيف تبدع، وتخلق، وتصنع الفكرة؟ سيشدك من كُمَّيْكَ أمران. الأول، يغويك بفكرة عنوانه وغلافه الجذَّاب، وبانضمامه لقائمة النيويورك تايمز لأكثر الكتب مبيعاً، بينما يأمرك الثاني بالانصراف عن هراء كهذا. فمنذ متى خلقت هذه الكتب مبدعاً، وكيف لمؤلفيها أن يعدونا بتعلم حرفة لم يثبتوا قدرتهم على إتقانها؟ الاحتمال الأكبر هو أنك بمجرد تصفحك للكتاب سوف تنسى الجدل، وستستغرقك العناوين والحكايات المثيرة للاهتمام والتي تمتلئ بها صفحات الكتاب، وتقرر ما إذا كنت ستبدأ القراءة منذ بدايته أم تتركه وتنتقل إلى كتاب آخر بناءً على مدى إعجابك بسرد الكاتبين الأخوين تِشب ودان هيث، وحتى تتخذ القرار، إسعاد عثمان* قرأت الكتاب لتقدِّم لك عرضاً مجملاً حوله.



مؤلفا الكتاب هما الأخوان هيث. يعمل تِشب وهو الأكبر مدرساً في قسم الدراسات العليا بكلية الأعمال بجامعة ستانفورد الأمريكية المرموقة، بينما يعمل دان مستشاراً في مؤسسة متخصصة بتقديم ورش العمل لموظفي الشركات، وهو عضو مؤسس لإحدى المؤسسات البحثية المختصة بتصميم وإنتاج الوسائل التعليمية الحديثة.

ورغم الاختلاف النسبي في مجالات عملهما، أدرك الأخوان هيث قبل سنوات قليلة أنهما قد أمضيا جزءاً من حياتهما العملية يدرسان كيف يمكن للأفكار أن تعيش وتبقى بشكل أو بآخر.

في مؤسسته التعليمية، يمضي دان وقتاً غير قليل في البحث عن أفضل الطرق لتدريس المواد المختلفة كالأحياء والاقتصاد والفيزياء وغيرها، ولهذا الغرض يعمل عن قرب مع أفضل معلمي هذه المواد في أمريكا: معلم الإحصاء الذي يعمل في الوقت نفسه مؤدياً هزلياً في أحد المسارح، معلم الأحياء الذي استحق لقب معلم السنة في أمريكا، معلم الاقتصاد القسيس الذي يهوى الكتابة للمسرح.

ومن عمله معهم، وصل دان إلى نتيجة واحدة: بالرغم من أن لكل معلم عظيم أسلوبه الخاص في الشرح، إلا أن هناك مجموعة من القوانين والطرق التي تشكِّل عاملاً مشتركاً بينهم مهما اختلفت خلفياتهم ومناهجهم.

أما تِشب، فقد أمضى سنوات عشر من حياته المهنية في جامعة ستانفورد باحثاً عن إجابةٍ لسؤالٍ واحد: كيف يمكن لبعض

* كاتبة من مصر

الأفكار أن تخلب ألباب الجمهور كليةً، بينما يطوي النسيان بعضها الآخر، دون أن يكون لهذا علاقة بالضرورة بمدى جودة الفكرة الرائجة أو رداءة المنسية.

وللإجابة عن هذا السؤال، بدأ بحثه بعدّ الأفكار التي لديها ميل فطري للبقاء في أذهان الناس، كالنكت والشائعات والأمثال الشعبية وحكايات الحرب وأساطيرها.
ومن هنا، قضى تشب وطلابه الذين جنّدهم معه في بحثه المحموم مئات من الساعات في تجميع أمثلة عن هذه الأفكار، وتشفيرها وتحليلها وتصميم دراسات بناءً عليها، حيث أجرى أكثر من 40 تجربة مع أكثر من 1700 مشارك للإجابة عن أسئلة من عينة:

- لِمَ لا تزال «توقعات نوستردموس» تُقرأ حتى اليوم بعد 400 سنة من صدورها، رغم عدم وجود ما يثبت أنها أكثر من مجموعة خرافات؟
- لِمَ لا يزال الناس يستخدمون بعضاً من العلاجات الشعبية رغم إثبات العلم عدم فعاليتها؟
- لِمَ لا تزال سلسلة كتب «شوربة الدجاج للروح» ملهمةً للكثيرين بعد سنوات من نشرها؟

للحفاظ على الأفكار الأخرى

وعلى هذا المنوال سارت دراسات تشب إلى أن جمع ما يكفي لتقديم مادة جديدة في الجامعة كان عنوانها «كيف تتمكّن الأفكار من البقاء»، وكان أساس هذه المادة هو أننا إن فهمنا ما الذي يبقي بعضاً من الأفكار حيةً بيننا، فإننا نستطيع بالتالي أن نعدّل من بقية الأفكار الأخرى لتبقى هي أيضاً.

وخلال نقاشهما المشترك، أدرك الأخوان هيث أنهما كانا يبحثان عن إجابة لسؤال واحد، وما يختلف هو طريقتهما في طرحه. ووجدا الإجابة في مجموعة من التيمات والصفات المشتركة في مدى واسع من الأفكار الناجحة، تأكدت لهما عندما راجعا المئات من القصص التراثية الفلكلورية التي توارثتها الأجيال بشغف، ونظريات علماء النفس والاجتماع، وكان هذا الكتاب نتيجةً منطقية لمحاولتهما الإجابة عن السؤال الأهم: ما الذي يبقي الفكرة حية؟ حيث كتباه لتمكين فكرة القارئ -أياً كان حجمها ضمن المقياس العام للأمور- عن البقاء. وأن تبقى الفكرة وتعيش، فهذا يعني أن يفهمها الناس أولاً، وأن يتذكروها، وأيضاً أن تؤثر على تصرفاتهم أو مفاهيمهم في المدى البعيد.

فعلى سبيل المثال، يمكن أن تكون هذه الفكرة استراتيجية جديدة يحاول أحد المديرين حث مرؤسيه على تطبيقها، ويمكن أن تكون وحدة دراسية معقدة يحاول معلم الكيمياء شرح مصطلحاتها لتلاميذه، ويمكن أن تكون رأياً ثورياً يحاول أحد الصحافيين إقناع جمهوره به.

تغيير تصميم الفكرة وليس جوهرها

المختلف في الكتاب أولاً أنه قائم على تحليل دقيق آتٍ من باحثين لهما مصداقيتهما الأكاديمية، وثانياً أنه لا يناقش أحقية فكرتك أو أفكار الآخرين في البقاء، فهو يتجاوز هذه المرحلة ويفترض أن لكل الأفكار حقاً في البقاء.

كما أن الكتاب لا ينصحك بأن تبني فكرتك على ملاحظتك للأحداث الراهنة، فتغير مثلاً من استراتيجية تسويقك التي اخترتها لتواكب أخرى جديدة، كما أنه في الوقت نفسه، لا يتعامل مع ما عدا الفكرة.. فهو لا يتحدث مثلاً عن السبل التي تسهّل لك معرفة جمهورك، أو لغة جسدك أثناء توصيلك لفكرتك. ما يقدّمه الكتاب حقيقةً هو طرح لإعادة تصميم الفكرة، وليس تغييراً في جوهرها.

عبر مجموعة من السمات وجد مؤلفا الكتاب أنها مشتركة بين كل فكرة باقية بين ظهرانينا حتى اليوم، وهذه السمات هي على الترتيب: البساطة، اللامتوقع، المحسوس، المصداقية، العاطفة، والقصة.

ويخصص الكتاب لكل سمة فصلاً كاملاً يشرح مراحلها بالأمثلة التفصيلية.
ولذلك ربما يمكنك اعتبار فائدة الكتاب في تنظيمه ومنطقيته، فهو ليس تجميعاً لتعاليم عامة قد تكون بديهية لكثير من الناس، وهو في الوقت نفسه ليس تأصيلاً نظرياً جميلاً لكنه لا يفيد كثيراً أصحاب النظرة العملية. هو تحليل دقيق ومنهجي لمادة جمعها باحثان لهما مصداقيتهما الأكاديمية.

وبناءً على هذا التحليل يمكنك ببساطة أن تضع السمات الست أو البنود في قائمة في صفحة واحدة، وتتأكد من أن فكرتك تحتوي عليها جميعاً، وتعيد تصميم فكرتك حولها إن لم تكن، لتزيد من احتمالية نجاح فكرتك وبقائها.

تستطيع أن تقول، لهذا التفكير المنظَّم وحده، إن الكتاب لا ينتمي إلى الكتب العائمة التي تعدك بالمعجزات، وتستطيع أن تضعه ضمن قائمة الكتب الجادة التي قد تفيدك إن قرأتها في يومٍ ما.

أزمة مؤسسي الشركـات

«تهانينا لقد نجحت، لذا نصرفك من العمل»!

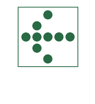
يرغب معظم مؤسسي الشركات في الاستمرار على رأس العمل حتى أطول مدة ممكنة من جهة، وكسب الكثير من المال من جهة أخرى. غير أن الأبحاث الحديثة تشير إلى أن النجاح في الأمرين معاً صعب. وإذا لم يكن المؤسس غير واثق أي الأمرين يهمه أكثر من الآخر، فقد ينتهي به الأمر إلى خسارة الاثنين معاً.

هذه هي الخلاصة التي نشرتها مجلة «هارفرد بزنس ريفيو»* مؤخراً، وتعرض القافلة هنا أبرز ما جاء فيها بتنسيق خاص مع المجلة.

الصيت

الغنى

رسوم الموضوع: المحترف السعودي ع.ص.



ليس ثمة في الدنيا صاحب مشروع، إلا ويطمح أن يصبح بيل غيتس آخر، أو فيل نايت أو أنيتا روديك. فكل من هؤلاء أسس شركة عملاقة وأدارها سنوات طوالاً.

غير أن المدير العام التنفيذي - المؤسس الناجح ظاهرة نادرة جداً. فعندما حللنا سيرة 212 مشروعاً، تأسست ونمت نمواً كبيراً في أواخر تسعينيات القرن الماضي وأوائل القرن الجديد، اكتشفنا أن معظم المؤسسين تخلوا عن إدارة شركاتهم، قبل طرح أسهم هذه الشركات على جمهور المستثمرين بمدة طويلة. ومع بلوغ الشركات التي تناولها البحث سنتها الثالثة، كانت نسبة المؤسسين الذين تخلوا عن الرئاسة التنفيذية فيها 50%. وفي السنة الرابعة هبطت نسبة المؤسسين الباقين في الرئاسة التنفيذية إلى 40%. أما الذين مكثوا في الإدارة العامة، عند طرح الأسهم على الجمهور، فكانوا أقل من 25%. واستنتج باحثون آخرون نتائج مشابهة في مختلف القطاعات الصناعية، وفي حقب أخرى أيضاً. ونحن نذكر المؤسسين المديرين التنفيذيين في شركات الصناعة الأمريكية، لكن هؤلاء قلة واستثناء شاذ على القاعدة.

بعد انطلاق أعمال الشركة، على المؤسس أن يختار بين الاحتفاظ بالسلطة، أو كسب المال

ومع هذا، لا يترك المؤسسون الأمور تفلت من أيديهم بسهولة. فمن كل خمسة، يُجبر أربعة من مؤسسي الشركات على التنحي عن منصب الرئيس المدير التنفيذي. فمعظم المؤسسين يُصابون بالذهول حين يدفعهم المسهمون إلى التنحي عن الرئاسة التنفيذية. ويكون إخراجهم بوسائل لا يستسيغونها، وفي وقت يسبق كثيراً الموعد الذي يختارونه هم للتنحي. وقد يكون تغيير قيادة الشركة ضاراً جداً، حين يكون ثمة موظفون أوفياء للمؤسس يعارضون هذا التغيير. وفي الحقيقة، نجد أن الأسلوب الذي يواجه به المؤسسون أول تغيير يحدث في قيادة الشركة، قد يقضي على الكثير من المؤسسات الحديثة، أو ينقذها.

ويحدث التغيير بسلاسة نسبية، حين يتحلى المؤسسون بالنزاهة في حوافزهم التي دفعتهم إلى دخول عالم الأعمال. وقد تسأل: أليس هذا أمر مفروغ منه؟ ألا يبدأ الناس المشروعات لكسب المال؟ هذا صحيح. ولكن، أظهرت دراسة نُشرت في صحيفة الاقتصاد السياسي (Journal of Political Economy) سنة 2000م، ودراسة أخرى نُشرت بعد سنتين في النشرة الاقتصادية الأمريكية (American Economic Review) أن المؤسسين، بصفتهم شريحة، يكسبون من المال ما كانوا يكسبونه لو ظلوا موظفين فقط. والحق أنهم ربما يكسبون أقل، إذا أخذت في الحسبان المخاطرة التي يتعرضون لها.

أي الطريقين يختارون؟

أمام المؤسس سلوكان وعليه أن يختار أحدهما بوضوح: كسب المال أو السلطة. قلة فقط أحرزت الأمرين معاً. وليس التفسير عسيراً على الفهم. فثمة عامل آخر بالطبع يحفِّز المؤسس، مع رغبته في الثراء، وهو النزعة إلى إنشاء مؤسسة وقيادتها. المفاجئ في هذه الصيغة هو أن محاولة بلوغ إحدى الرغبتين يعرض الرغبة الثانية للخطر. وعلى المؤسسين أن يواجهوا هذا الخيار في كل خطوة يخطونها، بين أن يكسبوا مالاً، وأن يديروا مؤسستهم. والذين يعجزون عن تبين الأمر الأهم عندهم، ينتهون إلى خسارة المال والسلطة معاً.

في وجدان المؤسس

يؤمن المؤسسون عادة بأنهم وحدهم قادرون على إنجاح الشركة في مرحلة نشوئها. فيقول بعضهم: «أنا صاحب الرؤية والرغبة في إنشاء شركة كبيرة. ولا بد من أن أديرها أنا بنفسي». ولا شك في أن هذا القول صحيح جداً. ففي البدء تكون الشركة مجرد فكرة في رأس مؤسسها، الذي يعرف كل الآفاق المفتوحة أمامها، وكذلك كل التجديد المنشود في النتاج الذي ستصنعه الشركة، أو الخدمة التي تزمع توفيرها، أو نموذج الأعمال الذي تراهن عليه. ويعرف المؤسس من هم الزبائن المحتملون الذين سيقصدهم. ويوظف المؤسس الأشخاص الذين سينشئون الشركة وفق رؤيته، ولذا تقوم علاقة خاصة بينه وبين هؤلاء الموظفين الأوائل. وهو الذي يضع اللبنة الأولى في الثقافة التنظيمية المؤسسة للشركة. وهي تعبِّر عن أسلوبه وشخصيته وميوله. وفي مراحل البداية، تجد أن أوائل الموظفين والزبائن والشركاء، ينظرون إلى الشركة والمؤسس على أنهما واحد، ويفتخر الرئيس التنفيذي المؤسس بهذا الأمر كثيراً.

والشركات الجديدة قصة حب في نظر مؤسسيها. فهم يتعلقون بمؤسساتهم بعلاقة وجدانية وعاطفية، ويسمونها: «طفلتي» My Baby. ويستخدمون لغة من هذا القبيل في وصف الشركة، من دون أن يلاحظوا. ويظهر حبهم للشركة، في ضآلة الراتب الذي يختارونه لأنفسهم. إذ أظهرت دراسة لخمسمائة وثمان وعشرين مؤسسة جديدة، أنشئت بين 1996 و2002م، أن 51% من المؤسسين كسبوا مالاً يساوي أو يقل عن المال الذي يكسبه بعض موظفيهم. وحين يتساوى مستوى التحصيل، كانوا يتقاضون 20% أقل من غير المؤسسين الذين تولوا أعمالاً شبيهة.

ويبالغ كثير من المؤسسين في ثقتهم بمستقبلهم، ويتسمون بالسذاجة في شأن المشكلات التي تعترضهم. فمثلاً، في سنة 1988م، سأل الباحث في الشؤون الاستراتيجية في جامعة بيرديو، أرنولد كوبر واثنان من زملائه، 3000 مؤسس شركة، سؤالين بسيطين: «ما حظ شركتك من احتمال النجاح؟» و«ما حظ أية شركة مثل شركتك من احتمال النجاح؟» وادعى المؤسسون الذين شملهم الاستفتاء أن حظ شركاتهم من احتمال النجاح 81%، في المعدل، لكن حظ الشركات الشبيهة الأخرى لا يتجاوز في نظرهم 59%. ولم يتوقع 80% من المؤسسين الذين شملهم الاستفتاء أقل من 70% من احتمال نجاح شركاتهم. حتى أن ثلثهم ادعى أن احتمال نجاح مؤسساتهم هي 100%. وتعلق المؤسس بشركته تعلقاً عاطفياً وثقته الزائدة بل سذاجته قد تكون ضرورية في مرحلة إنشاء الشركة وإدارتها في البدء. لكن هذه الصفات تصبح مصدر مشكلات في المستقبل.

المصاعب المتعاظمة

قد يكتشف المؤسس أن موارده المالية وقدرته على إلهام الناس وحماسته، لم تعد كافية لتستفيد مؤسسته من كل الفرص المتاحة أمامها. فيدعو أفراد العائلة والأصدقاء والمستثمرين الأسخياء أو شركات الاستثمار، إلى توظيف رؤوس أموالهم في شركته. وبذلك يدفع ثمناً باهظاً: ففي الغالب يتعين عليه عندئذ أن يتنحى عن سيطرته التامة على الشركة. وقد يسمح المستثمرون الأسخياء للمؤسس بأن يكون له صوت أعلى مما تسمح به الشركات المساهمة في المعتاد. لكن في كلتا الحالتين ينضم إلى مجلس إدارة الشركة مديرون من خارجها.

وما إن يفقد المؤسس سيطرته على مجلس الإدارة حتى يصبح بقاؤه رئيساً مديراً تنفيذياً في خطر. ويكون على مجلس الإدارة أن يقوم بواجبه. ولكن حتى عندما يتعثر المؤسس الرئيس المدير التنفيذي في أداء مهامه، قد يصعب على مجلس الإدارة أن يُقنعه بعرض «طفلته» للتبني. غير أن الحاجة إلى التغيير في المراتب العليا تصبح أشد إلحاحاً، حين يكون الرئيس المؤسس قد أدى أداءً جيداً. ولنشرح هذا الأمر الذي قد يبدو مناقضاً للمنطق.



إن المهمة الأولى التي تواجه أية شركة جديدة هي أن تطوِّر إنتاجها أو خدماتها. ويعتقد كثير من المؤسسين أنهم إذا كانوا قد أفلحوا في قيادة تطوير المؤسسة في مراحلها الأولى، ففي هذا دليل ساطع على نجاحهم في الإدارة. ويظنون أن ليس للمستثمرين أن يشكوا أو يتذمروا، بل عليهم أن يدعموا بقاءهم في موقع القيادة.

إن نجاح المؤسس يعسِّر عليه أن يستوعب أن الاحتفال بنزول المنتجات الأولى إلى السوق، هو أيضاً احتفال بانتهاء مرحلة. ففي هذه اللحظة يواجه قادة الأعمال مجموعة جديدة من التحديات. وعليهم في هذه الحقبة أن يجعلوا الشركة قادرة على التسويق وبيع مقدار كبير من منتجاتها، وتوفير خدمات ما بعد البيع للزبائن. عندئذ يتعقد حساب الشركة المالي، فيتعين على المؤسس أن يزداد اعتماده على المديرين الماليين والمحاسبين. ولا بد للشركة من أن تطور بنية أقوى، وعلى الرئيس المدير التنفيذي أن ينشئ مسارات عمل واضحة، وينمي المهام المتخصصة، ويقيم نظام رتب إدارياً. إن الحاجة الماسة في هذه المرحلة، إلى التوسيع الهائل للمهارة المطلوبة، تُثقل على معظم الرؤساء المديرين التنفيذيين بأكثر مما يستطيعون.

فالمؤسس الرئيس المدير التنفيذي، الذي يتصف بالمهارة في التكنولوجيا، مثلاً، قد يكون أفضل من يقود الشركة في مرحلة إنشائها الباكرة. لكن الشركة تنمو، وتحتاج إلى شخص يتصف بمهارة من نوع مختلف. وفي الواقع، فإن تحليل الوضع في مجالس إدارة 450 شركة خاصة، يظهر أن المستثمرين من خارج الشركة يسيطرون على مجلس الإدارة أكثر، حين يكون الرئيس المدير التنفيذي هو المؤسس، وحين يكون تحصيله الأكاديمي في العلوم أو التكنولوجيا لا في التسويق والمبيعات. كذلك حين تبلغ خبرة الرئيس المدير التنفيذي 13 عاماً في المعدل.

لذا، كلما أسرع المؤسس الذي يتولى مهام الرئيس المدير التنفيذي، في إيصال شركته إلى المرحلة التي تحتاج فيها



إلــى تمويل خارجي وكفــاءة إدارية جديــدة، كلما تسارعت خطــاه نحــو فقــدان سيطرتــه علــى إدارة هــذه الشركــة. والنجــاح إذن يجعل المؤسس أقل ملاءمــة لقيادة الشركة، ويبدل خريطة القوى المنشــودة، وبذلك يضعفه. والرسالة الضمنيــة التي يتعين على المستثمرين في الغالب أن يبعثوا بها إلــى المؤسـس المديـر التنفيذي، هي: «تهانينــا، لقــد نجحت، ولــذا فأنت للأسف مصروف من العمل»!



قد يكون المؤسس أفضل من يقود الشركة في مرحلة إنشائها، ولكن نجاحها قد يضعف من جدوى قيادته

وتحين لحظة الحقيقة عند المؤسس أحياناً بسرعــة. وثمــة شركــة استثمــار رأسمالــي تعمل في سيليكون فالــي، (حزام الصناعة الرقميــة في كاليفورنيا)، تشترط، عند أول إسهام استثماري لها فــي أية شركة ناشئة، أن تمتلك 50% مــن رأسمالها على الأقل. ويتبع مستثمرون آخــرون، من أجل تضييق مجال المخاطرة في استثمارهم، أن يوظفــوا مالهم في مراحل، وفي كل مرحلة يتبدل تشكيل مجلــس إدارة الشركــة، ويــزداد تهديــد موقــع المؤسـس وسيطرتــه على الشركة. ثم يحتــاج الأمر عادة إلى جولتين أخرييــن أو ثلاث، قبــل أن يُحكم المستثمــرون الخارجيون سيطرتهــم على 50% أو أكثر مــن أسهم الشركة. وفي هذه الحالات يتيح هؤلاء المستثمرون وقتاً أطول للمؤسس المدير التنفيذي، في قيادة شركتهم، لأنه سيأتيهم تكراراً في طلب المزيد مــن المال، لكنهم في لحظة معينــة، يضعون يدهم على مجلس الإدارة.

أوان الاختيار

حين تأخذ الشركات الناشئة في النماء، يواجه مؤسسوها مشكلة محيِّرة، مشكلة قلَّما يتنبهون لها في البدء. فعليهم من جهة، استدراج موارد جديدة لاستثمار الفرص المتاحة أمامهــم. فــإذا اختــاروا المستثمــر المناســب، تعاظمت أرباحهم المالية. وقــد تبين أن المؤسس الذي يتيح مجالاً أوســع لاجتذاب مؤسسين آخرين معــه، ويتقبل نسبة أكبر من الموظفين والمستثمرين غير المؤسسين، ينشئ شركة أفضــل مــن ذلــك المؤســس الــذي لا يرضــى التخلي عن حصص كبيرة من الأسهم. وفي الحالة الأولى ينتهي الأمر بالمؤســس إلى اكتساب حصة أكبر من الأسهم. ومن جهة أخرى، إذا أراد المؤسس أن يجتذب مستثمرين ومديرين، فعليــه أن يتنــازل عــن سيطرته على معظــم مفاصل صنع القرار.

ويتوقــف على هــذا الجدال، مصيــر المؤســس: هل يصبح ثريــاً، أم يتوَّج ملكاً؟ أن يختار المؤسس الثراء يعني أن يتيح للشركة أن تنمو فــي قيمتها، بالتنحي عن الواجهة والتنازل عن منصــب الرئيس المدير التنفيذي، والكف عن الانفراد بالقرارات الكبرى. أمــا اختيار المؤسس أن يكون «الملك»، فيتيح له البقاء في منصب الرئيس المدير التنفيذي، وإبقاء أزمَّة مجلس الإدارة في يديه، لكن في معظم الحالات يفضي الأمر إلى إنشاء شركة أقل قيمة. ولا يرى كل المؤسسين أن الثراء أفضل من «المُلك» أو العكس. فالمسألة هي: هل نجح القرار الذي اتخــذوه في هذا المجال، في تحقيق طموحهم الذي حفَّزهم على تأسيس الشركة أم لا.

لننظــر مثــلاً في حالــة المؤســس المشــارك فــي «أوكهام تكنولوجيز» رئيسها التنفيذي جيم تريداندفلو، الذي قدَّر سنة 2000م، أن عليه اجتذاب مستثمرين لتبقى الشركة على قيد الحيــاة. وسرعان ما استجــاب لندائه مستثمرون عديدون، منهم واحــد سخي لا خبرة لديه، وآخر هــو شركة استثمار رأسماليــة معروفة. وكان شأن عرضــ المستثمر السخي أن يترك لتريداندفلو السيطــرة على مجلس الإدارة، فلا ينضم إليه سوى شريكه المؤســس والمستثمر الجديد. أما عرض المستثمــر الثاني، فترك له مقعديــن من خمسة في مجلس الإدارة. وفهــم تريداندفلــو أن الشركــة إذا كان يرجو لها أن تنمــو أكثر، فلا بد من اختيار استثمار الشركة الرأسمالية، لا المستثمر السخي. وبعد طول تفكير قرر أن يجازف، فباع حصة من الأسهم لشركــة الاستثمار المعروفة. وتخلى عن سيطرتــه على مجلس الإدارة. لكنه في المقابل كسب موارد وخبرة الشركة الجديدة، فزادت قيمة أوكهام أضعافاً.

مــن جهة أخرى، ثمة مؤسسون يتمسكــون بشركاتهم لتبقى لهــم السيطرة. فجون غابرت مثــلاً، مؤسس شركة روم أند بــورد، هو تاجــر مفروشات ناجح يعمل فــي تجارة المفرق، وقــد أسس تسعة محــال. وأصــر دوماً على رفضــ التمويل الــذي يمكن مؤسسته مــن تسريع نمائها. فقــد كان يخشى أن يفقــده هذا التوسع السيطرة على المؤسسة. وقال لمجلة «بيزنس ويك» سنة 2007م: «العروض أعظم من أن أقبلها». والواضــح أنه عــازم على لزوم الخيار الــذي اختاره ما دام قادراً على إدارة شركته بنفسه.

يبدأ معظم المؤسسين وفي نفوسهم كلا الطموحين: الثراء والسلطة معاً. لكن ما إن يتمكنوا من النجاح حتى يأخذوا في

تغليب أحد الطموحين على الآخر. إذ يكون واحدهم عندئذ في الوضع الذي يمكنه من معرفة أي الأمرين أهم عنده. وتدلهم قراراتهم السابقة في شأن المؤسسين الشركاء والموظفين والمستثمرين، على ما يفضّلون حقاً. فما إن يعرفوا وجهة تفضيلهم حتى تصبح الخطوات التالية أسهل.

فالمؤسسون الذين يعرفون أن حافز الثراء عندهم هو أهم من الاحتفاظ بالسيطرة على الشركة، سيهتمون باستخدام رؤساء تنفيذيين جدد بأنفسهم.

37% من مؤسسي شركات التكنولوجيا الناشئة غادروا شركاتهم عندما تسلّم إدارتها التنفيذية مدير محترف

على العكس، ينزع المؤسسون الذين تحفِّزهم رغبة إبقاء السيطرة في أيديهم، إلى اتخاذ قرارات تعزِّز قبضتهم، في القيادة، على حساب احتمال تعظيم قيمة الشركة. والراجح أن يظلوا منفردين بصفة المؤسس، ويحصروا عملهم برأسمالهم الخاص، لا رأسمال المستثمرين الذي قد يدفع بهم إلى صفقات تزعزع سيطرتهم على الشركة. وبذلك يوظفون مديرين تنفيذيين لا يزاحمونهم على التحكم في الشركة. ففي سنة 2002م مثلاً، أراد المؤسس المدير التنفيذي في شركة تكنولوجيا معلومات مقرها في بوسطن أن يستدرج مبلغ خمسة ملايين دولار في جولة تمويل أولى. وفي أثناء تفاوضه مع المستثمرين المحتملين، لاحظ أنهم جميعاً مصرون على توظيف رئيس مدير تنفيذي محترف. ولمَّا أفهمهم أنه «غير مستعد لتسليم الشركة لشخص آخر»، اكتفى بمبلغ مليوني دولار، ليبقى رئيساً مديراً تنفيذياً في السنتين التاليتين.

ويستخدم بعض أصحاب شركات الاستثمار ملاحظتهم لعوامل الميزان بين الثراء والسيطرة، ليقرروا إذا كانوا سيستثمرون في شركات يقودها مؤسسها. ويذهب بعضهم إلى الطرف الأقصى، فيرفضون دعم المؤسسين الذين لا يحفزهم المال. وبعضهم الآخر لا يستثمر في شركات ناشئة، إلا إذا كانت لدى المؤسس الكفاءة لقيادة الشركة في المدى الطويل. وحتى هذه الشركات، تشترط تبديل ما يصل إلى ربع الرؤساء المديرين التنفيذيين المؤسسين، في الشركات التي يمولونها.

ولا تُستثنى الشركات العريقة من هذا الاختيار بين الثراء والسلطة. ويعود أحد أفضل الأمثلة التاريخية إلى عام 1917م، حين عُرض على هنري رويس دمج شركة رولز - رويس، بشركة فيكرز، وهي شركة كبيرة لصنع السلاح، من أجل إقامة شركة بريطانية أقوى. فكان رد رويس: «من وجهة نظر شخصية أفضِّل أن أكون سيداً مطلقاً في قسمي الخاص، (حتى لو كان صغيراً جداً)، على أن أشارك في قسم أكبر بكثير، لي فيه شركاء يراقبون معي». فقد أراد رويس السيطرة لا المال.

إن الاختيار بين الثروة والسلطة يتيح لأصحاب المشروعات أن يقفوا أمام العناصر الحقيقية التي تقودهم إلى النجاح. فالمؤسس الذي يريد أن يدير إمبراطورية، لن يعد نفسه ناجحاً، إذا فقد السيطرة على المؤسسة، ولو جمع منها ثروة. على العكس، حين يكون في ذهن المؤسس أن يجمع ثروة، فلن يرى نفسه فاشلاً، حين يتنحى عن قيادة المؤسسة. وعندما يفهم أصحاب المشاريع لماذا ينشئون المؤسسات، فعليهم كما يقول المثل الصيني: «أن يقرروا من البداية في ثلاثة: قواعد اللعبة، ومبلغ الرهان، وموعد التنحي».

إبقاء المؤسس في مجلس الإدارة

ماذا يفعل مجلس الإدارة حين يطلب من المؤسس أن يتنحى من منصب الرئيس المدير التنفيذي؟ في الحالة المثلى، على مجلس الإدارة أن يبقي المؤسس معنياً بشكل أو بآخر في العمل، وفي الغالب عضواً في المجلس، وأن يستفيد من علاقاته ومعرفته، لمساعدة الرئيس المدير التنفيذي الجديد، في بلوغ النجاح. ويقول أحد المستثمرين في هذا الشأن: «يمكنك أن تستبدل رئيساً مديراً تنفيذياً، لكن لا يمكنك أن تستبدل مؤسساً».

وكثيراً ما يكون إبقاء المؤسس في مجلس الإدارة غير مضمون النتائج. فالمؤسس يستطيع أحياناً أن يؤدي من دون وعي، عملاً سلبياً. وقد يقاوم التغيير الذي يقترحه الرئيس الجديد، ويحض الموظفين الأوفياء له على المغادرة. وقد يعمد مجلس الإدارة والرئيس الجديد، إلى معالجة هذه الحال، باتخاذ أنصاف حلول، فتُوكَلَ إلى المؤسس مهمة تجميلية. لكن هذا الحل قد يفضي إلى نتيجة ضارة. فمثلاً، في شركة ويلي تكنولوجي، وافق لو سيرن على أن يصبح رئيس قسم التكنولوجيا، بعدما تنحى عن منصبه رئيساً مديراً تنفيذياً. لكنه اكتشف فيما بعد أن أحداً لم يكن يعود إليه بأي أمر. كذلك طلب إليه خلفه أن يتنحى عن منصب





رئيس مجلس الإدارة. وقد تفاقمت من جرَّاء هذا حال التململ في الشركة.

يظهر استطلاع الأحوال في الشركات التكنولوجية الناشئة، أن 37% من المؤسسين الذين يحتلون منصب الرئيس المدير التنفيذي غادروا شركاتهم حين تسلَّم المنصب الأخير مدير محترف. وفي 23% من الحالات، قبل المؤسس بمنصب دون الرئيس المدير التنفيذي. فيما تولى 40% منصب رئيس مجلس الإدارة. ودلت دراسة أخرى تناولت الشركات السريعة النماء، أن 25% من المؤسسين غادروا الشركة عند إحلال رئيس مدير تنفيذي جديد مكانهم، فيما بقي 50% منهم في مجلس الإدارة في السنوات الخمس اللاحقة.

ويمكن لمجلس الإدارة أحياناً أن يساعد المؤسس في أن يلعب دوراً جديداً. فإذا كان لدى المؤسس ميل إلى مهام خاصة، ففي استطاعة مجلس الإدارة أن يكلفه تولي هذا القطاع فيترك للرئيس المدير التنفيذي الجديد كل الأمور التي لا يحب توليها، مثل الهندسة مثلاً. وبذلك يتاح للمؤسس أن يقدر إسهام من يخلفه في منصبه. وكلما ازدادت القيمة التي يضيفها الرئيس الجديد، ازداد المؤسس قبولاً للمرحلة الانتقالية. وكلما كان الرئيس الجديد مختلفاً عن المؤسس، مثلاً لو كان يكبره بسنوات عشر، كان قبول المؤسس للتغيير الذي حدث أسهل.

والمؤسس الذي يريد أن يحتفظ طويلاً بمنصب الرئيس المدير التنفيذي في الشركة الجديدة، لا بد من أن يكتسب مهارة جديدة. وعلى هذا، يمكن لمجلس الإدارة أن يشجِّع المؤسس على أن يلعب دوراً آخر في شركاتهم، يمكِّنهم من الاستمرار. فإذا لعب المؤسس هذا الدور، فقد يفلح في تطوير نفسه ليستعيد مكانته في السيطرة على الشركة. فمثلاً في سنة 1998م، حين عين مجلس إدارة شركة «إي إنك» (E Ink)، رئيساً مديراً تنفيذياً جديداً، تبين للمؤسس المشارك راس ولكوكس أنه يحتاج إلى تحسين بعض مهاراته. وأخذ من أجل ذلك، يتولى أعمالاً متنوعة في قسم المال، وفي التسويق، وحتى في الأبحاث والتطوير، ليملأ الثغرات التي شعر أنه يعانيها في مهارته المهنية. وحين أخذ مجلس الإدارة سنة 2004م، يبحث عن رئيس مدير تنفيذي جديد، لم يجد أفضل من ولكوكس نفسه مؤهلاً، فأعاده رئيساً مديراً تنفيذياً، في المنصب الذي ما زال يحتله إلى الآن.

الريـاضة في صورة حديثة

بين الصحة والصناعة والمختبر

على هامش الألعاب الأولمبية في بيجنغ، ظهرت في المجلات المتخصصة في الرياضة والطب وحتى الأبحاث الجينية سلسلة من الأبحاث تتضمَّن أخباراً واستنتاجات علمية وتثير قضايا بالغة الأهمية. وعلى الرغم من أن هذه الأخبار والقضايا المتفرقة لم ترقَ في استقطابها لاهتمام العالم إلى مستوى لمعان الميداليات على صدور الأبطال، فإنها تسهم مجتمعة في رسم صورة الرياضة وما باتت عليه في الألفية الجديدة.

فريق القافلة يجمع هنا آخر ما توصل إليه العلم في رسم الحدود ما بين الرياضة ذات الصورة المحببة والمفيدة من جهة، وبعض ما يجري خلف هذه الحدود من جهة أخرى.

1 الرياضة..
والفرق بين الجهد والإجهاد

المعلوم أن الرياضة جيدة، بل ان الأطباء يؤكدون، محقين، أن قلة الحركة تقتل. أثبتت تلك الحقيقةَ العلميةَ تجاربُ وأبحاثٌ لا شك في صحتها. فأنصار المقعد الوثير والحركة بالسيارة فقط، يؤثرون الراحة على الصحة، ويكشفون أنفسهم لكبار القتلة: أمراض السرطان والقلب والسكر. ومع ان التمرين والرياضة في ظاهرهما استنفاد للقوة واستهلاك للجسم. فما الذي يجعلهما مفيدين، ومتى ينقلبان على صاحبهما؟

لا وقت متأخر لممارسة الرياضة، وفوائدها هي نفسها عند ممارسيها طوعاً أو قسراً

اسأل أي مهندس، عن الوسيلة إلى إطالة عمر المحرك في سيارتك، يقل لك بلا تردد: استخدمه بحرص ورفق! لكن نصيحة معكوسة تصح للبشر. استخدم جسمك برفق ولا تتعبه، يذوِ ويضعف! فهل نناقض نحن البشر قواعد الطبيعة؟

حين نأكل، نكون كمحرك سيارة تتزود وقوداً. كذلك نفقد الحرارة من أجسامنا، مثل المحرك. وننتج طاقة مثله أيضاً. لكن الفارق الأساسي هو أن الجسم البشري يعيد بناء نفسه، وهو يستهلك هذه الطاقة، ويتخلص من بقاياه. وحتى ينجح الجسم في كل هذا يحتاج إلى الحركة والنشاط.

فتاريخ تطور الإنسان يشير إلى أن نظامه الغذائي وحركة حرق الطاقة فيه تشكَّلا في العصر الحجري القديم، المسمى الباليولتيكي (Paleolithic)، حين كان الإنسان يسعى طول يومه تقريباً، بحثاً عن طريدة يأكلها ويُطعم أولاده. ويرى علماء تاريخ الطب، أن معظم أمراض العصور الحديثة، إنما نجمت من فارق بين ظروف عيش الإنسان في العصور القديمة، التي طورت نظام الأيض (metabolism) في الجسم البشري، وهو النظام الذي يعين وتيرة حرق الوقود وضبط التركيب الكيميائي في الجسم، وبين أسلوب العيش الحديث الذي تبدل كثيراً، منذ أن توقف الإنسان عن السعي الجسدي الشاق للبحث عن الطعام.

يقول لورين كوردين، عالم الفيزيولوجيا في جامعة ولاية كولورادو: «ليس من صيغة ولا وصفة سحرية بسيطة. ولكن إذا كنت تبحث عن الصحة، فمقدار التمرين اللازم أكثر بكثير مما تتصور». ويروي كوردين أن زميله كيم هيل، مكث مدة في منطقة الأمازون في البرازيل، ليدرس نمط عيش قبيلة أتشيه، التي تعيش من الصيد وحده، وهي اليوم أقرب الأعراق البشرية سلوكاً من الإنسان الحجري القديم. وأن هيل لاحظ أن الرجل في هذه القبيلة يمضي في كثير من الأيام بين 8 ساعات و10، في ملاحقة لصيد الطرائد في الغابة. ويروي هيل عن خروج إلى الصيد سنة 1980م، شارك فيه. وكان في حال ممتازة، لكنه بلغ غاية طاقته في آخر الصيد. ولاحظ كوردين أن هذا ليس نظاماً يومياً بالطبع، إذ يليه بضعة أيام راحة، لكن اليوم الاعتيادي عند الصياد في الأمازون، لا يخلو من سير وجري من خمسة أميال إلى عشرة. وهي أميال في الغابة، لا على رصيف مدينة عصرية. ومع هذه المسافة، ثمة أعمال كثيرة أخرى مثل جَزر الطرائد والاحتطاب وتسلُّق الشجر، وحتى الرقص. ولا يشبه يوم الصياد الأمازوني سوى يوم الرياضي الذي يجهد بشدة قبيل المسابقات، بأقصى ما لديه من قوة.

ويؤكد كوردين أن كل قياس طبي يتحسن مع زيادة الحركة ويتقهقر كلما اقتربنا من نمط الاستلقاء في البيت والاعتماد الكامل على السيارة خارجه. ولم يتردد في القول، إن سجل الأبطال الرياضيين الطبي، من حيث قياس فحص الدم والبول وضغط الدم وكل الفحوص الأخرى، يشبه القوائم النظرية المثالية التي يضعها العلماء معياراً. فالرياضة المنتظمة تحسِّن وظيفة الشرايين وتنظِّم نسبة الدهون في الدم وتوازن الأيونات بين الخلايا وترفع الحساسية حيال الأنسولين وتنشط عمل القلب. ولا تخفض هذه الأمور احتمال المرض فقط، بل يبدو أنها تقلل خطر الإصابة باختلال ألزهايمر أيضاً.

كيف ومتى؟
لا وقت متأخر لمزاولة الرياضة

ومن الأسئلة الجديدة المطروحة على عالم الرياضة يتعلق بالتمييز بين فوائدها النفسية من ناحية والجسمانية من ناحية أخرى. فالمتعود على الرياضة اليومية، تصيبه أعراض القلق وقلة النوم والشهية، حين يتوقف لسبب ما عن التمرن. فهل للوضع النفسي أثر؟ لو وضعنا السؤال في صيغة أخرى، أشد وضوحاً، لقلنا: هل تتساوى الفائدة حين تكون الرياضة طوعاً لا غصباً؟

تؤكد الباحثة هنرييت فان براغ، أن الرياضة تعالج الاكتئاب النفسي، وتحسن الحال، حتى لدى المرضى الذين يتعاطون الدواء المعالج. وأفادت «الرياضة» طوعاً وقسراً، الفئران التي اختُبرت في الحالين. حتى أن أداءها الذهني كان



دفع الطاقات إلى حدودها القصوى..

أفضل بالرياضة. ولوحظت نتائج شبيهة عند الرياضيين الذين يؤدون نشاطهم طوعاً، والجنود الذين تُفرض عليهم الرياضة فرضاً. إذن فالفائدة ليست نفسية. وثبت قطعاً أن الحركة الرياضية تقلّل كثيراً ظواهر الشيخوخة كالخرف والزهايمر وغيرهما.

كل هذا مقبول، ولكن ما الذي يجعل الرياضة جيدة للجسم، فالسؤال الأول لم يجد بعد جوابه. ما الرابط بين الجري عشرة أميال، ومنع خلية متهالكة من التحول إلى ورم خبيث؟

لقد فسَّرت المختبرات هذا الأثر الإيجابي للرياضة، بظاهرة أشبه بمنطق اللقاح. فالحيوان الذي تحقنه بجرعة صغيرة من سم الديوكسين القاتل، يقوى على النجاة أكثر من مثيله الذي لم يحظ بهذه الجرعة، حين يتعرض كلاهما لجرعة كبيرة، فينجو الأول ويموت الثاني، في غالب الحالات.

إن النشاط الرياضي منتج للسموم في جسم الإنسان، لكن جرعة هذه السموم التي تنتج من الرياضة مخففة. وحين تركض تظهر في الدم جزيئات خطرة على الحمض النووي في خلايا جسمك. وتحدث هذه الجزيئات ضرراً حقيقياً في الخلايا وفي حمضها النووي، لكنها تحفز رد فعل في جهاز مناعة الجسم، بإنتاج إنزيمات ترمم الخلايا وهرمونات تعزز المناعة، وتبقي هذا الجهاز يقظاً لاستقبال أي سموم أخرى ومعالجتها بالمطلوب. فعلى المرء إذن أن يبقي جسمه مستنفراً جهاز مناعته، بالرياضة المستمرة.

وفي هذا الشأن بيَّنت الأبحاث أمرين أساسيين قد يغفل عنهما مزاول الرياضة، أو يفهمهما فهماً خاطئاً:

الأول - هو أن كثافة المزاولة الرياضية في سن الشباب، تزوِّد الجسم مناعة تكفيه لسن الشيخوخة، وهذا خطأ، لأن المناعة في حاجة إلى تحفيز مستمر، على الرغم من أن للمناعة عمراً لا ينتهي بانتهاء التمرن والتدرب الرياضي، وقد يمتد سنوات في مرحلة الخمول. ويلاحظ أن التوقف عن الرياضة، ربما يساوي بعد سنوات، بين من زاولها ومن لم يزاولها، من حيث «يقظة» جهاز المناعة.

الثاني - هو أن الرياضة دواء لمعالجة الأمراض، وهي في الواقع ليست دواء وقد تضر في بعض الحالات، حين

يكون المرء مريضاً. لكن الرياضة حاجز يكافح المرض قبل ظهوره، بالمناعة. والصحيح أو الدقيق هو القول بأن الامتناع عن الرياضة يزيد خطر التعرض للمرض. وليس من وقت متأخر، لمن يريد أن يبدأ مزاولة الرياضة. فالشيخوخة، إذا كان الجسم لا يزال سليماً، لا تحول دون المزاولة. والرياضة في سن متقدمة تفيد الجسم مثلما تفيده في الصبا والشباب.

ولكن كل ما تقدم يبقى صحيحاً إذا بقيت الرياضة في إطار الجهد المفيد ولم تتعداه إلى الإجهاد. فهل ينطبق هذا على الرياضيين الساعين إلى إحراز الميداليات في الألعاب الأولمبية؟ أو لنطرح السؤال في صيغة مختلفة: هل تنطبق هذه الصورة «البريئة» والمبسطة لفوائد الرياضة على ما هو عليه عالم الرياضة في مبارياتها العالمية اليوم؟

2 التكنولوجيا.. في خدمة العضلات

إن روح الألعاب الأولمبية ليست جديدة. فهي موروثة من أيام الإغريق، قبل نحو 2500 سنة. وأهم ملامح هذه الروح، أن غرض التنافس هو الصداقة، وأن الكسب ليس مهماً والخسارة ليست عاراً، وأن من شيم المتنافسين أن يتبادلوا الود والسلوك الحميد فيما بينهم.

كان هذا هو الحال، قبل أن تدخل الشركات وما تحمل من مال إلى ميادين الرياضة، في تنافس من نوع آخر. وإذا صرفنا النظر مؤقتاً عن تجارة المنشطات التي تحظرها بصراحة وإصرار قوانين الرياضة، ففي التنافس التجاري الذي يحتدم بين الشركات الصانعة لأدوات الرياضة، ما يقف عند حدود المحظور، وما قد يجتاز هذه الحدود خلسة. فقد اقتحمت التكنولوجيا المتطورة معظم أنواع الرياضة الأولمبية، لتحسين الأداء في المنافسة بين الفرق والأبطال والشركات والدول. وقد شوهدت بعض المنافسات الرياضية تجري فيما يشبه فقاعات الصابون، لكن في هذه الأمور تدخلاً تكنولوجياً لا يؤثر في الأداء الرياضي. التدخل التكنولوجي الحقيقي في الرياضة، بات يطال عدداً من المسابقات في المضمار وفي المسابح وفي أدوات الأداء الرياضي نفسه.

المصانع والمختبرات تستنفر الطاقات والعقول لتحقيق فوارق في نتائج المباريات على مستوى أجزاء الثانية

وقد جهدت اللجنة الأولمبية الدولية في إبقاء التنافس قائماً بين رياضيين، لا بين شركات صناعة وتكنولوجيا، على الرغم من أن هذا لم يكن سهلاً تماماً، ولا كان سهلاً على الدوام. ففي مقابل اللجنة الأولمبية، جهدت الفرق الرياضية، واجتهد المدربون، في محاولة الاستفادة أقصى استفادة، من أحدث مآثر التكنولوجيا. فالفرق الأمريكية الرياضية استطاعت في دورة ألعاب بيجنغ الأخيرة، أن تستخدم برنامج «دارت فيش» الحاسوبي، لتدريب الرياضيين، وهو برنامج يسجل أداء الرياضي، في أدق تفصيل، ويمكِّن المدرب والمؤدي من متابعة هذا الأداء على الفور، لدراسة مواطن الضعف والقوة، وتصحيح الوضع فوراً على المكان. أما شركة «جونسون وجونسون» فعملت على تحسين بصر اللاعبين الذين يعتمدون كثيراً على حاسة النظر في أدائهم، مثل لاعبي كرة الطاولة.

وكان ثمة حرص فوق العادة على أسرار التدريب، لدى بعض الفرق، مثل فريق الدراجات الأمريكي، إذ امتنع المدير جيم ميلر عن أي شرح للأسلوب والوسائل التي اعتمدها. ويتبين إذن أن التكنولوجيا لم تكتف بتحسين تقنية تصوير نهاية السباق أو تسهيل البث التلفزيوني، مثلما قد يظن البعض. بل إن تحسين الأداء الرياضي تحسيناً غير رياضي، بالاعتماد على وسائل غير قانونية مثل المنشطات، أو على وسائل قانونية، أهمها التكنولوجيا.

وفيما يلي بعض أنواع الرياضة الذي بات التدخل التكنولوجي شبه حاسم في نتائجها.

كرة الطاولة

تركز تطوير اللعبة خلال السنوات العشر الماضية، في البحث عن زيادة سرعة كرة الشمع على الطاولة وتسريع دورانها حول نفسها. ويقول تيودور غيورغ، المدير الفني في الفريق الأمريكي، إن كل كبار اللاعبين في العالم يستخدمون اليوم مضرباً مطوراً، ولم يعد في استطاعة أحد أن ينفرد في هذا الشأن. أما وجه التطوير فهو كسوة وجه المضرب بمطاط صناعي يتيح تماساً أوسع مع الكرة حين تلمسه، لتشتد الضربة. وفي الوقت نفسه، يتيح هذا النوع من المطاط التصاقاً أكبر مع الكرة، ويسمح للاعب بأن يزيد سرعة دورانها حول نفسها، وهو أسلوب يجعلها تبدِّل اتجاهها حين تلامس الطاولة في جانب الخصم، فتفاجئه. وتقضي القواعد أن يكون 85% من خشب المضرب طبيعياً. وفي النسبة الباقية، أي 15%، نجد اليوم طبقة

مـن التيتانيوم والكربـون، فألياف الكربـون تزيد السرعة، والتيتانيـوم يتقوس ليطلق الكرة مثل قوس النشاب. وثمة مـادة جديدة تدعى تكساليوم، مفيدة فـي اللعب الدفاعي، لأنهـا تمتص قليـلاً مـن اندفاعـة الكـرة الآتية.

ما من نوع من أنواع الرياضة ومستلزماتها، إلا ويخضع للتحسين اعتماداً على آخر التقنيات بدءاً بالكيمياء وصولاً إلى النانو

السباحة

ثوب السباحة المطـور ويسمى LZR، لا يُحدث موجـاً فـي الحوض فقـط، بل يُحـدث أمواجاً فـي محافـل المراقبيـن الرياضييـن أيضـاً. فالثـوب المطوَّر مصنوع من طبقات رقيقة من مادة بولي يوريتين، تخفـف الاحتكاك بالماء، وطبقاتهـا تُحدث تموجاً. لقد حطم السباحون الذين ارتـدوا هذا الثوب في السباق، 37 رقماً قياسياً، ولذا يقول منتقدوه إنه مساعدة تكنولوجية غير منصفة. أمـا مؤيدوه من المدربيـن فيقولون إن هـذه الأرقام ليست من صنع اللباس وحده، بل دعمته أساليب تدريب جديدة.

الدراجات

كان التركيز هذه السنـة على الدواليب، لا الدراجة نفسها. حتـى أن الأمريكييـن وظَّفوا المهندس الـذي كان يعمل في مجـال الفضاء، بول لو، من أجل صنع دواليب أخف وأقوى. وقد صنع لو فعلاً دواليب أدق وأرق، فصارت مقاومة الهواء أقل، والانسياب في شق الطريق أفضل.

واستُخدمـت فـي صنـع هـذه الدواليـب مـادة مركبـة من البورون، صُنِّعت في مركبـات الفضاء. ويقول لو إن دواليب البـورون أقـوى ثلاث مـرات من دواليـب أليـاف الكربون، والسعـر المتوقع لدولابين مـن هذا الصنف، بعـد الألعاب الأولمبية، سيبلغ 15 ألف دولار أمريكي.

القوس

يقول المهندس غيورغ تكمتشوف، الذي يعمل في صنع الأقواس فـي مدينة سولت ليـك الأمريكية، إن الغرض الأساسي في صناعـة الأقواس هو أن يكون أداء القوس في كل مرة ثابتاً، فـلا يتبدل. فالمتباري الذي يتدرب في مناخ موطنه الجاف، يجب ألا يضطرب أداؤه في مناخ بيجنغ الرطب. ولذا صُنعت أفضـل الأقواس من الزبد الصناعي لأنه لا يتأثر لا بالحرارة ولا الرطوبـة. وقـد بدَّلت الشركة التي يعمـل فيها تكمتشوف طـلاء القوس، فاستخدمت بـدل أليـاف الزجـاج، بوليميراً صناعياً كثيف الكربـون، وهو أخف بكثير. كذلك استخدمت فـرق أخـرى عدسات تصوير تلتقط حتـى 1200 صورة في الثانيـة، وهي تتيـح للمدرب، الـذي يستطيـع مراقبة حركة النشـاب الدقيقـة، لأن لديـه صـورة مسافـة كل إنشين، أن يدرس الأخطاء المحتملة التي ارتكبها الرياضي في أدائه.

كرة المَضرب

تَـزوَّد اللاعبـون هـذه السنة مضـاربَ مصنوعـة من مواد لا تنقـل إلـى يـد اللاعب سـوى ذبذبـات من تـردد معين، واستُخدمـت كذلـك أليـاف تيتانيـوم، بتكنولوجيـا النانـو اللامتناهية الصغر، تزيد القوة لا الوزن.

هنـا أيضـاً دخل الفضاء ميـدان الرياضـة، إذ استُفيد من مـادة آيروجيل الصلبة والخفيفة خفة مدهشة، وقد صُنعت منها شبـكات لصيد الغبار الفضائـي. وأما في المضارب، فهي توزِّع صدمـة الكرة بالتساوي علـى مساحة المضرب. وقد أدى هذا إلى تحسين الدقة وزيادة الثقة، وإذن القوة.

الجري

أحدثـت أحذيـة الرياضـة هـذه السنـة الضجيـج الأقوى. فالأليـاف الخفيفة التـي استُخدمت في صنـع بعضها، هي ألياف فكتران، التي صُنعت منها أكياس صد الصدمات في مركبـات الفضاء التي هبطت على المريـخ. وتركز اهتمام الصانعيـن على ضـرورة أن يحس المتبـاري، كأنه يركض حافي القدمين. ولا يفيد هذا الإحساس بكون الحذاء أخف فقـط، بل في أن المتباري، حين يظـن أنه حافي القدمين، يميـل إلى عدم رفـع رجله مثلما يرفعها عـادة حين يركض بالحذاء. وهذا الفرق الضئيل، لا يعود ضئيلاً في المسابقات التـي يمتاز فيها المتسابق على الآخر إلا بجزء في المئة من الثانية. وقد تحطمت عدة أرقام بعد اعتماد هذه الأحذية.

الكرة الطائرة

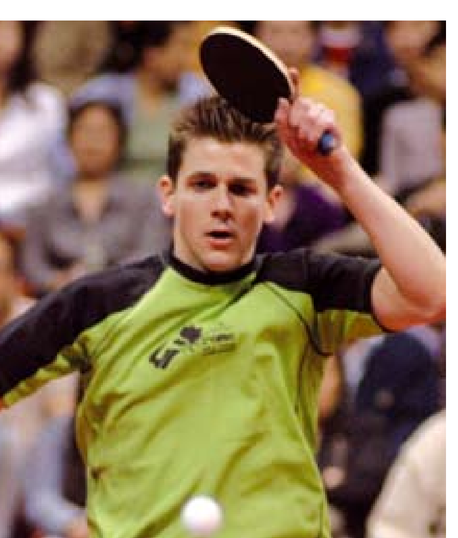
الميكاسا، نوع جديد من الكـرة، كان على الفرق المشاركة أن تتكيـف بها في بيجنغ. فقد صُنـع من هذه الكرة نوعان، واحـد للملاعب المغطـاة، وآخـر للشاطئ. والنـوع الثاني لا يلتقـط رطوبـة البحر، فيبقى خفيفاً. وهـو أيضاً مصنوع من خيـوط أدق، من أجـل تضييق مساحـة الخياطة، ومنع الرمل من أن يعلق به.

أمـا كـرة الملاعـب المغطـاة، فمختلفـة جـداً عـن سلفها. فالشعيرات الميكروسكوبية التـي زيدت عليها تخفف مقاومة الهـواء وتتيـح لها انسيابـاً أفضل. كمـا أن قماشـة الكرة من الخـارج، تؤمن التصاقـاً أشد بيد اللاعب حيـن يلمسها. ولا يحسِّـن هذا سيطرة اللاعب فقط، بـل يزيد قدرته أيضاً على جعل الكرة تدور على نفسها. وهذا مفيد في اللعبة، لأنه يضعف قدرة الخصم على التحكم بالكرة واتجاهها، لدى استقبالها.

هـذا غيـض من فيـض. إذ ما من نـوع من أنـواع الرياضة ومستلزماتهـا إلا وبـات يحظى بـ «التحسيـن» اعتماداً على آخـر ما توصلت إليه التكنولوجيـا والأبحاث في المختبرات بدءاً بالكيمياء وصولاً إلى تقنية النانو.











ملابس السباحة، الكرة، القوس، المضرب.. ميادين تطبيق لآخر ما توصلت إليه المختبرات



عجلات الدرّاجات الجديدة.. كل اثنين بـ 15 ألف دولار!

ومع ذلك لم يكتف البعض بهذا الدعم التكنولوجي. «فالإنجاز» الرياضي المتمثل بالوقوف على منصة التتويج في الألعاب الأولمبية وغيرها من المباريات، يبدو ذا جاذبية، تشطح بعيداً جداً عن النظرة الأساس إلى الرياضة وفوائدها، لتصل إلى نقيضها تماماً: الاستهتار الخطير بصحة الرياضي وحتى بحياته.

3 من سموم المنشطات.. إلى العلاجات الجينية

ظهرت المنشطات الطبية، في البدء في نحو سنة 1930م. وكان غرضها طبياً حقاً، لمساعدة الرجال الذين كانت العضلات في أجسامهم تذوي، لنقص هرمون تستوستيرون. وهي تُصنَّف في فئة الستروييد الكيميائية. وتستطيع هذه المنشطات أن تزيد الحيوية وتنشِّط فعلاً الجسم والعضلات، فيشعر المرء بهذه الحيوية ويبدو عليه الشباب.

وقد اكتشف الرياضيون فائدتها في تحسين أدائهم الرياضي، قبل أن يكتشف العلم أضرارها الفادحة في المدى البعيد. وأخذ الأبطال يُقبلون عليها، لا سيما في رياضة سباق الدراجات. ومات عدد من أبطال هذه اللعبة، وهم في سن الشباب، من جرَّاء ما قيل إنه المنشطات.

وفي سنة 1970م، حظرت اللجنة الأولمبية الدولية استخدامها في الرياضة، فانكفأ الكيميائيون المصممون على مخالفة القوانين والاحتيال، إلى صنع منشطات لا تكتشفها أساليب الاختبار التي اعتُمدت في المسابقات الرياضية، وبدأ سباق بين تحسين وسائل الاختبار، وتحسين وسائل الاختباء.

وفي كل موسم رياضي، وفي كل دورة أولمبية، صار الصحافيون يتسقطون الأخبار بانتظار فضيحة منشطات جديدة.

وتطول لائحة المنشطات المحظورة أولمبياً (والرائجة سراً)، ومن أشهر أنواعها وأكثرها رواجاً هرمون النماء البشري الذي يضخِّم العضلات ويقلِّل الدهون، غير أنه يُحدث نمواً غير طبيعي للعظام ولعضلات القلب، والكرياتين الذي يحفز النشاط لفترة قصيرة فقط ويسبب الإسهال والشد العضلي، وبيتا أغونتس الذي يضخم العضلات ويقلل الدهون ويسبب الدوار والقيء، والبرفليور كوبونات الذي يزيد دفق الدم إلى العضلات، ويسبب أمراض الإنفلونزا.. وغير ذلك الكثير مثل اللحمين، والبيتا والستيروييد الابتنائي (أنابوليك).




حبوب المنشطات الصغيرة لرفع الأوزان الثقيلة، أما الكلفة فمسألة أخرى!

وتحظر المحافل الرياضية استخدام المنشطات لأنها تخل بمبدأ عدالة المنافسة الرياضية ونزاهتها. لكن ثمة أسباباً أهم في الحياة العامة، تحض على اجتناب المنشطات، وهي أن ضررها ثابت، لم يعد ثمة شك فيه. غير أن مجلة الجمعية الدولية للتغذية الرياضية تؤكد أن 3 ملايين أمريكي يتناولون المنشطات، من دونما غرض منافسة رياضية. إذ ان غرضهم تحسين منظرهم وتضخيم عضلاتهم والظهور مظهر النشاط والشباب، واجتذاب الجنس الآخر. وثمة من يعتقد أن هذا الرقم لا يعبِّر عن ضخامة المشكلة. فظاهرة سلفستر ستالوني، الذي اعترف علناً بأنه اعتمد على الستيروييدات في بناء عضلاته لفلم «رامبو»، أصبحت منتشرة بين الشبان في الولايات المتحدة، لا سيما عبر الشبكة الدولية «الإنترنت»، التي لا تروِّج فقط للشاب المنفوخ العضلات، بل تيسر شراء هذه المنشطات بالتجارة الإلكترونية.

لماذا يُقدم بعض الرياضيين على تناول أدوية ومنشطات حتى مع علمهم بأنها ستقتلهم؟

ولكن أسوأ فصول العبث بالقدرات الطبيعية للجسم البشري في عالم الرياضة، ظهر في الآونة الأخيرة تحت اسم «العلاج الجيني». والمحذر اليوم من مخاطره أحد الرواد في اكتشافه: الدكتور هـ. لي. سويني.

تعود أسس هذا العلاج إلى العام 1988م، عندما تم تحديد الجين المسؤول عن تنمية العضلات، وبسرعة ظهر نمط من العلاج يقضي بتحميل أحد الفيروسات هذا الجين المحدد وحقنه في دم حيوان. وبوصول الجين والفيروس إلى الكبد من خلال الدورة الدموية، يأمر الفيروس الكبد بإنتاج هذا الجين بالجملة، ليعود ويوزعه على عضلات الجسم عن طريق الدورة الدموية أيضاً. فتبدأ العضلات بالنمو.

ويروي الدكتور سويني أنه تلقى ذات مرة طلباً من أحد مدربي فرق كرة القدم، يسأله ما إذا كان ينتج مصلاً يكفي لفريقه بأسره. وهذا ما يحذِّر منه سويني مشيراً إلى أن تجربة هذا العلاج أدت إلى وفاة شخص، وفي تجربة أخرى أصيب أربعة أشخاص من أصل عشرة بسرطان الدم.

ولكن استطلاعات الرأي تؤكد أن الرياضيين الأمريكيين (وربما الكثيرين غيرهم) هم مستعدون لتعاطي «أي دواء» يساعدهم على الفوز حتى ولو علموا أن «هذا الدواء قد يقتلهم».

وأسوأ ما في الأمر، أنه بخلاف المنشطات الكيمائية فإن العلاج الجيني لا يزال من دون آلية تسمح بالكشف عنه أو عن تعاطيه. وهذا ما جعل تيودور فريدمان المسؤول عن تطوير العلاج الجيني في جامعة كاليفورنيا يقول: «من بين العشرة آلاف رياضي الذين شاركو في دورة بيجنغ الأولمبية، من المحتمل أن يكون هناك أكثر من رياضي واحد قد جرَّب العلاج الجيني، وهذا لا يفاجئني».

ويضيف: «في الوقت الحاضر، إن العلاج الجيني ليس فقط غير قانوني، بل أيضاً غير آمن، وعلى الأرجح من دون جدوى. وإذا تم تطبيقه الآن، فما من شك أن تطبيقه سيكون سيئاً».

زاد العلوم

1 الاحتباس الحراري.. درهم فوائد مقابل قنطار المصائب

لم يعد ثمة شك في أن الاحتباس الحراري سيحمل مخاطر كبيرة على النبات والحيوان إضافة إلى البشر. غير أن العلماء لاحظوا أن للاحتباس الحراري بعض النتائج التي قد تكون قابلة للتصنيف ضمن خانة «الفوائد»، وإن كانت هذه الفوائد محدودة جداً مقارنة مع المخاطر، ومؤقتة مقارنة مع الخسائر المرتقبة على المدى الطويل، كما هو الحال في بعض البلدان الباردة التي ستستفيد موقتاً من الاحتباس الحراري.

ففي أيسلندة، التي اتخذت اسمها من اسم الثلج بالإنجليزية «آيس»، ستذوب المجالد (أكوام الجليد المزمنة في الجبال)، وتوفر دفق مياه يزيد القدرة على إنتاج الطاقة الكهربائية. ويقول العالم الجغرافي توماس جوهانسون، إن زيادة دفق مياه الأنهار 25% عند نهاية القرن، ستزيد إنتاج الطاقة 45%. لكن جوهانسون نبَّه إلى أن هذا موقت، لأن مخزون المجالد سينفد فيما بين 100 سنة و200 سنة.

في هذه الأثناء، تبيَّن بعد دراسة سلوك عصفور البساتين الذي يشبه الدوري، أنه يتكيف بالاحترار، على النحو الذي يبعث أملاً في أن تكون الفصائل الحية الأخرى قادرة أيضاً على هذا التكيف. فقد اكتشف علماء الحيوان في جامعة أكسفورد، أن هذا العصفور صار يبكِّر في وضع البيض في الربيع، ليتفق موعد التفقيس مع تكاثر الديدان، الذي صار مبكراً أيضاً، بسبب الاحترار في الأرض. ويقدِّر العلماء أن الفصائل القادرة على التكيف أكثر بكثير مما نعلم حتى الآن.

أما الأعاصير، فهي أيضاً تخضع لإعادة نظر في قصة الاحتباس الحراري، وإن كانت الأخبار الطيبة لا تكمل الفرحة تماماً. فعلماء إدارة المحيطات والمناخ الأمريكية، يعتقدون الآن أن عدد الأعاصير في المحيط الأطلسي، الذي ازداد كثيراً في السنوات الأخيرة، سيتقلص في العقود المقبلة. أما الخبر السيئ فهو أن هذه الأعاصير ستزداد عنفاً، بسبب الاحتباس الحراري.

2 هل تُضعف المشروبات الغازية العظام؟

نعم، المشروبات الغازية، إذا أكثرت من شربها، تضعف العظام. أما الطريقة الكيميائية التي تعمل بها هذه المشروبات فهي كالآتي: يدخل ثاني أكسيد الكربون الموجود في المشروب الجسم، ويلامس الماء في الدم. وبذلك يكثر حمض الكربون. وقد يؤدي هذا التكاثر إلى اعتراض الكالسيوم الآتي من الطعام، والمتجه نحو العظام، أو يؤدي إلى تخفيف هذا الكالسيوم من داخل العظام نفسها.

ويقول روبرت هيني، عالم الهرمون في جامعة كرايتون، إن الإكثار من المشروبات الغازية يمكن أن يسبب أيضاً التقيؤ ووجع الرأس وتعطيل عمل بعض أعضاء الجسم. ويرى هيني أن ثمة مواد أخرى في المشروبات الغازية يمكنها أن تخفِّض الكالسيوم من الجسم. ويؤكد أن الكافيين يدفع الكليتين إلى سحب الصوديوم من الدم، باستخدام بروتينات، تجرف جزيئات الكالسيوم أيضاً. ويستمر أثر هذه المشروبات 24 ساعة.

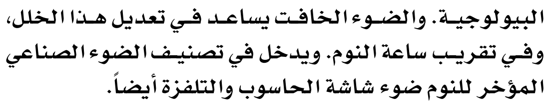
وأشارت أبحاث كذلك إلى أن حامض الفوسفور في المشروبات الغازية ضار بالعظام. فحين تزيد نسبة الحامض على الكالسيوم، ينتهي الأمر بتقليل الكالسيوم في جسم الإنسان.

وينصح هيني من يحب شرب هذه المشروبات الغازية بألاَّ يكثر من شربها، وأن يتناول كوب حليب لتعويض ما يخسره من كالسيوم.

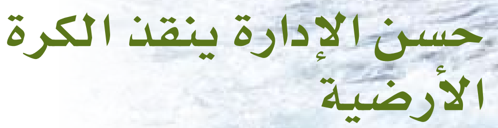
3 ما الذي يجعل القيام من النوم مزعجاً؟

ليس الكسل، مثلما قد نظن جميعاً. ليس الكسل دوماً على الأقل. فالراجح عند العلماء الآن أن ساعة الجسم البيولوجية، ليست على الدوام مضبوطة لتتفق مع ساعات الليل والنهار. ففي الدماغ البشري خلية تسمى: فوق التصالبية، تسيطر على وتيرة نشاط الجسم. وهي الساعة البيولوجية التي تضبط تواتر النوم والقيام. وتقول جين ماتيسون خبيرة اضطراب النوم الأمريكي، إن مواعيد المدرسة وبداية دوام العمل في الشركات ثابتة لا تتغير، أما مواعيد الساعة البيولوجية، فهي تختلف من شخص لآخر. والذين يستصعبون القيام في الصباح، قد تكون ساعتهم البيولوجية مضبوطة على مواقيت متأخرة عن ساعة الشمس وغيابها.

ويمكن لمن يعاني هذه المشكلة أن يصلح ساعته البيولوجية، لكن عليه أن يدفع الثمن. تقول ماتيسون: «عندما يتأخر الناس في النوم في عطل الأسبوع فإنما يسايرون ساعتهم البيولوجية، يذهبون إلى النوم في الموعد الذي تقرره لهم هذه الساعة. وهذا يجعل استفاقتهم من النوم في أول أيام الأسبوع أصعب. ولمعالجة تلك المشكلة، يمكن ضبط مواعيد الاستفاقة والنوم، 15 دقيقة باكراً في كل مرة، لكن على شرط ألا نُسكت المنبه بتأفف، وأن نستجيب لصوته من دون تردد. ذلك هو ثمن العلاج. ولا بد من أن نلاحظ كذلك أن تعريض العينين في المساء والليل للإنارة الصناعية يؤخِّر موعد النوم في الساعة البيولوجية. والضوء الخافت يساعد في تعديل هذا الخلل، وفي تقريب ساعة النوم. ويدخل في تصنيف الضوء الصناعي المؤخر للنوم ضوء شاشة الحاسوب والتلفزة أيضاً.



وإذا لم تكن هذه الأمور مسعفة في معالجة وضعك، فثمة أخبار طيبة: ففي جامعة كاليفورنيا في مدينة إرفنق، اكتشف العلماء حمضاً أمينياً يضبط الساعة البيولوجية. وهم يعكفون الآن على صنع دواء من هذا الحمض، لهذا الغرض.



4 حسن الإدارة ينقذ الكرة الأرضية



خصصت مجلة «علم وحياة» (Science & Vie) الفرنسية، عدداً خاصاً في يونيو 2008م، عنوانه: بناء عالم قابل للبقاء. وأما موضوعه فتناول استنزاف البشر موارد الكرة الأرضية، بالوتيرة القائمة الآن. وفصَّل العدد المخاطر الحاضرة، من تعاظم الكوارث والانفجار السكاني المتفاقم وتراكم النفايات والاعتداء المنهجي على البيئة وغلاء الطعام وقضم الأسمنت المساحة الخضراء. ولكن المجلة قالت إن في الأرض موارد كافية، تحتاج إلى حسن إدارة يناقض سوء الإدارة والتبذير الذي يسم سلوك البشر مع أمهم الأرض اليوم.

ففي موضوع الموارد المائية، وهي حيوية جداً لبقاء الحياة، لاحظت المجلة أن على الكرة الأرضية 1,4 مليار كلم مكعب من المياه، منها 1,365 مليار كلم مكعب مالحة، ونحو 40 مليون كلم مكعب مياهاً عذبة، ليست الأنهار والبحيرات سوى 0,3% منها. أما الباقي فثمة 12 مليوناً في المستنقعات، و13 مليوناً في الغيم ورطوبة الهواء، و17 مليوناً في الأرض الرطبة.

وفي المياه الجوفية تتفوق آسيا بمخزون يبلغ 7.8 مليون كلم مكعب، تليها إفريقيا ولها 5.5 مليون، فأمريكا الشمالية ولها 4.3 مليون، ثم الجنوبية ولها 3 ملايين، فأوروبا ولها 1.6 مليون، وأخيراً أستراليا ولها 1.2 مليون.

المسألة إذن ليست شحاً، بل سوء إدارة.

قصة ابتكار

فرشاة الأسنان



ذات صباح، قرَّر وليام آديس أن الطريقة التي يستخدمها لتنظيف أسنانه، لم تعد مريحة ولا مجدية. كان آديس تاجراً إنجليزياً، وكانت الطريقة التي يستخدمها الناس في ذلك الوقت من القرن الثامن عشر لتنظيف أسنانهم، هي حكها بواسطة قطعة من القماش بعد غمسها في الملح. فكر آديس في ابتكار أداة مخصصة لهذه المهمة، تقوم بتنظيف الأسنان بسهولة وكفاءة أكثر من هذه الطريقة التقليدية. وبعد أيام من التفكير والعمل، ظهرت الفكرة الجديدة إلى النور. كانت فرشاة صغيرة، مصنوعة من قطعة من العظم، وقد ثبتت عليها مجموعات متلاصقة من الشعيرات القصيرة، التي أخذها آديس من ذيل حصانه.

بعد أن رأى الفائدة من استخدام فرشاته، قرَّر آديس أن يجرِّب الفائدة الأبعد التي يمكن أن يحصل عليها إذا قام بإنتاجها وبيعها على نطاق واسع. وفي عام 1780م أسَّس شركته الخاصة لإنتاج وتسويق ابتكاره. فلاقت الفرشاة نجاحاً كبيراً، وانتشر استخدامها في بريطانيا كلها، حتى أصبح عدم امتلاكها واستخدامها شيئاً غير مقبول اجتماعياً. وخلال السنوات التالية، انتقلت فرشاة الأسنان إلى بلاد أخرى غير وطنها الأم. فانتشر استخدامها، وكذلك إنتاجها، في فرنسا وألمانيا واليابان ثم الولايات المتحدة الأمريكية.

ظلت فرشاة الأسنان لسنوات عديدة على الصورة نفسها التي ابتكرها بها وليام آديس للمرة الأولى. لكنها تطورت مع التقدم الصناعي الذي تسارعت عجلاته في القرن العشرين. فقد حلَّ البلاستيك محل العظام في صناعتها. ثم ظهرت عام 1938م أول فرشاة أسنان تُصنَع شعيراتها من مادة النيلون. تلك المادة التي أنتجت عام 1935م في معامل شركة دوبون، لتقدم للعالم لأول مرة مصطلح «الألياف الصناعية».

قُدِّر عدد براءات الاختراع الخاصة بفرشاة الأسنان، والتي ظهرت على مستوى العالم في الفترة ما بين العام 1963 إلى العام 1998م بنحو ثلاثة آلاف براءة اختراع. وحتى الآن ما زال مصنِّعوها يتنافسون لإنتاج تصميمات مطورة تنال رضا مستهلكيها، وتحقِّق أكبر قدر ممكن من الأرباح في هذا السوق العملاق.

فمنذ أن صممها وليام آديس في صورتها الأولى، احتلت فرشاة الأسنان مكانة مهمة في حياة البشر اليومية، حتى وإن كنا بحكم اعتيادنا عليها لا نتوقف كثيراً أمامها. إلا أن استطلاعاً للرأي قامت به منظمة «ليملسون» الأمريكية المعنية برعاية الابتكار، قد أكد اعتراف الملايين من مستخدميها بأهميتها. حيث احتلت فرشاة الأسنان المركز الأول في قائمة الابتكارات التي لا يستطيع الإنسان الحياة من دونها، متقدمة على مجموعة أخرى من الابتكارات التي نستخدمها في حياتنا اليومية كان من ضمنها السيارة، وفرن الميكروويف، وحتى الكمبيوتر، والهاتف المحمول.

قصة مبتكر

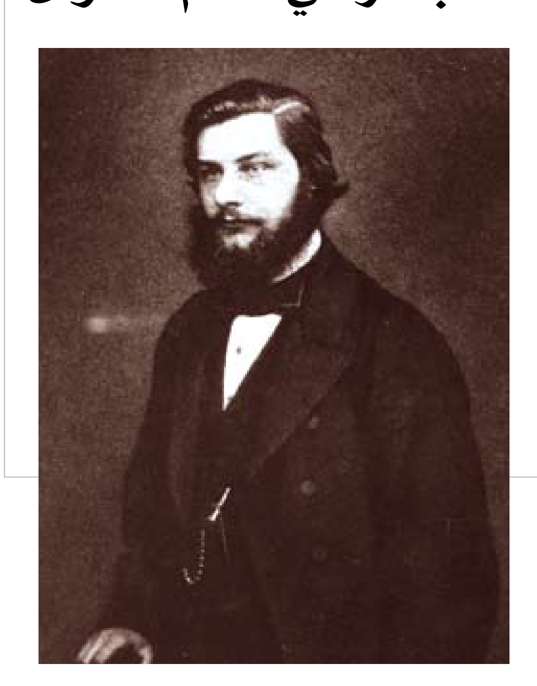
وليم بيركن
المبتكر في عالم الألوان

عُرف عن وليم بيركن نبوغه الدراسي الذي جعله يلتحق بالكلية الملكية لعلوم الكيمياء في لندن وهو في الخامسة عشرة من عمره، ويعرف عنه أيضاً أنه مبتكر طريقة تحضير اللون الأرجواني كيميائياً. ولكن عبقريته لم تقتصر على ذلك، بل تمثلت أيضاً في قدرته الكبيرة على استشراف المستقبل، والتقاطه الفرصة السانحة، وقدرته على تطويع العلم الصرف لخدمة الحياة اليومية.

ولد وليم هنري بيركن في لندن عام 1838م، والتحق بمدرسة مدينة لندن حيث انتبه معلمه توماس هول إلى ميوله العلمية مبكراً، وأوصاه بدراسة الكيمياء.

وبالفعل، التحق وليم بالكلية الملكية لعلوم الكيمياء، حيث درس على يد الكيميائي المعروف أوجست فون هوفمان، الذي سرعان ما عين تلميذه النجيب مساعداً له.

كان هوفمان يسعى آنذاك إلى تصنيع الكينين كيميائياً، وهو الدواء اللازم لمحاربة الملاريا. فأوكل إلى وليام إجراء سلسلة من التجارب في هذا الإطار. وذات يوم من العام 1856م، اكتشف أن الصبغ الأزرق الداكن المستخرج من قطران الفحم، يتحول إلى الأرجواني إذا ما استخلص بواسطة الكحول. ولأن هذا الاكتشاف يخرج عن المهمات التي حددها له أستاذه، راح وليم بمساعدة أخيه وصديق له يطورون اكتشافه في معمل صغير أنشأه سراً في أحد الأكواخ.



أطلق بيركن على اللون الجديد اسم «موفين»، وحلم بإمكانية استخدامه في صباغة الملابس. ففي عصره، كانت كل الأقمشة تصبغ بالألوان المستخرجة من مواد طبيعية. والألوان الزاهية كانت قليلة جداً نظراً لارتفاع تكلفتها. أما اللون الأرجواني الذي كان يستخرج من أصداف الموريكس فقد كان باهظ الثمن، وكان ارتداء الملابس الأرجوانية لا يزال كما كان قبل ألفي سنة، علامة الغنى والأرستقراطية.

حصل بيركن على المال من والده لإنتاج اللون الجديد صناعياً، وأقنع مصممي الأقمشة أن الفتيات من كل الطبقات سيقبلن على ارتداء الملابس الأرجوانية أسوة بالإمبراطورة الفرنسية أوجيني والملكة فيكتوريا. وبذلك نجح في ترويج ابتكاره نجاحاً باهراً.

ولاحقاً عمل بيركن على تصنيع الصباغ البنفسجي ثم الأخضر، كما نجح في تحضير بعض العطور كيميائياً، ويروى أن سكان لندن كانوا يتطلعون إلى قناة الماء الجارية بالقرب من معلمه، ليعلموا أي لون يطوره بيركن.

حظي بيركن بلقب فارس، ونال ميداليات عديدة، إضافة إلى الثروة التي جمعها من اللون الأرجواني. وعندما توفي عام 1907م، كانت ملابس العالم بأسره تبتعد شيئاً فشيئاً عن الألوان القاتمة التي كانت تميزها منذ قرون، لتصبح زاهية وملونة أكثر فأكثر.

اطلب العلم

منذ أن ظهر التلفزيون، احتل النشاط الرياضي مكانه على الشاشة الصغيرة إلى جانب البرامج الأساسية التي تشكِّل العمود الفقري الذي يقوم عليه التلفزيون، وهي الأخبار على أنواعها والأفلام وبرامج التسلية. وتعزَّزت مكانة الرياضة المتلفزة بظهور تقنيات النقل المباشر، وبتطور حجم الشاشات وزيادة وضوحها.

الملعب في مواجهة التلفزيون

خالد شاهين بو حمد*

في حالات كثيرة، لا مجال للمنافسة ما بين جاذبية متابعة النشاط الرياضي في الملاعب والاكتفاء بمشاهدته على التلفزيون، كما هو حال الألعاب الأولمبية. إذ لا يُعقل أن نطلب من «عش العصفور» الذي بناه الصينيون أن يتسع لأربعة مليارات متابع للدورة الأولمبية. ولكن المنافسة تصبح صراعاً شديد الشراسة عندما يتعلَّق الأمر بأوجه النشاط الرياضية الوطنية والمحلية، التي يلعب الجمهور الحاضر على المدرجات دوراً رئيساً في ازدهارها أو انحطاطها واندثارها.

عودتنا الألعاب الأولمبية أن نتوقع من الملعب الرئيس المقام لها في كل دورة أن يكون الأضخم والأكثر إثارة للدهشة. ومن المرجَّح أن هذا الاتجاه سيستمر للدورات المقبلة. ولكن الملاعب الأصغر شأناً التي تتأثر سلباً وإيجاباً بقدرتها على استقطاب الجماهير، تلجأ اليوم إلى التكنولوجيا لتزيد من جاذبيتها في مواجهة جاذبية الشاشات التلفزيونية بالغة الوضوح.

وعلى هامش الضجيج الذي صاحب الألعاب الأولمبية، كشفت مصادر إعلامية وعلمية عمَّا ستكون عليه ملاعب المستقبل القريب جداً.

فمن الابتكارات الجديدة التي ستدخل على بعض الملاعب الأمريكية قريباً جداً، تزويد كل مقعد بشاشة إلكترونية صغيرة، يحظى خلالها كل فرد من الجمهور على فيض من المعلومات تبدأ بأخبار اللاعبين وتنتهي بإبلاغه عن أصغر طابور أمام أي مرحاض، كما ترشده إلى أفضل المخارج بالسيارة من المرآب.

ومن الابتكارات الجديدة التي يتوقع أن تشد آلاف المتفرجين الإضافيين إلى الملاعب الإنجليزية بشكل خاص، صحن معدني يشبه اللاقط التلفزيوني، ولكن مهمته جمع هتاف الجماهير وعكسه مضخماً على أرض الملعب لزيادة حماس هذا الفريق أوبث الرعب في نفوس الفريق الآخر.

أما التطور الهندسي والتقني الأكبر، فسيكون في الأسقف المتحركة. التي ستسمح بإغلاق الملعب تماماً أو بفتحه تماماً كما لو كان لا سقف له، حسب حالة الطقس.

فما الذي ستقوم به شاشات التلفزيون لإقناعنا بالبقاء في منازلنا ومتابعة المباريات من مقاعدنا الوثيرة؟

التصور موجود، وكل تقنياته متوافرة. المهم أن تُجمع في جهاز واحد رخيص الثمن: شاشة عملاقة شديدة الوضوح، وقدرة المشاهد على تقريب مشهد معين أو إبعاده (zoom in, zoom out)، وصورة ثلاثية الأبعاد، وصوت أشد نقاوة.

الأمر ممكن جداً..!

* كاتب من العراق



لماذا تترصد الحزن
في وجهي.. أيها الفتى؟
حاذر فيه لحظة
الغضب..
هذه العصا لن تشق
الأرض أو تتحول أفعى..
ولا الوشاح جناح طير!
لكل واحد زاوية
يلجأ إليها..
هيا شاركني كأس شاي..
لكن أسرار الحزن
تبقى طي هذه
التجاعيد.















عبدالعزيز محمد البقشي



من مواليد الأحساء عام 1402هـ، حائز على شهادة بكالوريوس في الطب البيطري، غير أن تعلقه بالكاميرا وسعيه بها خلف اللقطة المميزة، لا يقل أهمية عنده عن تخصصه الجامعي. فتابع دورات تدريبية عديدة في الأحساء حيث كان من مؤسسي نادي التصوير الضوئي، وحالياً نائب رئيس له.
شارك في عشرات المعارض المحلية وفي الخارج (سوريا، قطر، العراق، ألمانيا، الكويت، الإمارات العربية المتحدة،...) وحاز جوائز عديدة، منها جائزة المركز الثاني في مسابقة المهرجان العربي الأوروبي في ألمانيا عام 2006م، وجائزة مسابقة الربيع الدولي الثالثة في مدينة الرقة بسوريا عام 2008م، وحلَّ ثانياً على الصعيد العالمي في مسابقة آل ثاني (محور الحركة) في دولة قطر عام 2006م.

عصر السرعتين!

نحن في عصر السرعة، لكن الوقت يمضي بدوره مسرعاً، وكأنه يتجاوز سرعة العصر. وكأن اليوم ينتهي ولم تكتمل ساعاته. والشهر ليس أكثر من جزء من شهر. والعام ليس فيه سوى بضعة شهور!

كم يردِّد الناس: لا يمر بنا رأس السنة إلا والسنة الجديدة على وشك الانقضاء. وحدث كبير مضت عليه سنوات كثيرة نشعر أنه ما زال حياً في وعينا وكأنه حدث أول من أمس.

فقد بُني عصر السرعة على مفهوم. فالتقدم يحتاج إلى اختصار الزمن المطلوب لإنجاز الأعمال أو إنتاج الأجهزة والحاجيات.. وكانت زيادة هذه السرعة في صلب شروط نجاح المنافسة في ميادين الصناعة والتجارة. فمن يختصر زمن الإنتاج ثم يختصر زمن التوصيل، يختصر زمن تحقيق النجاح.

وما زال السعي نحو الإنجاز الأسرع محموماً، يحتفظ بزخمه حتى يومنا هذا. ومن أبرز تجسيداته في السنوات الأخيرة تسريع حركة الكمبيوتر والعمليات التي يقوم بها، وقد وصلت إلى أرقام تكاد لا تصدّق.

وانتشر استخدام وصف هذا العصر بعصر السرعة في الخمسينيات، خاصةً مع شيوع وسائل النقل السريعة كالطائرة النفاثة، ووسائل الاتصال كالراديو واللاسلكي، إضافة إلى ازدياد سرعات كافة وسائل النقل وتقريباً من دون استثناء. ووصل إلى ذروات جديدة اليوم مع البريد السريع ونقل الملفات عبر الإنترنت والجوال وغيرها.

إلا أن سرعة إنجاز الأعمال والمهام كان من المفترض أن تعني أن الإنسان يحتاج إلى زمن أقل لإنجاز مهامه وحاجاته. وبالتالي، فإن هذا سيترك له متسعاً من الوقت لاهتماماته الأخرى. وإن صح هذا، فهو يصح في مجال العمل وحتى في المنزل. فإذا كانت الأجهزة المختلفة مثل الطباخ والغسالة والنشافة تحقق نسبة كبيرة من الواجبات المنزلية في وقت أقل فمعنى ذلك أن هذه الأجهزة تترك لربة البيت أو أي إنسان كان وقت فراغ إضافي يستغله كما يحلو له. إلا أن الانطباع العام لدى الناس هو عكس ذلك. فلو أخذنا اعتذار المعتذرين عن اتصال ما لم يقوموا به بسبب انشغالهم، للاحظنا، رغم ما قد يتضمن هذا الاعتذار من مبالغة، أنه لا يخلو من الصدق.

فالناس يشعرون بأن أوقاتهم محجوزة لانشغالات مختلفة. والأدهى من ذلك، هو أنه على عكس الافتراض بأن عصر السرعة سيجعل الإنسان يشعر أنه يستطيع أن ينجز الكثير في وقت محدد طالما بات بإمكانه إنهاء واجباته في وقت أقصر، فإن الناس يشكون اليوم أكثر من أي وقت مضى بسرعة انقضاء الساعات، ثم اليوم بأكمله.

فساعات اليوم تبدو أقل، وأيام الشهر وأشهر العام كلها وكأنها أصيبت بالاختصار.. أو كأن سرعة العصر هي أيضاً في سرعة مرور الزمن.

حين ظهرت رواية جورج أورويل «1984» في أواخر الأربعينيات، وحين عُرض فلم أوديسا الفضاء 2001 عن الخيال العلمي بعدها بعقدين، كان اختيار المؤلفين لهذه السنوات يقوم على اختيار سنوات في مستقبل بعيد سوف نصل إليه بعد فترة طويلة من الزمن. إلا أننا فجأة وصلنا إلى هذه السنوات وتعديناها وانضمت إلى نظيراتها من سنين الماضي القريب، والدنيا كما هي!

وناقل القول إن العيش في عصر السرعة ليس عيشاً في زمن فقط بل في مكان أيضاً.. إنه تاريخ وجغرافيا. وكأنه يخضع بدوره إلى نظرية النسبية حيث قياس السرعة يتفاوت بالنسبة إلى المكان.

فلا عصر سرعة خارج حدود الحياة المعاصرة، حيث تندفع الحياة الاجتماعية لتواكب دورات الصناعة والتجارة والأعمال على اختلافها.
هنا فقط نعيش عصر السرعة.
هنا فقط نعيش عصر السرعتين.

كميل حوا 



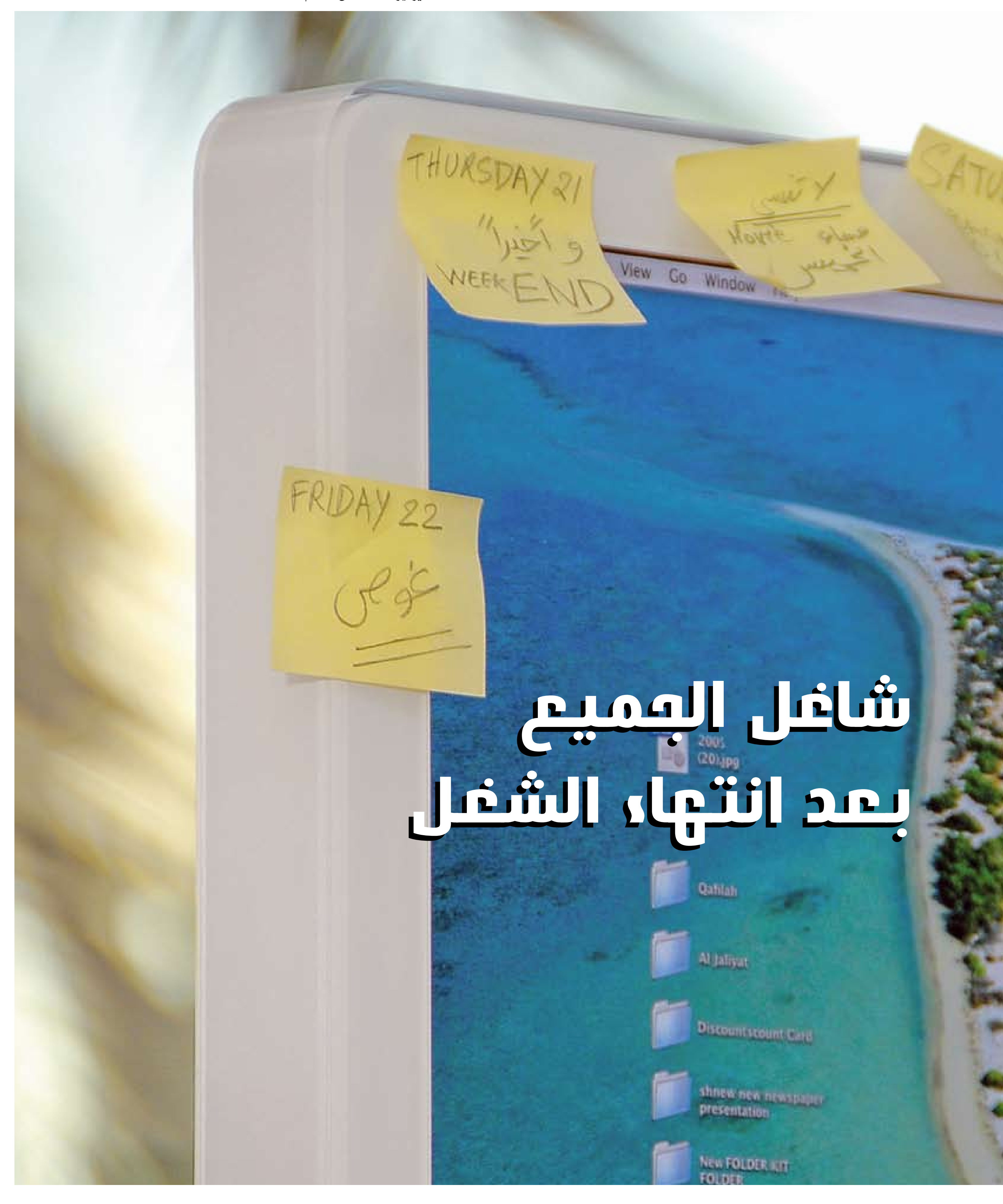
يتعامل الكثيرون مع العطلة الأسبوعية وكأنها «تحصيل حاصل»، ففي النهاية هي حق مكتسب لكل من عمل طيلة أيام الأسبوع، أو خمسة أيام متواصلة منه.

ولكن كما كانت هذه «الإجازة» التي «تُشغل» حياة البعض لمدة يومين (أو يوماً ونصف عند البعضَ الآخر) وليدة تطور نمط العمل وحاجات العاملين جسمانياً ونفسياً، تشهد في عصرنا تحولات تأخذها بعيداً عما كانت عليه قبل جيل واحد.

هيثم أحمد الكريتلي* يحدثنا عن هذه التحولات وما آلت إليه الإجازة الأسبوعية في حياتنا اليوم.

العطلة الأسبوعية

* كاتب من مصر



شاغل الجميع بعد انتهاء الشغل

قديماً قال أريسطو إننا نعمل كي نرتاح. والأمر صحيح في بعض وجوهه. إذ إن استغراقنا في العمل والتعب لبضعة أيام متتالية، يعطي للراحة والكسل خلال العطلة لذة مضاعفة.

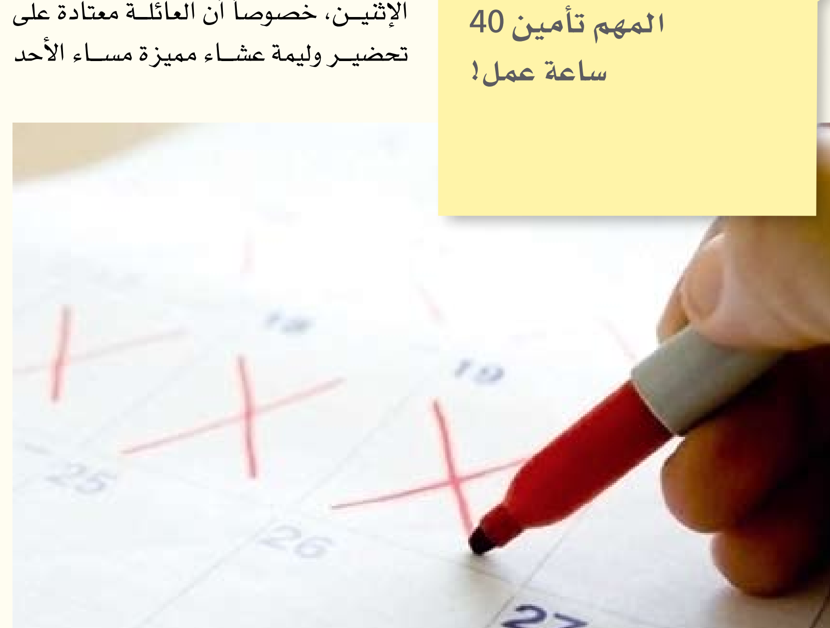
والعطلة الأسبوعية التي نعرفها اليوم، لم تكن «تحصيل حاصل» بالنسبة إلى أسلافنا. فصحيح أن الانقطاع عن الانشغال بالأعمال الدنيوية والمهنية ليوم في الأسبوع هو تقليد قديم جداً، إذ كان لليهود سبتهم، وللنصارى يوم الأحد، ومن ثم يوم الجمعة للمسلمين. إلا أن هذه الأيام كانت مخصصة للعبادة، ولم تكن على علاقة بالعمل ومتطلبات العاملين وحاجاتهم. فالإجازة الأسبوعية بمفهومها الحديث هي وليدة القرن التاسع عشر، عندما تمكنت النقابات العمالية في إنجلترا من انتزاع الحق بعطلة أسبوعية تضاف إلى العطلة الدينية، فكان لهم يوم السبت إضافة إلى يوم الأحد.

أساسها: الأحد والإثنين!

هذا ما تقوله الدراسات الاقتصادية المقتصرة على البحث في تاريخ قوانين العمل. غير أن كتب التاريخ والاجتماع تروي حكاية الإجازة الأسبوعية بتفاصيل ملونة أكثر من ذلك. ومن جملة ما تشير إليه هذه التفاصيل، أن النقابات العمالية دافعت مشكورة عن حق العامل في العطلة الأسبوعية. إلا أن صاحب الفكرة الأول والرائد في حمل لوائها كان العامل نفسه. هذا العامل الذي كان يومه يبدأ عند الرابعة صباحاً وينتهي عند التاسعة مساءً.

إذ يروى أن عمال المصانع في إنجلترا خلال أواخر القرن الثامن عشر، كانوا يتسلمون رواتبهم أسبوعياً مساء السبت، ولأن يوم الأحد كان مخصصاً للواجبات الدينية وليس للراحة، تفشَّى غياب الكثيرين من العمال من أعمالهم يوم الإثنين، خصوصاً أن العائلة معتادة على تحضير وليمة عشاء مميزة مساء الأحد

إجازة أسبوعية من يومين أو ثلاثة، المهم تأمين 40 ساعة عمل!



وبالتالي يتبقى منها ما يكفي لغذاء يوم الإثنين، الأمر الذي يعني أن وجبة الغداء المجانية في المصنع تفقد جاذبيتها، كما أن النقود التي قبضها العامل مساء السبت لا تزال في جيبه، فتعزِّز شعوره بالقدرة على الاستغناء عن راتب يوم، مقابل الاستمتاع بالراحة بعيداً عن العمل.

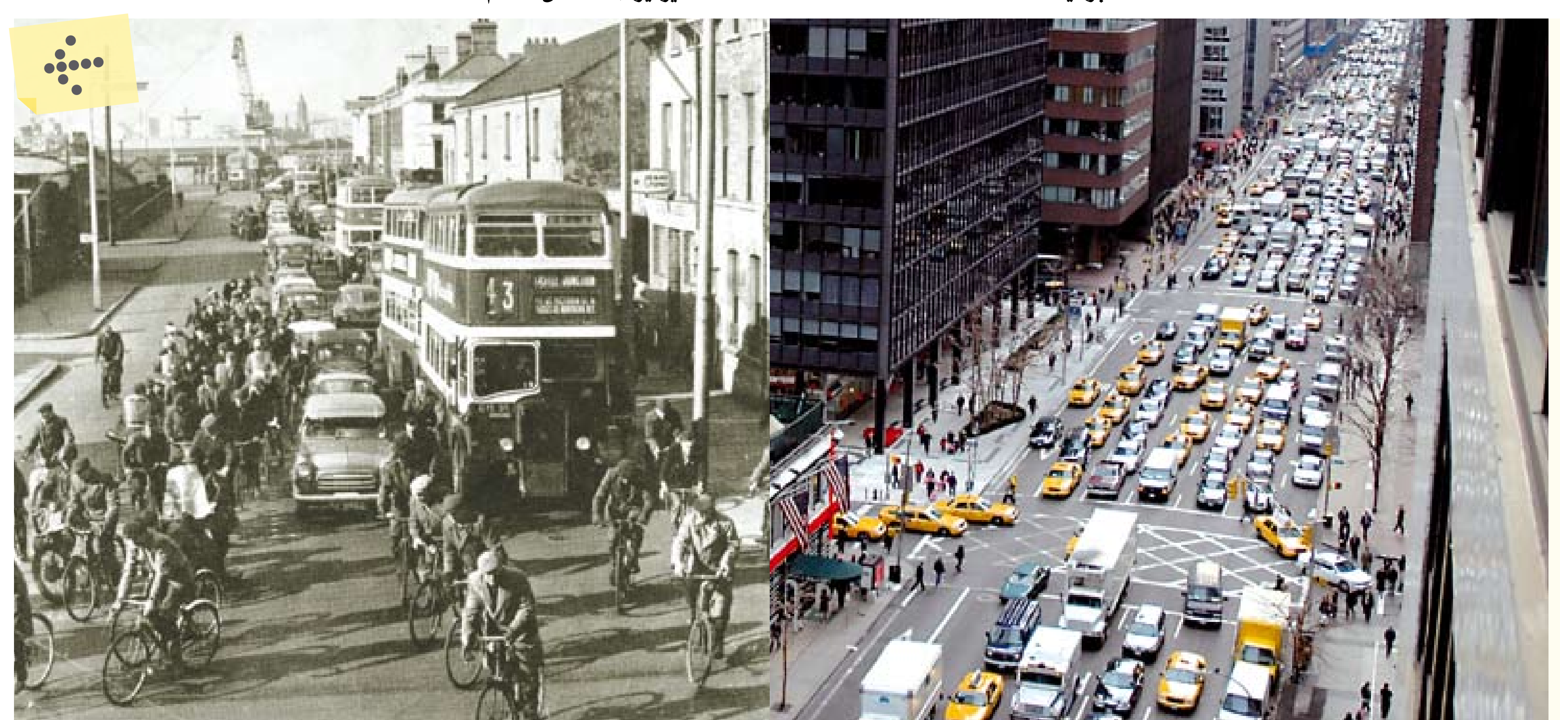
ظلت هذه الظاهرة مستمرة طوال القرن التاسع عشر تقريباً، حتى أتى دور النقابات العمالية. وفي طليعة هذه النقابات كانت هناك نقابة عمال البناء ونقابة عمال الطباعة والنشر اللتان تمكنتا من دفع أرباب العمل إلى القبول بمنح موظفيهم إجازة ليوم في الأسبوع إضافة إلى يوم الأحد، من دون أن يحسم بدله من الأجور.

ورويداً رويداً، انتشر تقليد الإجازة الأسبوعية في يومي السبت والأحد حتى عم كافة المؤسسات، وفي المقابل تضاءل الغياب يوم الإثنين، حتى اختفى تماماً في بداية القرن العشرين.

فخلال الثلاثينيات من القرن الماضي، نظِّمت قوانين العمل في معظم الدول الأوروبية، بحيث بات العمال والموظفون يقضون ثماني ساعات يومياً في مراكز أعمالهم، وذلك لمدة خمسة أيام، أي ما يساوي 40 ساعة عمل أسبوعياً. وبهذا، لم تعد هناك حاجة للتذمر، بعدما بات العامل يقضي ثلث وقته فقط في المصنع أو الشركة، والثلثين الباقيين في النوم والاسترخاء وأوجه النشاط الشخصية الأخرى. وبسرعة، طبقت معظم دول العالم هذا النظام مع بعض الاختلافات المحدودة بين مكان وآخر. ولعل أبرز هذه الاختلافات كان في الدول العربية والإسلامية، إذ اعتمد يوم الخميس مضافاً إلى يوم الجمعة ليشكِّل الإجازة الأسبوعية بدلاً من السبت والأحد كما هو الحال في الدول الغربية. وفي المملكة العربية السعودية، اعتمد نظام العطلة الأسبوعية بدءاً من عام 1975م، حين بدأ منح الموظفين وطلبة المدارس إجازة يوم الخميس إضافة إلى الجمعة. وبسرعة أصبح هذا النظام جزءاً أساسياً من أسلوب حياة السعوديين والأجانب المقيمين في المملكة.

أسبوع المستقبل: أربعة أيام؟

بدأت من شهر يوليو الماضي، ولاية يوتاه الأمريكية باعتماد نظام عمل في مؤسساتها الحكومية على أساس أربعة أيام عمل مقابل إجازة من ثلاثة أيام أسبوعياً. ويشمل هذا النظام نحو 80% من الموظفين الحكوميين في الجامعات والسجون والمكتبات... وتهدف الولاية من وراء اعتماد النظام الجديد إلى تخفيض معدل استهلاك الطاقة. إذ تشير الدراسات إلى أن 32 مليون أمريكياً (في البلاد بأسرها) يذهبون إلى العمل بسياراتهم الخاصة. ويمكن لتطبيق نظام أسبوع عمل من أربعة أيام أن يخفِّض معدل استهلاك الوقود بنسبة 40%.



عطلة الأسبوع التي أصبحت مرادفاً لأزمة السير

هـذه الفكرة ليست جديـدة. إذ طبقتها الولايـات المتحدة الأمريكيـة والـدول الأوروبيـة بشـكل مؤقـت ونسبـي فـي سبعينيـات القرن الماضـي كوسيلة لمواجهـة أزمة النفط في ذلك الوقت. فـكان الموظفون والعمال يبقون في مراكز أعمالهـم عشر ساعات يوميـاً، لكي يبقى مجمـوع ساعات عملهم أسبوعياً خلال أربعة أيام هو نفسه: 40 ساعة.

واليـوم، تعرض ولايـات أمريكيـة عديـدة هـذا النظام كخيـار أمـام الموظفيـن الحكومييـن. وهنـاك شركات كبرى تعتـزم تطبيقه، ومنها شـركات صناعة السيارات. والدافـع الرئيس إلـى ترويج هذا الخيـار يبقى هو نفسه: ارتفـاع أسعار الوقود. ولكن هنـاك دوافع ثانوية تسهم في تعزيـز اعتماد هذا الخيـار، ومنها أن الشـركات تعرضه وكأنـه مكافـأة للموظفيـن. إذ إن الأزمـة الاقتصادية تصعب تقديم المكافآت المادية، وتوفير المصاريف التي يتكبدهـا هـؤلاء للوصول إلى مراكز أعمالهـم، له تقديره من قبلهم. وفـي الوقت نفسه، يبدو هـذا النظام الجديد أكثر جاذبيـة للموظفين الأصغر سناً، الذيـن اختاروا ألاّ يمضـوا فـي الطريق الـذي كان عليه آباؤهـم من تكريس حياتهـم للعمل وحده. فهذا النظـام الجديد يعطي فسحة أوسـع لهؤلاء الشبان تسمح لهم بالانصراف كفاية إلى ما يـودون عمله في حياتهم، وتضفـي مزيداً من التوازن بين حياتهم الشخصية والعمليـة. الأمر الذي يعزِّز بدوره من قدرات الشركات على اجتذاب المواهب الشابة.

الجسر الفرنسي

والواقع أن «أسبوع العمل من أربعة أيام» ليس ابتكاراً أمريكياً خالصـاً. فالفرنسيون طرحوه على بسـاط البحث أكثر من مرة على الصعيد الحكومي. أما على صعيد القطاع الخاص وقطاع التعليم فكثيـراً ما تتمدد الإجازة الأسبوعية لتصبح أكثر من ثلاثة أيام.

فمن المعروف عـن الفرنسيين ولعهـم الشديد (وربما أكثر من أي شعب آخر) بأيـام العطلة الأسبوعية، التي تتألف عادة من يومـي السبت والأحد. ولكن إذا صدف أن وقـع يوم عطلة لمناسبة دينية أو وطنية يوم الثلاثاء، يعمد الكثيرون من الموظفين والطلاب والمدرسين إلى وصـل الإجازتين ببعضهما، فيضمُّون من دون استشارة رؤسائهـم يـوم الإثنين إلى الإجازتيـن لتصبح الإجازة الواحدة أربعة أيام. ويطلق الفرنسيون على هذا التقليد اسـم «الجسـر». ويقولون لـك تعبيراً عـن عزمهم على التغيب من العمل يوم الإثنين: «أريد أن أعمل الجسر!». وينطبـق «الجسـر» أيضـاً إذا صادفـت المناسبـة يوم خميـس، فيضم إليه يوم الجمعة ومن ثم السبت والأحد بطبيعة الحال.

أناس لا يعرفونها

إن المحيط الاجتماعي الذي ينتمي إليه الموظف أو العامل في دائـرة حكومية أو شركة أو مصنـع، غالباً ما يتألف في معظمـه مـن أناس ينتمـون إلى طبقتـه ويمارسـون أعمالاً مشابهـة في مستوياتها ونوعياتها للعمـل الذي يمارسه، أي أنهم موظفين وعمال أيضاً. ولذا عندما يتطلع هذا الموظف إلى العطلة الأسبوعية يرى وكأنها كونية شاملة، في حين أن الحقيقة تختلف عن ذلك.

فهنـاك ميادين عمل كثيـرة لا تسمـح أبداً باعتمـاد نظام الإجـازة الأسبوعيـة العام المعمـول به لأنها وبـكل بساطة تنطوي على مهمات لا تتحمل أي انقطاع. ومن هذه الميادين نذكـر: العمل في السلك العسكري (جيش وشرطة ومختلف القـوى الأمنيـة)، الطبابـة والتمريض، قطـاع النقل العام (محطـات قطار ومطـارات وسيارات أجـرة وحافلات..)، الخدمـات السياحية (مطاعـم، فنادق، مقـاهٍ وما شابه)، الأفـران، الصيدليـات، الحراسـات الأمنيـة... فـكل هذه القطاعـات تلجأ إلـى اعتماد «المناوبـة» أي منح الإجازات دورياً من دون أن يكـون ذلك مطابقاً حكمـاً لأيام الإجازة الأسبوعيـة المعتمدة، لا بـل غالباً لا تأبه بهذا التطابق على الإطلاق.

وإلـى هـذه الشريحة (الكبيرة بشكل ملحـوظ)، نضيف أن تطـور وسائل الاتصـال في السنـوات الأخيـرة، ربط عمل الشركات متعددة الجنسيات، والكثير من الشركات الكبرى بفروع وأعمال على تماس معها في بقاع مختلفة من العالم، يجد بعضها منفعة ما في البقاء على اتصال مع هذه الفروع أو الشـركات الأخـرى خـلال أطـول وقت ممكـن (لتفاوت توقيـت الإجازات بين بلد وآخـر مثلاً)، فعمل على تخفيض ساعات العمل اليومي مقابل «قضم» نصف نهار من الإجازة الأسبوعية. فإذا أضفنا هؤلاء إلى شريحة «المناوبين» الذين ذكرناهم سابقاً فسيصبح بإمكاننا تفسير الإحساس بضياع الحدود الفاصلة ما بين بدء الإجازة الأسبوعية والعودة إلى العمـل، مقارنة مـع الصـورة النظرية التي توهمنا نظرياً أن العالم بأسره انصرف مع بدء الإجازة إلى العيش على هواه.

إحالة الواجبات الاجتماعية وبعض أوجه النشاط إلى أيام الإجازة تفسدها، والمطلوب: التخطيط

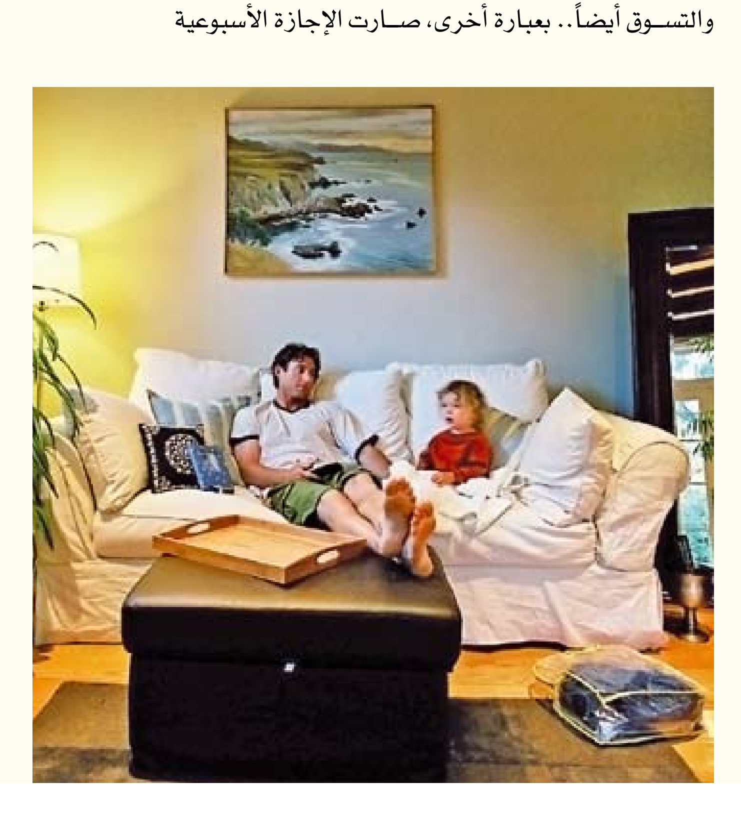
الإجازة الأسبوعية الجديدة بداية ونهاية فقط

ممـا لا شـك فيـه أن لحظة الخـروج من العمـل عند بدء الإجازة الأسبوعية لا يزال يتسم بشعور بالارتياح، وبصورة الموظـف المبتسـم الذي يتمنـى لزملائه عطلـة سعيدة. ولكـن ما من شك أن هـذا الارتياح لم يعـد بالزخم الذي عرفـه الجيـل السابق، ولا حتى الجيـل الحالي عندما كان على مقاعـد الدراسة. فثمة ما تغير فـي مضمون الإجازة الأسبوعية.

لم تعد الحياة الحديثة تكتفي بأربعين ساعة عمل أسبوعياً، وإن كان هـذا هـو عـدد ساعـات فتـح المكاتـب. فأجهزة الكمبيوتـر في البيـوت وتلك المحمولة فـي الشارع أضافت إلـى مـكان العمل أماكن أخـرى. وجعلت السعـي إلى زيادة المداخيل عن طريق عمـل إضافي أمراً ممكناً. فعلى سبيل المثال، تشير الأرقـام إلى أن أكثر من 80% من الموظفين البريطانيين يعملون أكثر من 48 ساعة أسبوعياً. وواحد من كل ثمانية موظفين يعمل أكثر من 60 ساعة.

وإضافـة إلـى السعي لزيـادة المداخيل، فإن نمـط الحياة الحديثـة في المدن الحديثة بـات يحيل الكثير من الأنشطة والواجبات الأسبوعية إلى أيام الإجازة. فزيارات الأصدقاء باتـت تؤجل حتـى عطلة الأسبـوع، والواجبـات الاجتماعية كذلـك، وطالما أن المرأة صارت تعمـل خارج البيت، فهذا يعطي تراكم بعض الأعمال المنزلية وتأجيل القيام بها حتى عطلة الأسبوع، وصيانة المنزل صارت تتم خلال «الإجازة»، والتسـوق أيضاً.. بعبارة أخرى، صـارت الإجازة الأسبوعية





الإجازة.. للترفيه في الخارج، أم للاستراحة في المنزل؟



كي تكون العطلة فعلاً كذلك

- ضع خطة عامة لا تطلب منك الكثير، بل تحدد لك مساراً واضحاً لما يمكن أن تكون عليه عطلتك. فهل تود قضاءها في المنزل مثلاً، أم الذهاب في نزهة مع الأصدقاء؟ هل ترغب في مشاهدة التلفزيون، أو الاستجمام على شاطئ البحر؟ حالما تتضح لك رغبتك، باشر خطة التنفيذ من دون التوقف كثيراً أمام التفاصيل.

- يمكن لضغط العمل خلال أيام الأسبوع أن يدفعك إلى اعتماد خيارات كثيرة متضاربة، فتشعر برغبة في الذهاب إلى التخييم مع أصدقائك، وبالتسوق في آنٍ واحد. تذكر أن أمامك يومين فقط لتخطِّط لهما، بشكلٍ يحفظ لك أولاً راحتك الجسمانية والنفسية.

- رتب دائماً لجلسة تسلية وترفيه مساء الخميس. بحيث إذا خابت مشاريعك وتوقعاتك ليوم الجمعة، تكون قد كسبت شيئاً من هذه الإجازة.

- ابتعد عن مصادر التوتر التي يمكن أن تفسد عطلتك، مثل السوبر ماركت المزدحم، أو سلوك الطرقات المزدحمة إذا كان يمكنك الاستغناء عن ذلك.

- خطط لأن تكون لديك عطلة أسبوعية واحدة من كل أربع عطلات، خالية تماماً من أي التزامات اجتماعية، بحيث يمكن أن تقضيها كيفما شئت من دون أن ينغص عليك متعتك هذه إحساس بأهمية الوقت ووجوب الاستفادة منه.

- أخيراً، اعلم أن عطلة اليوم ليست ذاتها عطلة الأمس، وأن الواجبات لا بد وأن تتسلل إلى جدول أعمالك في هذه العطلة. وحالما ترضى بهذه الحقيقة، سيكون إنجازك لهذه الواجبات -المختارة بعناية- عاملاً إضافياً على إحساسك بالرضا عن هذه العطلة والاستمتاع بها.

المساحة التي يمكن فيها الوفاء بكل الالتزامات اليومية التي يعوق العمل تنفيذها خلال أيام الأسبوع.

وهكذا، مهما تضمَّنت الإجازة فترات راحة واسترخاء ومشاريع ترفيهية ممتعة، فإن الإحساس بالارتياح الذي ينتاب الموظف أو العامل لحظة خروجه من العمل عند بدء إجازته يكون قد فقد زخمه، من دون سبب مبرر واضح، بعيد ساعات قليلة. وأكثر من ذلك، فإن وفرة وسائل التسلية والترفيه (مثل التلفزيون، والمقاهي والألعاب الإلكترونية وما شابه ذلك) أفقدت اللجوء إليها في عطلة الأسبوع نكهته، لأن اللجوء إليها ممكن ويحصل فعلاً كل يوم.

يقول البروفيسور ميهالي سيكز ينتميهالي من جامعة كليرمونت في كاليفورنيا إن العطلة الأسبوعية صارت اليوم عرضة لأن يستهلكها القلق أو الملل.

فمنذ الساعات الأولى يبدأ الموظف بالبحث عما يمكن أن يشغله خلال اليومين المقبلين، وكيف يمكنه أن يستغل هذه الإجازة. ناسياً أن أفضل استغلال لها هو عدم استغلالها في شيء. إنه وقت للراحة الجسمانية والنفسية. هذه الراحة التي نحتاجها لاستعادة الطاقة اللازمة للعمل، والتي كانت الغاية من ظهور مفهوم الإجازة الأسبوعية واعتمادها. ولكن يبدو أن الغاية الأساسية قد أهملت، وبقيت الوسيلة. وسيلة نتعثر اليوم في التعامل معها، ولا ندرك قيمتها إلا لساعات قليلة خلال ليل يوم الجمعة قبيل استئناف العمل، فنشعر بشيء من الحسرة على انتهاء الإجازة الأسبوعية.

هذه الإجازة التي لم يبق من أفراحها وأتراحها غير البداية والنهاية، حتى باتت هي البداية والنهاية، ولا شيء محدد بوضوح، وربما لا شيء على الإطلاق ما بينهما.

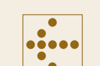
صورة شخصية



بخلاف الذين يعملون مكرهين في المهن الموروثة عن آبائهم ويكتفون بالحلم بأن يعملوا في مجال آخر يفضِّلونه، أحبَّ جواد الرمضان فن تطريز المشالح الذي ورثه عن والده، وأبدع فيه وعلَّمه للكثيرين، قبل أن ينصرف إلى مجال مختلف تماماً: التأريخ.. الذي كان من ثماره عدد كبير من المؤلفات، وكنز من المخطوطات. الأمر الذي دفع بالكاتبة السعودية شمس علي أن ترسم لنا الصورة الشخصية لهذا الرجل ذي الإبداعين

جواد الرمضان

بين إبداعين: حياكة المشالح والتأريخ



في مدينة الهفوف في الأحساء شرق المملكة العربية السعودية ولد جواد بن حسين بن محمد ابن الشيخ علي الرمضان عام 1355هـ بين خمسة من الأشقاء الذكور، وتجرَّع مرارة اليتم باكراً بوفاة والده عام 1363هـ، بيد أن العناية الإلهية تلطفت بالصغير اليتيم جواد لتحيك له حياة مطرزة بالإبداع، مكتنزة بالعطاء، مدموغة بالأسفار.

رحلاته

انطلق الرمضان في أولى رحلاته عام 1369هـ صبياً صغيراً إلى البحرين، بمعية أسرته وعائلها الشقيق الأكبر محمد الرمضان، صاحب ديوان «مائدة رمضان» أول ديوان شعري لشاعر أحسائي صدر عام 1385هـ عن مطبعة كرم بدمشق. ولأن إرث الأجداد الإبداعي والأب الراحل في صناعة المشالح ضارب بجذوره في التربة الخصبة للصغير جواد، فقد تشرب مهنة حياكة «البشوت» في عام 1370هـ رغم مشقتها، إلى جانب سعيه لنيل العلم في مدرسة «العامر» بالمنامة، حيث حفظ القرآن الكريم على يد رجلين فاضلين عُرف الأول بملا عبدالله بن صالح العامر وكان رجلاً كفيفاً والآخر ملا موسى بن سليمان، وفي عام 1371هـ قرر الرمضان الالتحاق بمدرسة ليلية أهلية تعنى بمحو الأمية ويديرها في ذلك الحين عدد من مثقفي البحرين. غير أنه لم يمكث بها طويلاً، إذ سرعان ما غادرها سعياً لتحصيل علمي أفضل، طارقاً بذلك أبواب عدد من المدارس.

نشأة علاقته بالكتاب

في مكتبة أخيه الشاعر محمد الرمضان، توطدت علاقة جواد بالكتاب، لتستحيل فيما بعد شغفاً استولى عليه ليحمله على ادخار ما يمتلك من نقود قليلة لابتياع ما يتطلع إليه من كتب. واستطاع بذلك اقتناء الكتاب الأول وهو دوان «شفق الأحلام» للمؤرخ الشاعر محمد سعيد القطيفي صاحب كتاب «ساحل الذهب الأسود».

وجره شغفه ذلك، مع قلة ذات اليد، إلى البحث عن مورد آخر لاقتناء الكتب يتناسب ومدخراته المتواضعة، فوجد ضالته تلك في سوق للأسعار المخفضة، أو ما يعرف شعبياً بالـ «حراج»، وكان يدعى بسوق «المقاصيص» كناية عن «المِقصّ» وهو الشخص المعدم المفلس. ومذ ذاك تواترت زياراته إليه ليروي عن طريقه ظمأه إلى قراءة الدوريات الثقافية والكتب قديمها وجديدها. فشكّل بذلك مكتبة ضخمة ضمت بين رفوفها عدداً من الكتب القيمة.

من البحرين إلى العراق وسوريا

عندما حملته الظروف على حزم متاعه لمغادرة البحرين إلى العراق، تحيَّر بشأن مكتبته تلك. وشقَّ عليه حملها، فعمد إلى تخزينها في خمسة صناديق خشبية ضخمة طول الواحد منها 1.5 متر وركنها في غرفة مهجورة لأحد أقربائه، مودعاً فيها حصيلة ما اقتناه من كتب طوال مدة مكوثه في البحرين. بيد أنه سرعان ما غادر العراق بعد بضعة أشهر فقط من وصوله إليها متوجهاً إلى سوريا عام 1378هـ في رحلة امتدت عشر سنين.

وعندما طال به البقاء أرسل إليه أحد إخوته يستأذنه الانتفاع ببيع متاعهم المودع في البحرين فأذن له ولم يخطر بباله أنه سيتصرف أيضاً بصناديق الكتب المكدسة ويبيعها بثمن بخس في سوق «الحراج» نفسه، الذي اقتناها منه يوماً ما، مما أصابه بصدمة كبيرة عندما تناهى الخبر إليه.

ولأن الرمضان بات يتنازعه إبداعان، أحدهما صناعة «البشوت»، إرث أبيه وأجداده، التحق خلال إقامته في دمشق بمصنع لصناعة «المشالح» أسسه نبيه حمد الله معتمداً في ذلك على أيدي أمهر صنَّاع «البشوت» من الأحسائيين المهاجرين.

ظل الرمضان متمسكاً بتلك الصناعة طوال ثلاثة عقود لم يبخل خلالها بتعليمها إلى الأجيال حتى كلَّ البصر، فأمسك عنها عام 1400هـ. وانصرف إلى إبداع آخر ظل يتنازعه دون انقطاع وهو التأريخ، الذي تألق فيه بعد أوبته إلى مسقط رأسه «الأحساء».

علاقته بالتأريخ

ولعلاقة الرمضان بالتأريخ حكاية تبدأ في بحثه عن جذور نسب عائلته. وتوصل من خلال بحثه في كتاب «خزاعة» إلى أن رمضان هو أحد أبناء سلمان بن محمد باشا الثاني عشر الذي هو جد آل رمضان، ويعود نسبه إلى سلمان بن عباس ابن محمد بن حسن بن داوود بن عبدالله ابن عبدالمنعم بن هديب بن رخا بن أثير بن جلال ابن رضا بن دعبل الخزاعي الشاعر المعروف. وانطلاقاً من بحثه ذلك عن أصول عائلته وآثارها العلمية والأدبية في عام 1388هـ ابتدأ مشواره في البحث التأريخي والتنقيب عن الأنساب الذي شمل بعد ذلك وطنه وامتد أيضاً ليطال دول الخليج، ليتشكل بذلك مساره البحثي التدويني لتاريخ أعلام المنطقة من أهل العلم والأدب منذ أربعة عقود ولم يزل.

طرقه في البحث عن المخطوطات

اتخذ المؤرخ الرمضان عدة طرق في البحث عن مخطوطاته:

1 - البحث لدى أسر الأعلام البارزين في المنطقة عما خلفوه بعد وفاتهم من مخطوطات.

2 - التفتيش في محاريب المساجد المهجورة ومغارات جبل القارة حيث اعتاد الناس إيداع الكتب والمصاحف العتيقة فيها.

3 - حضور تركات العلماء الراحلين.

وفي إحدى المرات اتفق أن زاره أحد الباحثين عن التراث الذين يترددون عليه للاستفادة من مخطوطاته وسأله عن كيفية حصوله على الوثائق؟

فأخبره بأن ثمة مساجد تتكدس في زواياها أكياس من الخيش المملوءة بالأوراق الصفراء مؤكداً أن تلك إحدى وسائله في تحصيل الوثائق، واتفق معه على القيام بزيارة لإحدى القرى التي كان الرمضان على علم من احتواء مسجدها على عشرين كيساً من الخيش، وحال وصولهما توجه الاثنان مباشرة إلى المسجد وأخذا يبحثان بين أكداس الورق وصادف أن انتبه لهما فتية القرية فهبوا راكضين إلى العمدة لإخباره بما شاهدوا من أمر غريبين يفترشان أرضية المسجد وينهمكان في التنقيب بين محتويات أكياس الخيش، فجاء العمدة ركضاً بمعية عشرين منهم وهو يمسك بعصا غليظة وحالما رأى هيئة الرجلين انتابه الخجل وتراجع مخبئاً العصا خلف ظهره وهو يسألهما عن غايتهما فأخبراه عنها فدعاهما إلى ضيافته وأمر بالمجيء لهما بماء للشرب ولغسل أيديهما مما علق بها من غبار.

ما في حوزته من وثائق ومخطوطات

يقدَّر عدد ما في حوزة جواد الرمضان من وثائق ومخطوطات بحوالي الألف مخطوطة. وأول مخطوطة تحصّل عليها هي كتاب «مقامات الحريري» المخطوطة على يد رجل أحسائي في القرن الثالث عشر الهجري. أما أقدم وثائقه فتعود إلى القرن العاشر الهجري، وبحوزته كذلك عدد من الوثائق العائدة إلى القرن الحادي عشر الهجري.

المستفيدون من مخطوطاته

على مدى عدد من السنوات استفاد من مخطوطاته عدد كبير من الباحثين والأكاديميين في تحضير أطروحاتهم وبحوثهم أو في تأليف كتبهم مثل صاحب كتاب «أعلام هجر» هاشم الشخص.

ويشير الرمضان إلى أن بعض الباحثين الذين استفادوا من مخطوطاته لم يشيروا إليها حتى مجرد إشارة على أنها مصدر لبحثهم.

من جهة أخرى ولد اهتمامه النظري بالتراث اهتماماً عملياً موازياً، فأصبح يجول على المواقع الأثرية في قرى الأحساء ليلتقط لها الصور على مدى عقود ليجمع بذلك ثروة فوتوغرافية.

أهم مؤلفاته

وضع جواد الرمضان حتى اليوم عدداً من الكتب، نذكر منها:

1 - «مطلع البدرين في تراجم علماء وأدباء الأحساء والقطيف والبحرين» وهو مكون من اثني عشر جزءاً طبع منها فقط جزءان بعدما تكفل بطباعتهما أحد رجال الأعمال الكويتيين ويدعى الحاج حسين القطان، ومن إيراد ما يباع من 3000 نسخة المطبوعة من كتابه «البدرين» مازال الرمضان يحاول طباعة ماتبقى من الأجزاء.

2 - معجم أعلام الأحساء في العلم والأدب.

3 - معجم أعلام أنساب الأحسائيين «معجم العائلات والأسر الأحسائية».

4 - قلائد الجمان في تراجم علماء وأدباء آل رمضان.

5 - إسناء المغانم في تراجم أعلام آل أبي المكارم.

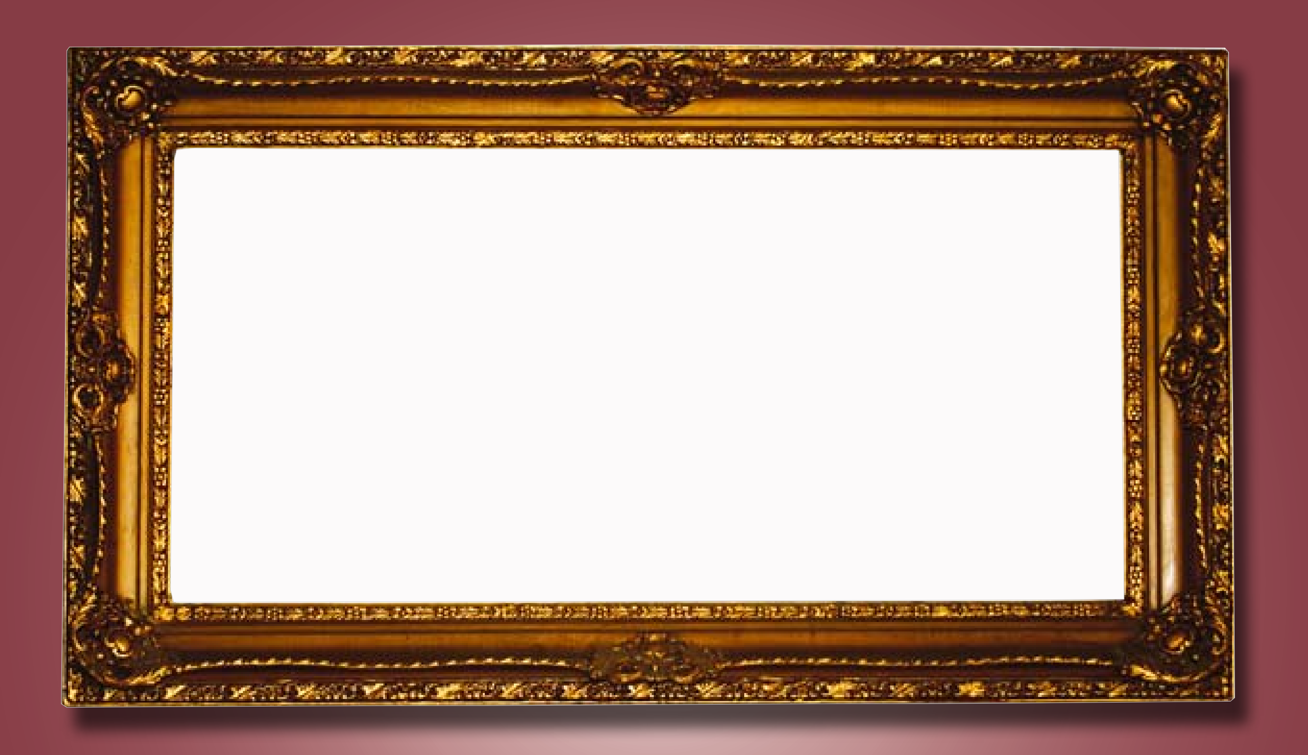
6 - كشكول نزهة الناظر وسلوة الخاطر، وهو في أربعة أجزاء.

6 - معجم المؤلفين الأحسائيين، سيطبع قريباً.

7 - نفائس الأثر في تاريخ هجر.

8 - ديوان الأحسائيات.

ولأن المبدع يظل في حال من التجدد الدائم، فالمؤرخ والفنان الرمضان لم يجفل من التقنية الحديثة بل سخَّرها لإبداعه واستفاد منها في تدوين وحفظ مخطوطاته. ويفكِّر حالياً أيضاً بإنشاء موقع إلكتروني يعرِّف من خلاله بما لديه من كنوز معرفية ليستفيد منها الأجيال والباحثون.



لماذا لا نحب معظم هذه المعارض؟

اللوحة التي ينتظرها الإطار



لماذا تبقى معارض الفن التشكيلي في البلاد العربية في آخر مرتبة على صعيد استقطاب الجمهور ومتذوقي الفن والمثقفين؟ ولماذا يعتبر المعرض الفني ناجحاً إذا استقطب مئة زائر في حين أن الحفلة الموسيقية يجب أن تستقطب الآلاف لكي تعتبر ناجحة؟ وهل تترك هذه المعارض التشكيلية التي تقام أينما كان في مدننا وعواصمنا في نفوس الذواقة والمثقفين (ولا نقول العامة) الأثر الذي تتركه الفنون ومجالات الإبداع الأخرى؟ عبود عطية يجيب.

في بيت كل منا «لوحة» واحدة على الأقل معلَّقة على حائط غرفة الجلوس، «لوحة» بالمعنى الواسع للكلمة، أي أنها يمكن أن تكون لوحة زيتية أصلية، أو نسخة مطبوعة عنها، كما أن موضوعها يمكنه أن يتنوع بشكل يستحيل حصره.

ومن هذه الملاحظة البديهية حتى حدود السذاجة، ننطلق إلى طرح قضية بالغة الأهمية، لا بل مشكلة من أصعب المشكلات لأنها بين طرفين: أولهما قد لا تكون له مصلحة في حلها، والثاني لا يشعر بالحاجة إلى الحل. فما هي أبعاد هذه المشكلة وأين بدأت؟

قبل الغوص في التفاصيل، نشير إلى أننا هنا بصدد الحديث فقط عن فن اللوحة سواء كانت تتضمن رسماً أم خطاً، وسواءً أكانت زيتية أم مائية أم بأية مادة أخرى، أي ما شاعت تسميته بالفن التشكيلي، وهي تسمية لا نعتمدها هنا لأن التشكيل (من إعطاء الشكل لأمر لا شكل له) يشمل عرفاً جملة فنون أخرى مثل النحت الذي هو خارج موضوعنا تماماً.

جذور مشكلتنا مع اللوحة

المعروف أن فن اللوحة، أي هذا الرسم، الملون عادةً، والمؤطّر الذي يعلّق على الجدار هو فن أوروبي المنشأ. ظهر في القرن الرابع عشر واكتملت شخصيته الوظيفية في القرن التالي. إنه عمل فني مستقل تماماً عن محيطه، يمكن نقله من مكان إلى آخر من دون أن يخسر شيئاً من محتواه. وهو مختلف تماماً عن فن الرسم عند الحضارات الأخرى، ومن بينها الحضارة الإسلامية التي جاء فيها هذا الفن على صفحات الكتب، وارتبط دائماً بالكتاب، بحيث أن نزع هذا الرسم من الكتاب وتأطيره ليعلق على الحائط، يفقده تماماً قيمته الأساسية ويحوله إلى مجرد قطعة تزيينية. وهذا الفارق ما بين اللوحة الأوروبية والرسم الإسلامي لا يعني أبداً فارقاً في المستوى، بل اختلافاً في وظيفة كل منهما.

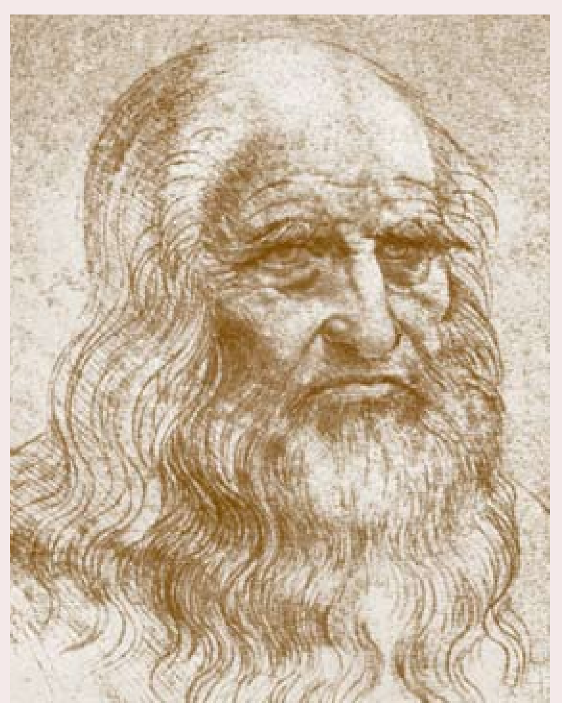
بدءاً من الربع الأخير من القرن التاسع عشر ظهر في البلاد العربية فنانون راحوا يرسمون على النمط الأوروبي: لوحات. وقد احتفل لبنان ومصر بذكرى مرور مئة سنة على هذا التطور، وأصدروا لهذه الغاية الكتب «الموسوعية» التي تتحدث عن أعلام هذا الفن خلال قرن من الزمان. وتزامن هذا التطور مع تطور آخر على مستوى العمارة والإسكان، فصار الملايين منا يسكنون في بيوت ذات تنظيم داخلي مستوحى من الطرز الأوروبية، وصارت الجدران في بيوتنا قابلة لأن نعلّق عليها هذا الفن الجديد، إن لم نقل أنها تبدو من دونه وكأنها عارية موحشة وتشير إلى نقص مزعج في تأثيث البيت.

ولولا ظهور هذه الحاجة، النفسية قبل أن تكون تزيينية، إلى اللوحة، لما كانت هناك أية مشكلة في «اللوحة العربية المعاصرة»، إذ لكان بإمكاننا الاكتفاء بنعت الرسامين في بلادنا بأنهم ينتجون شيئاً إما لأنفسهم، أو للتصدير.. ولكن الملاحظة البديهية التي سقناها في بداية المقال حول وجود اللوحات في بيوتنا، تكشف عمق المشكلة، إذ إن معظم هذه اللوحات ليس من «مدرسة» الرسم العربي المعاصر. فهو إما نسخة (أحياناً مطبوعة) للوحة مبتذلة،



الرسم الإسلامي التقليدي: التزام بالكتاب





التفضيل المستحيل بين بيتهوفن وليوناردو

أو مجرد «شيء» يتماشى بألوانه مع ديكور الغرفة.. وفي هذا المجال لا تختلف بيوت الطبقة الوسطى عن بيوت الطبقة العليا، الاختلاف فقط هو في أثمان اللوحات المعلَّقة هنا أو هناك. ولكن، لنترك مسألة الاقتناء جانباً، طالما أنها مرتبطة بالقدرات المادية، ولنتطلع إلى «الاهتمام».. فإلى أي حد تثير اللوحة العربية المعاصرة اهتمام الإنسان العربي المعاصر؟

مشكلة أنصار اللوحة تتمثل في رضاهم عن مثل هذا الحجم المتواضع من التفاعل مع محيطها

السؤال الفاضح

لو أننا خيَّرنا اليوم أي إنسان عربي (مثقفاً كان أم أمياً) ما بين أغنيات أم كلثوم مثلاً ولوحات أكبر رسام عربي على الإطلاق، وقلنا له إننا سنلغي أحدهما من الوجود، لقال خذوا كل اللوحات العربية واتركوا أم كلثوم. وسيعطي الجواب نفسه لو كان خياره ما بين ديوان المتنبي وكل موجودات متحف الفن المعاصر في أكبر عاصمة عربية. الأمر الذي يؤكد فوراً أن اللوحة لا تزال بعيدة عن احتلال مكانها في النسيج الثقافي العربي الأصيل.

وهل تجوز المقارنة؟ يسأل المدافعون عن اللوحة. نعم، تجوز. إذ لو أننا خيَّرنا أوروبياً ما بين إلغاء لوحات ليوناردو دي فنشي أو موسيقى بيتهوفن، لما استطاع أن يختار. إذ يرى أن الاثنين يحتلان الأهمية نفسها في ثقافته، وهي الأهمية نفسها التي تحتلها الرواية، والمسرحية وغير ذلك وصولاً إلى السينما. واستطراداً، نحيل المشككين إلى دراسة الناقد الفرنسي إتيان سوريو «تراسل الفنون» التي تذكر على وجود صلة قربى ما بين مختلف الفنون من الشعر إلى الرسم مروراً بالعمارة والنحت والموسيقى.

مشكلة اللوحة العربية هي أنها حيناً على صلة قربى واهية جداً بباقي الفنون، وأحياناً لا علاقة لها، لا بباقي الفنون المجاورة ولا حتى بالمجتمع الذي تزعم الانتماء إليه. فتبدو وكأنها وصلتنا على متن طائرة آتية من بلاد بعيدة، وستمكث في الفندق بعيداً عن بيوتنا، ولن نعرف متى غادرت أو ستغادر لأننا لن نفتقدها كثيراً.

المعرض النموذجي

يطيب لبعض المثقفين، وخاصة الذين هم على تماس مع «الفنون التشكيلية»، الحديث موسمياً عن نشاط الحركة أو ركودها، وفقاً لعدد المعارض المقامة هنا أو هناك. ولكن ما حقيقة هذه الحركة؟

لو تركنا جانباً بعض الحالات الاستثنائية، لأمكننا رسم صورة (كذا) المعرض الفني الذي يقام في إطار هذا الموسم أو ذاك في مدينتنا العربية.

يتألف هذا المعرض من افتتاح يحضره نحو مئة شخص، نصفهم من معارف الفنان، ونِصفهم من معارف الصالة. أَما في الأيام التالية فتبدو قاعة المعرض خاوية إلا من «واحد أتى قبل الظهر، وثلاثة بعد الظهر..» وبعد عشرة أيام يجمع الفنان اللوحات التي لم تبع، ليأخذها إلى بيته، ويبدأ

بتصفح الجرائد والمجلات بحثاً عن رأي النقاد، فيعثر على مقالة أو مقالتين.. بعضها يتضمن مديحاً متوقعاً لأن كاتبها هو صديق، وبعضها غير مفهوم ولم يعرف الفنان نفسه عما يتحدث الناقد..!

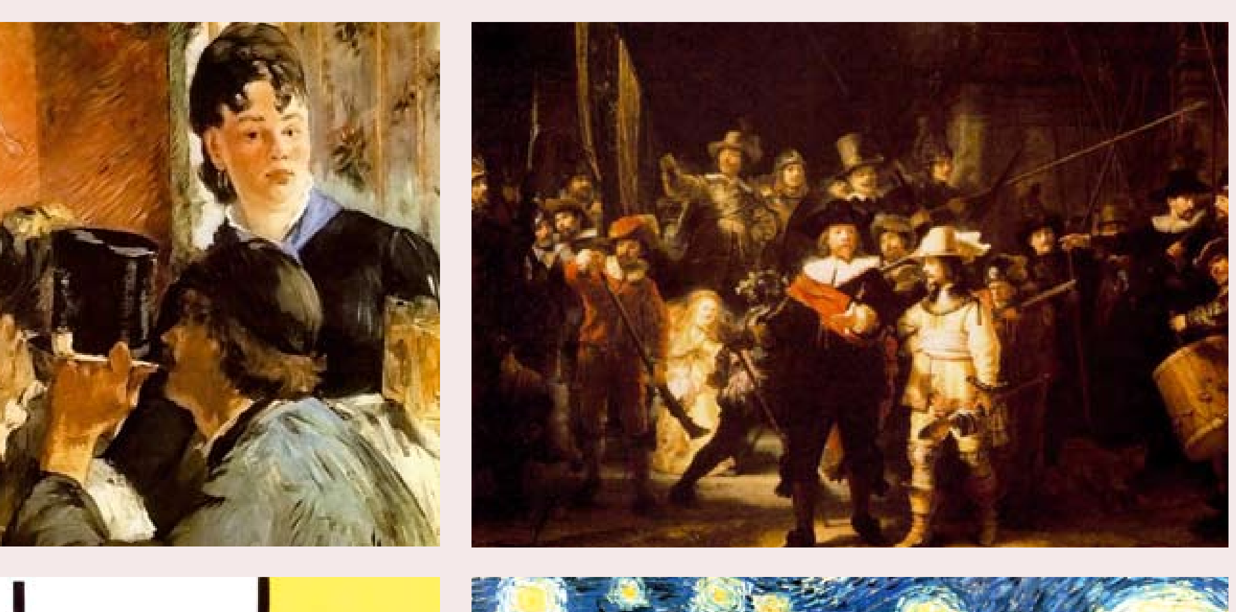
فهل هذه هي وظيفة الفن، أي فن أصيل كان؟ وهل يمكن لأي عمل فني أن يرضى بمثل هذا الحجم المتواضع من تفاعل محيطة معه؟

أسوأ أشكال الهروب من المواجهة

إن أسوأ مشكلات الهروب من مواجهة أزمة اللوحة المعاصرة، هو في إلقاء المسؤولية عن عزلتها وإشاحة الناس بنظرهم عنها على الجمهور الذي «يحتاج إلى تربية فنية» كما يقول بعض المثقفين، من دون الاعتماد على أي أساس في هذا الاقتراح.

فاللوحة شيء يُقرأ بالعين، وإذا لم يكن الجمهور يعاني من ضعف نظر فهو قادر على الرؤية والاستمتاع باللوحة تماماً، وإن كان بعض اللوحات يحتاج فعلاً إلى شرح، فمعظمها لا يحتاج إلى ذلك، فقبل التربية الضرورية للخبرة، المطلوب هو أن تصل اللوحة إلى نفس القارئ وأن تحرك وجدانه، تماماً كما يتحرك أمام أية أغنية أو قصيدة، أو حتى تلك اللوحات «الرخيصة فنياً» التي يعلقها في بيته. وهذه المرحلة الأولية من التفاعل مع المشاهد، هو ما عجزت اللوحة العربية عن تحقيقه بشكل جماعي وعام.

ثم إذا افترضنا جدلاً أن المسألة مسألة تربية فنية، فما الذي يضمن تجاوب الجماهير وتفاعلهم الإيجابي في حال تربيتهم فنياً، مع ما هو معروض أمامهم اليوم؟ ألا تتضمن هذه التربية خطر تحول هذه الجماهير من اللامبالاة إلى





المسار التقليدي البطيء من الرسم إلى التجريد في اللوحة الأوروبية

التطلب ثم العدوانية التي تجرد سوق اللوحة الحالي من بضائع كثيرة هي رائجة اليوم (إعلامياً وتجارياً على الأقل) لأن جماهيرها (أو زبائنها) لا يتمتعون بتربية فنية..؟

الكرة في ملعب الرسام أولاً

يسمح لنا تاريخ اللوحة الأوروبية باستخلاص الملاحظات الأساسية حول ما سمح لها بأن تدخل النسيج الثقافي في بلادها، وأن تحتل المكانة التي تحتلها اليوم. فلكي تخاطب اللوحة وجدان المشاهد وترقى إلى مصاف الأعمال الفنية الأخرى التي تتألف منها ثقافة مجتمع معين يجب أن تتسم بثلاث صفات متكاملة لا يمكنها الاستغناء عن أي منها، وهذه الصفات هي:

البعض يرى الحل في التربية الفنية، متجاهلاً أن التربية قد تحوِّل اللامبالاة الحالية إلى عدائية شرسة

1 - احتواؤها على «خطاب» (بالمعنى الواسع للكلمة) مستمد من قيم المجتمع الذي ينتمي إليه الفنان، أو من اهتماماته وهمومه وتطلعاته ونظرته الجديدة إلى الكون.

2 - الابتكار، وهو ليس بالضرورة ابتكار للموضوع، بل للنمط الشكلي في التعبير عنه.

3 - الإتقان، وهو حسن تنفيذ اللوحة تقنياً وجمالياً.

ولو وضعنا جانباً بعض المتطفلين والمرتزقة من عالم الفن (وهم بالمناسبة ليسوا قليلي العدد)، وتطلعنا إلى الفنانين الحقيقيين، لوجدنا أن هناك فعلاً البعض ممن يجمع في معظم الأحيان هذه العناصر الثلاثة في لوحاته، ولكن هؤلاء يبقون أقل عدداً مما هو مطلوب للحديث عن لوحة عربية معاصرة، أو عن ملء الفراغ الكبير الحاصل.

فأكثرية اللوحات العربية المعاصرة تفتقر إلى واحد، وأحياناً إلى اثنين من هذه العناصر الثلاثة التي يجب أن تحملها. ولعل المشكلة الأكثر شيوعاً هي في انتقاء الخطاب. فعلى سبيل المثال، عندما عرض كازيمير ماليفيتش لوحته الرائدة في التجريد الهندسي «مربع أبيض على خلفية بيضاء» عام 1914م، كان يتوجه بخطاب محدد حول علم الجمال إلى جمهور متسائل حول الشأن نفسه، بعد سلسلة من الأسئلة التي بدأت في عصر النهضة ووجدت أجوبة متتالية في الكلاسيكية ثم النيوكلاسيكية ثم الرومنطيقية ثم الانطباعية ثم التكعيبية... وعندما يتبنى رسام عربي مذهب ماليفيتش في الرسم التجريدي فهو يفترض (خطأ بالطبع) أن جمهوره يسأل السؤال نفسه، وقد حظي بالأجوبة السابقة التي حظي بها الأوروبي.. ولهذا فإن «الحداثة» العربية في الفن هي في الواقع اسم مُضَلِّل لواقع «الغربة».. ليس صعباً على الرسام العربي أن يعثر على خطاب. يكفيه لذلك أن يتطلع إلى الإنسان الذي يتوجه إليه بلوحته، ليستطلع ما الذي يمكن أن يخاطب به وجدانه، واهتماماته وتطلعاته.

وفي أحيان أخرى، ينتقي الفنان خطاباً مباشراً ومثيراً لاهتمام مجتمعه، مثل القضايا الوطنية والإنسانية المؤثرة.. معتقداً أن وضوح الخطاب (كما هو حال معظم اللوحات الوطنية - السياسية) يعفيه من ضرورة الابتكار، والأمر غير صحيح، أو من إتقان التنفيذ جمالياً، فيشيح الجمهور بنظره عنها، لأنه لا يجد في هذه اللوحة ما يعجز النصر المكتوب عن التعبير عنه.

وفي ملعب النقاد أيضاً

منذ ولادة فن اللوحة الأوروبية، كان الناقد يراقبها ويلتصق بها كظلها. وحتى القرن التاسع عشر كان الزبائن هم نقاد اللوحات، فيشترطون على الفنان الألوان التي يجب استعمالها، والمقاييس وأين يجب أن يكون الضوء .. إلخ. ومع ظهور الصحافة وسعي الفنانين إلى الاستقلال عن كبار الزبائن والتوجه إلى المجتمع ككل، ظهر النقاد بالمعنى الذي نعرفه اليوم. ومهمتهم ردم الهوة بين الفنان ولوحته من جهة والجمهور الذي يتوجه إليه هذا الفنان، سواء أكان ذلك من خلال «الاكتفاء بشرح» مضمون العمل الفني من دون التعليق عليه كما فرضت بعض الأيديولوجيات مثل النازية في ألمانيا، أم من خلال التعليق والحكم على نجاح العمل الفني والترويج له، كما هو الحال في المجتمعات الليبرالية، التي كتب لها الانتصار النهائي في هذا المجال.

ولو تطلعنا إلى عالم النقد التشكيلي في البلاد العربية، لوجدنا أنه (بالرغم من وجود استثناءات معدودة تستحق الاحترام)، يتألف من حشد هائل العدد لا يغيب عن أية مجلة ثقافية، ولا حتى عن الصحف اليومية. ولكن حشد النقاد هذا يبدو عديم الفاعلية على صعيد تقريب اللوحة من الجمهور.

فحتى لو أسقطنا من حسابنا «الشللية» حيث يروج الناقد لأعمال صديقه الرسام بشكل يفتقر إلى الصدقية، نجد أن معظم النقد المنشور في الجرائد والمجلات هو إما مجرد وصف بالنص لماهية أعمال هذا الفنان (ولو كان ذلك ممكناً أو ذا قيمة لكان على الفنان أن يكتب لوحته لا أن يرسمها)، وإما كلاماً غير مفهوم يجمع في عالم النقد الفني مفردات من علم النفس والاجتماع والفلسفة في جمل لا قيمة لها ولا معنى ولا تعود إلا إلى رغبة الناقد في الظهور بمظهر المتعمق القادر على رؤية ما لا يستطيع أي كان أن يراه.

فمن المذهل أن يكون النقد الفني الذي يتخذ من وسائل الإعلام ميداناً له، أن يبقى «القطاع الإعلامي» الأقل تأثيراً على جمهوره، خاصةً وأننا في عصر يقر بسطوة الإعلام التي لا مثيل لها في مجالات التوعية والترويج والإقناع والتحريض.

يدافع النقاد عن شحوب حضورهم في وسائل الإعلام بالقول إنهم يتعاملون مع مادة غير شعبية، أي أنهم يحيلون القضية على الرسام الذي يحيلها بدوره على الجمهور الذي لم يتلق تربية فنية.. علماً بأن هذا الجمهور وإن كان على استعداد لأن يتقبل من الفنان والناقد ما يقدمانه إليه من جميل ومفيد، فهو لا يصر عليهما بأي شيء، فهناك سوق كبير يعرض نسخاً للوحات مستوردة ونسخاً، وملصقات، وأشياء كثيرة، قادرة على أن تعبئ الفراغ على جدار غرفة المجلس، كما تعرض عليه محلات الأسطوانات والمكتبات آلاف الأغنيات ودواوين الشعر والروايات لسد الفراغ في ذهنه وإشباع حاجاته النفسية والوجدانية.







الابتكار والإتقان شرطان لا بد من توافرهما لنجاح اللوحة ذات الخطاب

ناقد موسوعي ذو منهج فريد
عبد الوهاب المسيري





عرف العرب الدكتور عبدالوهاب المسيري الذي توفاه الله خلال شهر يوليو من هذا العام، من خلال موسوعته الشهيرة عن الصهيونية أكثر من أي مؤلَّف آخر من مؤلفاته. وعلى الرغم من أن المديح الذي كيل لهذه الموسوعة هو مديح مستحق، وعلى الرغم من أن إعدادها استهلك القسم الأكبر من جهود المسيري وسنوات عمره، فإن عطاءات هذا المفكر هي على درجة من التنوع تدفع بالجميع إلى اعتباره ناقداً موسوعياً بالمعنى الدقيق للكلمة.

أحمد أمل * يحدِّثنا عن عطاءات المسيري ورحلته الفكرية من خلال عرض فصول هذه الرحلة ومنهج المفكر الراحل في الدراسة والبحث.

---

* باحث في العلوم السياسية

لعل الكثيرين من القرّاء العرب لا يعرفون الدكتور المسيري إلا باعتباره مؤلف موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، وهو العمل الأبرز في المكتبة العربية بين جميع الدراسات التي تدور حول موضوع التأصيل النظري للظاهرة الصهيونية.

وبالرغم من أن عملاً بضخامة هذه الموسوعة وشمولها ودقتها يضمن لمؤلفه مكانة رفيعة بين الباحثين في مجال العلوم الاجتماعية، إلا أن إسهامات المفكر الراحل فاقت هذه الموسوعة بكثير سواء تلك التي كتبها في تحليل الظاهرة ذاتها، أو التي ألفها متناولاً فيها موضوعات أخرى من بين الموضوعات والمجالات العديدة التي ألمَّ بها وأحسن الكتابة فيها.

يمكن أن نقسِّم كتابات عبد الوهاب المسيري إلى ثلاثة مجالات رئيسة. وتُعد مؤلفاته في موضوع الصهيونية أشهرها وأكثرها. بدأ المسيري الكتابة في هذا المجال في عام 1972م بكتاب «نهاية التاريخ: مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيوني»، واستمر في تحليل الظاهرة الصهيونية بكل أبعادها في أكثر من ثلاثين مؤلفاً، نشرت ما بين أعوام 1972 و2006م، يحمل ثلاثة منها لقب «موسوعة». فبجانب موسوعته الأشهر «اليهود واليهودية والصهيونية» بنسختيها الكاملة والموجزة، قام بتأليف كل من «موسوعة تاريخ الصهيونية» و«موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية». وكان آخر ما كتبه في هذا المجال هو كتاب «الصهيونية وخيوط العنكبوت» الصادر عام 2006م، والذي يتناول موضوع تفكك إسرائيل من الداخل.

أما ثاني المجالات التي اهتم بها المسيري فكان ترجمة الشعر الإنجليزي والدراسات النقدية المتعلقة به. فكتب في هذا المجال، وهو مجال تخصصه الأكاديمي، في مرحلتين متباعدتين من مسيرته. فكانت البداية مع كتاب «مختارات من الشعر الرومانتيكي الإنجليزي» الذي صدر عام 1979م، ويضم ترجمة لعدد من أهم قصائد الشعر الرومانتيكي مع تعليق نقدي على كل قصيدة. أما ثاني أعماله في هذا المجال فكانت ترجمته لمسرحية «افتتاحيات الهادئ» لستيفن سوندايم عام 1988م، بالإضافة إلى كتابته مقدمة لهذه المسرحية تناول فيها أوضاع اليابان أثناء مرورها بعملية التحديث. وانقطع المسيري بعد هذه الترجمة عن هذا المجال لأربعة عشر عاماً، إلى أن نشر كتاب «فلسطينية كانت ولم تزل» الذي يضم عدداً من قصائد المقاومة. ثم كان آخر كتبه المنشورة في حياته كتاب «دراسات في الشعر: القراءة النقدية المتمعنة».

كانت الحضارة الغربية والنموذج المعرفي الذي تعكسه، ثالث المجالات التي تناولتها مؤلفات المسيري. فقد تعرض



في مجموعة من أعماله لمناقشة أبعاد الحضارة الغربية وخصائصها في مرحلة تطورها المعاصرة، محللاً الدور الكبير لنظريات الحداثة باعتبارها التفسير النظري لكيفية وصول هذه الحضارة لما هي عليه الآن من أبعاد إيجابية وسلبية. وقد توسع المسيري في دراسته لهذا الموضوع ليتناول انعكاس تبني منظومة الأفكار الحداثية في حالات أخرى غير غربية مع الاهتمام الخاص بالحالات العربية. ويعد عمله الأبرز في هذا المجال كتاب «العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة» بجزئيه الصادرين عن دار الشروق عام 2002م، الذي تناول فيه تحليلاً شاملاً لمفهوم العلمانية بكافة أبعاده النظرية والتطبيقية.

وبالرغم من أن غزارة إنتاج الدكتور عبد الوهاب المسيري، أحد الملامح المهمة التي تقدِّمه كرائد في الفكر العربي المعاصر، إلا أن الأساس الذي تقف عليه هذه الريادة، هو طبيعة المنهج الذي تبناه في بحثه وتناوله لموضوعات كتبه ودراساته. هذا المنهج هو الذي جعل مشروعه الفكري والمعرفي يصل إلى ما حققه من إثراء المكتبة العربية بمؤلفات رفيعة المستوى، والتأسيس لنظريات ورؤى جديدة في العلوم الاجتماعية.

منهجه في تناول الظاهرة الصهيونية

من أكثر المشكلات التي تواجه الباحثين في العلوم الاجتماعية -والتي تزداد آثارها بالاقتراب من فرع العلوم السياسية- هو الاحتمال أن يكون للباحث موقف مسبق من موضوع الدراسة، وهو ما يجعله يواجه خطورة الوقوع في خطأ التحيز ومحاولة إثبات افتراضات يؤمن بها. وحينما يفطن الباحث لإمكانية وقوع مثل هذا التحيز قد يكون أحد الحلول المتاحة أمامه هو عدم التعمق في تحليل الظاهرة خوفاً من ظهور نتائج «غير مرغوب فيها» تتناقض مع ما



يؤمن به. وفي تناوله لموضوع الصهيونية، برزت قدرة المسيري الفذة على تبني منهج علمي لا يقع في خطأ التحيز، ولا يترك أية أسئلة دون إجابات كافية واضحة، وهو ما وصفه الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل في تقديمه لكتاب عبد الوهاب المسيري «الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ» عندما ذكر: «وهنا يجيء دور رجال من نوع الدكتور عبد الوهاب المسيري يملكون حكمة تجاوز اللحظة، وجسارة البحث عن الحقيقة، وشجاعة الاقتراب من آفاقها، والمشي بالفعل على تخومها وتضاريسها».

وحتى في الأوقات الحرجة التي تتوالى فيها أحداث ومستجدات قد تجعل من العسير على الباحث الاحتفاظ بحياده والتزامه بالمنهج العلمي، أكد المسيري ضرورة الحفاظ على هذا الحياد وهذا المنهج. ففي كتابه «الصهيونية والعنف» الذي صدرت طبعته الأولى بعد مرور أقل من عام على اندلاع انتفاضة الأقصى، انتقد المسيري الدراسات العربية العديدة التي تناولت جرائم الإرهاب والعنصرية الصهيونية ضد الفلسطينيين والعرب باعتبارها تميل إلى السرد التاريخي ولا تتناول أسباب هذه الجرائم ولا أنماطها، وهو ما يؤدي إلى إغفال دراسة النموذج الكامن وراء الأحداث واتجاه حركة التاريخ.

وفي كتابه «في الخطاب والمصطلح الصهيوني» أشار المسيري إلى أهم ملامح منهجه، وهو تبنيه لأسلوب الخطاب التحليلي التفسيري، الذي يختلف عن كل أنواع الخطاب الأخرى. وقد تبنى المسيري الخطاب التحليلي التفسيري، لأنه رأى فيه الأداة الصحيحة لتناول الظاهرة الصهيونية، بطريقة تؤدي إلى تعميق رؤيتنا للعدو حتى نعرفه في كل تركيبته، وبالتالي، تزداد قدرتنا على تفسير الظواهر اليهودية والصهيونية وتوقعها، ومن ثم مقدرتنا على التصدي للعدو. فهو الخطاب الذي يجعلنا قادرين على إدراك الوقائع لا كحقائق متناثرة لا يربطها رابط، وإنما ككل متكامل.

وتقوم التفسيرية التي ينطلق منها هذا الخطاب، على إيمانه بقدرة العقل البشري الإبداعية. فهو ليس سلبياً ولا متلقياً بل له قدرة توليدية كبيرة. كما أن الواقع ليس بسيطاً ولا جامداً. لهذا يرى المسيري أن الأرقام والإحصاءات ليست نهائية، وأن آراء الآخرين وأفكارهم عن أنفسهم هي مجرد مواد خام لا محددات نهائية للسلوك، يتعامل معها الفاعل الإنساني الذي لا يستجيب مباشرة للمثير وإنما يستجيب له كما يتصوره هو نفسه.

وإلى جانب قدرته على تبني منهج يضمن الحياد وعمق التحليل، ظهرت واحدة من أهم مميزات عبد الوهاب المسيري في دراساته المرتبطة بموضوع الصهيونية، وهي القدرة على الجمع بين جانبي النظرية والواقع. فهو في معظم هذه الدراسات لا يكف عن تأسيس بنائه النظري القائم على تحليل المصطلحات والأفكار والنماذج، وربطها في الوقت نفسه بالوقائع والأحداث الجارية داخل إسرائيل

وفي علاقاتها بفلسطين والعرب والعالم. وهو ما يعكس تجاوز اهتمام المسيري للنصوص التاريخية والدينية والأفكار المجردة – التي يجيد التعامل معها كأكاديمي– إلى الاهتمام بمتابعة أدق المستجدات في الحالة موضع اهتمامه. وهو ما أكده في أحد لقاءاته التلفزيونية، إذ أكد على قيامه بمثل هذه المتابعة بالطريقة الصعبة من خلال القراءة اليومية للصحف الاسرائيلية ، بدلاً من الاكتفاء بمتابعة ما تنقله الصحف العربية والعالمية عنها من أخبار وتقارير، قد تغفل بعض التفاصيل والوقائع التي قد تمثل له أدلة ثابتة على واحدة من نظرياته.

الموضوعات التي شغلته أكثر من غيرها: اليهودية والصهيونية، الحضارة الغربية، والشعر الإنجليزي

وتبرز هذه القدرة على الربط بين النظرية والواقع في كتابه «من هو اليهودي؟» الذي يتناول قضية تعدد الهويات داخل إسرائيل وغياب الأصل الواحد لليهود الذي تقوم عليه الفكرة الصهيونية. ويقوم الكتاب على تتبع تاريخ الجماعات اليهودية منذ نشأتها قبل الميلاد، وصولاً إلى تاريخ الجماعات اليهودية في أوروبا الحديثة باستخدام منهج تاريخي دقيق. وبالرغم من العمق النظري للدراسة، إلا أن السطور الأولى للكتاب انطلقت من الآتي: «أوردت وكالات الأنباء الخبرين التاليين في شهر إبريل 1997م:

1 – تتوقع السلطات الإسرائيلية أن تشهد مدينة القدس اضطرابات وعمليات إلقاء حجارة في أحد الشوارع الرئيسة بحي «مياشعاريم» الذي يعيش فيه اليهود الأرثوذوكس.

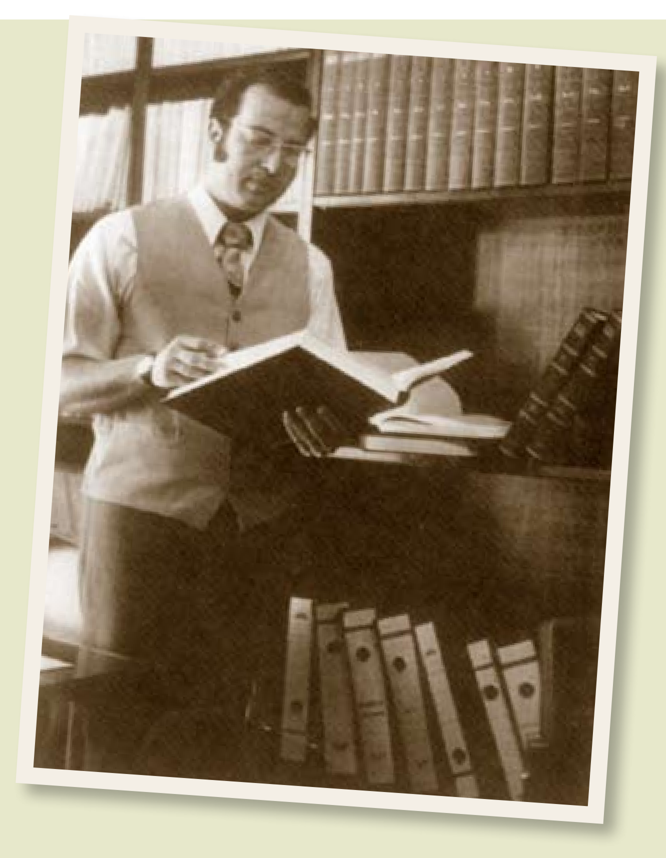
2 – أكدت الإذاعة الإسرائيلية أن جندياً يهودياً إثيوبياً تابعاً لإحدى الوحدات الخاصة في الجيش الإسرائيلي قد طُرد من عيادة من قبل ضابط أدلى بعبارات عنصرية». فهذا النوع من الأخبار أثار لديه الإحساس بضرورة إعداد دراسة تتناول قضية الهوية في إسرائيل التي يشار إليها في الإعلام الإسرائيلي والغربي بعبارة «من هو اليهودي»، والتي يرى أنها ليست مجرد توسع في الدراسة الأكاديمية بل أساساً للفعل السياسي فيما بعد.

منهجه في تناول الحضارة الغربية

في مؤلفاته التي تناول فيها موضوع الحضارة الغربية، تتسم رؤية عبد الوهاب المسيري بقدر كبير من الموضوعية والإنصاف. فهو من ناحية لا ينكر فضل الحضارة الغربية وإسهامها الكبير في عملية التقدم الإنساني، ومن ناحية أخرى يجتهد في إبراز نقاط الضعف والقصور التي سادت النموذج المعرفي الذي تبشر به من خلال ما أثبته واقع هذه الحضارة. ففي كتابه «العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة»، أكد المسيري على وجوب الاعتراف بالقيمة الإنسانية لإبداعات الإنسان الغربي لأنها بتعبيره «إبداعات مهمة وإسهامات حقيقية للتراث الإنساني معروفة لدى الجميع»، لكنه في الوقت نفسه ينتقد رؤية هذا النموذج المعرفي للتاريخ الإنساني باعتبار أنها «نقطة القصور الرئيسة» به. إذ يتصور النموذج المعرفي الغربي، في تحليله للإنجازات الحضارية غير الغربية، أن قيمتها الوحيدة تكمن فيما نجحت في تقديمه للحضارة الغربية التي تمثِّل ذروة التطور الانساني.

ولعل هذه الرؤية الشاملة لعملية التقدم الإنساني هي ما دفعته إلى الاهتمام بالنماذج الحضارية المختلفة، لمحاولة كسر التصور الذي وضعه النموذج الغربي وراج كثيراً بين عدد من المفكرين غير الغربيين المتبنين لنموذج الحداثة. وقد استغل دراسته الأدبية في عرض رؤيته، ففي عام 1989م قام بالاشتراك مع يسري حلمي بترجمة مسرحية «افتتاحيات الهادئ Pacific Overture» التي ألَّفها ستيفن سوندايم وجون ويدمان وتتناول المقارنة بين وضع اليابان القديمة أثناء حكم الإقطاع العسكري، واليابان الحديثة. وفي مقدمة كتاب «الغرب والعالم» لكافين رايلي الذي قام بترجمته بالاشتراك مع زوجته الدكتورة هدى حجازي، عاد المسيري ليشير إلى النموذج





الياباني باعتباره نموذجاً لدولة لها تراث حضاري نجحت في الدخول للعصر الحديث وتحقيق معدلات تنمية أذهلت الغربيين أنفسهم، من دون أن تطرح تراثها أو هويتها الخاصة جانباً.

مؤلفاته التي تتناول الحضارة الغربية تتسم بالكثير من الموضوعية والانطلاق، فيقر بما لها، وينتقد ما عليها

وعلى الجانب الآخر اتجه عبد الوهاب المسيري لتحليل المشكلة بصورتها الشائعة بين المفكرين العرب، والتي تتمثل في استيراد معجم الكتابات الفكرية العربية من الغرب، وهو ما أسفر عن دخول مفاهيم ومصطلحات ذات طبيعة متحيزة على الحركة الفكرية العربية. وقد تعرض لهذه المشكلة في عدد من مؤلفاته كان أهمها «اللغة والمجاز بين التوحيد ووحدة الوجود». حيث تناول فصله الرابع مشكلة استيراد المصطلحات الغربية. ولعل المثال الأشهر على ذلك هو تقسيم التاريخ العالمي لمرحلة العصور الوسطى والتي يطلق عليها الغرب أيضاً عصور الظلام، والتي جاء بعدها عصور النهضة والتنوير. ويسأل المسيري عن كيفية وصف هذه العصور بالمظلمة بالنسبة للحضارة العربية الإسلامية، التي تتابع عليها في هذه الفترة حكم الخلفاء الراشدين ثم الدولتين الأموية والعباسية وهي الدول التي حققت قدراً عظيماً من المنجزات الحضارية. وكذلك هو الحال في واحدة من أعظم الحضارات الشرقية في الصين، والتي بلغت قمة ازدهارها في نفس العصر الذي عاشت فيه أوروبا ذلك الظلام.

ويلفت المسيري الانتباه إلى بُعد آخر متعلِّق بمشكلة استيراد المفاهيم والمصطلحات، ويتمثل في إغفالنا لمصطلحات عربية دقيقة لتحل محلها تلك المفاهيم المستوردة التي لا جذور لها في بنائنا المعرفي. ومن الأمثلة على ذلك دروج المؤلفات التاريخية العربية الحديثة على الحديث عن «الحروب الصليبية»، وهو ما يخالف الاسم الذي أطلقه عليها المؤرخون العرب المعاصرون لها وهو «حروب الفرنجة» الذي يأتي إشارة «للفرانك» أو الفرنسيين الذين شكلوا النسبة الأكبر من جيش الغزاة. أما وصف «الصليبية» فهو ما حاول قادة ممالك أوروبا الترويج له ليسهل عليهم حشد أكبر عدد من الجنود والأموال بإضفاء القداسة على حربهم غير المشروعة. ومن أثر تطبيقات هذا الاستيراد خطورة ما يتعلق باستيراد المفاهيم المتعلقة بإسرائيل والصهيونية وتعريبها لتكتب كما هي بحروف عربية.

بين النظري المجرد والواقع المعاش يومياً

على الرغم من قدرته الكبيرة على التعامل مع المفاهيم والأفكار في صورتها المجردة، إلا أن البعد الإنساني طالما ظهر بوضوح في كتابات المسيري. ويتضح ذلك من خلال حرصه الدائم على ربط نظرياته بانعكاساتها على الواقع الإنساني مع الاهتمام الشديد بكل ما يمس الحياة اليومية والخاصة للأفراد. ففي كتابه «دراسات معرفية في الحداثة الغربية»، يطرح رؤيته الفكرية، ممتزجة مع اهتمامه بمستقبل الحضارة الإنسانية ورغبته في وقف الإنجراف نحو تيارات الحداثة المنفصلة عن القيمة. وكان الطعام أحد أهم الأمثلة التي استشهد بها في تأييد وجهة نظره. حيث رأى أن انتشار أشكال الطعام الفورية جاء ليكسر عدداً من مظاهر الترابط والتراحم بين أفراد الأسرة. فهذا الطعام الفوري يتم إعداده في دقائق ثم يقوم أفراد الأسرة «بقذفه» في أفواههم وهم متراصون جنباً إلى جنب أمام التلفزيون لا ملتفين حول المائدة، فهم لا يتحدثون سوياً، ولا يأكلون من الأطباق نفسها. وفي الكتاب نفسه قام برصد ظاهرة الانفصال عن القيمة في الثقافة المصرية من خلال تحليل واحدة من مظاهر الثقافة الشعبية المصرية ذات الانتشار الجماهيري الواسع وهي الأعمال الدرامية السينمائية والتلفزيونية. فنجده يرصد هذه الظاهرة من خلال تناوله لفلم «خلي بالك من زوزو» والمسلسل التلفزيوني «مغامرات عماشة» وما ورد بهما من مؤشرات على التحول الذي شهدته الثقافة الشعبية في مصر في السبعينيات، وأخذ يحلل أدق تفاصيل هذه الأعمال الدرامية في حوالي عشرين صفحة ليربطها بما تقدم في الكتاب من تحليل لنظريات فلسفية شديدة التجريد.

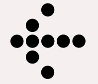
وبالرغم من صعوبة المهمة التي كَلّف بها الدكتور عبدالوهاب المسيري نفسه، إلا أن إنجازه لهذا المشروع المعرفي على هذا الوجه لا يفسره سوى ما رآه هو من ضرورة توضيح الحقيقة فيما يتعلق بالعدو وبالخطر وباحتمالات الهزيمة والانتصار، أو بموقف أمته من الحضارة الغربية التي فرضت سيطرتها بشكل كبير كنموذج أوحد على الكل التسليم به واتباعه. وهي الحقائق التي رأى أهمية توضيحها ليس في وقتنا الحاضر فحسب، ولكن لأجيال قادمة سوف تتولى مسؤولية عظيمة، سواء في دفاعها عن قضيتها أو عن إرثها الحضاري. يقول المسيري في مقدمة كتابه «الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ» إن أهمية دراسته تكمن في «دعوة الأجيال الشابة لألاَّ تلحق بأحد، وألا تسير في ركاب أحد، وألا تهرول نحو أحد، وأن تنفض عن نفسها غبار الهزيمة ووهم الموضوعية المتلقية المنكسرة وأن ترفع لواء النصر والموضوعية الاجتهادية». وهي المهمة الثقيلة التي لا يتصدى لها إلا رجال مثل الدكتور عبدالوهاب المسيري، يرحمه الله.



المسيري في سطور

- وُلد في دمنهور 1938م وتلقى فيها تعليمه الابتدائي والثانوي. التحق عام 1955م بقسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب جامعة الأسكندرية وعُين معيداً فيها عند تخرجه، ثم سافر إلى الولايات المتحدة عام 1963م.
- حصل على درجة الماجستير في الأدب الإنجليزي والمقارن عام 1964م من جامعة كولومبيا، ثم على درجة الدكتوراة في الأدب الإنجليزي والأمريكي عام 1969م من جامعة رتجرز، بالولايات المتحدة الأمريكية.
- عند عودته إلى مصر عمل أستاذاً للأدب الإنجليزي في جامعة عين شمس، ثم في جامعة الملك سعود، وجامعة الكويت. كما عمل أستاذاً زائراً في جامعة ماليزيا الإسلامية في كوالالمبور وفي أكاديمية ناصر العسكرية.
- على مدار رحلته شغل عدداً من المناصب المهمة. فكان عضو مجلس الخبراء بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام (1970 - 1975م)، ومستشاراً ثقافياً للوفد الدائم لجامعة الدول العربية لدى هيئة الأمم المتحدة بنيويورك (1975 - 1979م). وكان حتى وفاته عضو مجلس الأمناء لجامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية بليسبرج، بولاية فرجينيا بالولايات المتحدة الأمريكية، والمستشار الأكاديمي للمعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن، ومستشار التحرير في عدد من الحوليات التي تصدر في مصر وماليزيا وإيران والولايات المتحدة وإنجلترا وفرنسا.
- بدأ رحلته في الكتابة عام 1972م بصدور كتابه «نهاية التاريخ: مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيوني»، ليمتد بعدها مشروعه الفكري المتميز، الذي تتوجه «موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية». وقد قدَّم الدكتور المسيري سيرته الفكرية في كتاب بعنوان «رحلتي الفكرية: في البذور والجذور والثمر.. سيرة غير ذاتية غير موضوعية» (2001م).
- نال الدكتور المسيرى عدداً من الجوائز من بينها جائزة أحسن كتاب في معرض القاهرة الدولي للكتاب عام (2000م) عن موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ثم عام (2001م) عن كتاب رحلتي الفكرية، وجائزة العويس عام (2002م) عن مجمل إنتاجه الفكري. كما حصل على جائزة الدولة التقديرية في الآداب لعام (2005م). وكان آخر ما تلقاه من جوائز جائزة القدس من الاتحاد العام للكتاب والأدباء العرب (2008م).
- صدرت عدة دراسات حول أعماله من أهمها «فى عالم عبدالوهاب المسيرى» (2004م) وهوكتاب حواري من جزءين، اشترك فيه عدة مفكرين من بينهم: الأستاذ محمد حسنين هيكل، محمود أمين العالم، محمد سيد أحمد، جلال أمين. وكتاب تكريمي بعنوان الأستاذ الدكتور عبدالوهاب المسيرى في عيون أصدقائه ونقاده، ضمن سلسلة «علماء مكرمون» لدار الفكر بسوريا يضم أعمال مؤتمر «المسيرى: الرؤية والمنهج» الذي عُقد في المجلس الأعلى للثقافة في فبراير 2007م. كما ظهر عدد خاص من مجلة أوراق فلسفية (2008م) يضم دراسات لعدد من العلماء والباحثين العرب في الجوانب المتعددة للدكتور عبد الوهاب المسيرى. وسيصدر هذا العام كتاب من تحرير الأستاذة سوزان حرفي الإعلامية المصرية، تحت عنوان حوارات مع الدكتور عبدالوهاب المسيرى، وهو يغطي كل الموضوعات التي تناولها الدكتور المسيرى في كتاباته ابتداءً من رؤيته في المجاز ونهاية التاريخ وانتهاءً بأفكاره عن الصهيونية.

أبيات مغناة لا تُنسى



على الرغم من كل ما يقال أن رديء الشعر المغنَّى غلب جيده في عصرنا هذا، فإننا نصادف بين حين وآخر أغنية بشعر فصيح يهز مشاعرنا، ولا يقل أهمية عن عيون الشعر التي تحتفظ بها دواوين الكبار. والشاعر هنا ليس فقط هو البطل، بل هو أول ثلاثي ناجح يضم إليه الملحن والمغني. وهؤلاء الثلاثة هم الذين يجعلون قصائد دون غيرها أو أبيات محدَّدة دون غيرها، قريبة من وجداننا، وحيَّة في ذاكرتنا، نطرِّز بها أحاديثنا. الكاتب السوداني محمد إبراهيم يصحبنا في جولة على قصائد مغناة بعضها قديم وبعضها الآخر حديث، ويعرض لنا ما يراه مميزاً بشكل استثنائي من وجهة نظره ومزاجه الشخصي، فحفظه واستمتع به.

بين أعمال أم كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم حافظ وفيروز ووديع الصافي أغان كثيرة اعتمدت في كلماتها على الشعر الفصيح، قديمه وحديثه.. وقد يطول الحديث عن كل منهم وما قدم من غناء، إلا في حال اقتصارنا على أغان تميزت بتفردها وجمال مفرداتها عن بقية أعمالهم، وهذا يعود في المقام الأول إلى الذوق الشخصي لا إلى الحكم النقدي الصارم. فعلى سبيل المثال، من بين أغاني أم كلثوم الفصيحة جميعها، تروق لنا أغنية «أغداً ألقاك؟» بسؤالها الحائر الملهوف المتردد من كلمات الشاعر السوداني الهادي آدم وتلحين محمد عبدالوهاب، وتصل ذروتها حينما تعلنها صريحة فتقول:

أنا لولا أنت.. لم أحفل بمن راح وجاء.
أنا أحيا في غدي الآن بأحلام اللقاء،
فأت أو لا تأتي.. أو فافعل بقلبي ما تشاء..
هكذا أحتمل العمر، نعيماً.. وعذابا،
مهجةً حرّى وقلباً، مسّه الشوق.. فذابا.

أما عبدالحليم حافظ، فبالإضافة إلى ما غنّاه من قصائد للشاعر الجميل نزار قباني، يغني أغنية جميلة للشاعر المصري كامل الشنّاوي وألحان محمد عبدالوهاب بعنوان «لا تكذبي» ويقول مطلعها:

لا تكذبي.
إني رأيتكما معاً.
ودعي البكاء.. فقد كرهت الأدمعا.
ما أهون الدمع الجسور إذا جرى
من عينٍ كاذبة فأنكر وادعى.

أما فيروز، فتتألق في غناء الموشح الأندلسي حيث تقول:

يا غصن نقا مكللاً بالذهب
أفديك من الردى بأمي وأبي
إن كنت أسأتُ في هواكم أدبي
فالعصمة لا تكون إلا لنبي

وعلى يد المطرب والملحن وديع الصافي نتفاجأ بشاعرية صاحب برنامج «العلم والإيمان» المفكر المصري مصطفى محمود في أغنية من أجمل أغانيه وأكثرها رقة وشاعرية.. حيث يقول:

الليل يا ليلى يعاتبني
ويقول لي: سلّم على ليلى
الليل لا تحلو نسائمه
إلا إذا غنّى الهوى ليلى
إلى أن يقول:
رجعت ألم أحلامي
وأحيا بين أنغامي
وغاب ربيع أيامي..
وليلى لم تزل ليلى

وننتقل من زمن الفن الجميل لنطل على فن جميل آخر ولكن من الخليج هذه المرة، حيث نسمع موالاً جميلاً حزيناً بالفصحى يغنيه المطرب السعودي علي عبدالكريم، ويقال إنه من كلمات الشاعر السوداني إدريس جمّاع، بينما يؤكد آخرون أنه من كلمات الشاعر المصري عبدالحميد الديب. ورغم تداخل تفاصيل الصورة التي تبنيها الأبيات إلا أن بلاغتها تُستمد من وضوح تفاصيلها في مخيلة من يسمعها لأول مرة. يقول الموال:

إن حظي كدقيق فوق شوك نثروه
ثم قالوا لحفاة يوم ريح: اجمعوه
صعب الأمر عليهم ثم قالوا: اتركوه
إن من أشقاه ربي كيف أنتم تسعدوه؟

ومن الخليج أيضاً وهذه المرة من قطر، يأتي المطرب علي عبدالستار ليلحن أبياتاً جميلة للإمام الشافعي، ويسهم اللحن المتسارع في إيقاعه بخفة مع الكلمات لتأكيد معنى التسليم بالقضاء والقدر والإيمان بالله..

دع الأيامَ تفعل ما تشاء
وطب نفساً إذا حكم القضاء
ولا تجزع لحادثة الليالي
فما لحوادث الدنيا بقاء

ومن اليمن يغني المطرب الجميل محمد مرشد ناجي على إيقاع آلة العود أبياتاً رقيقة عامرة بالوجد والعاطفة قالها يزيد بن معاوية:

على شاطئ الوادي نظرت حمامةً
أطالت عليَّ حسرتي وتندمي
أغار عليها من أبيها وأمها
ومن لجة المسواك إن دار في الفم

أما كاظم الساهر الذي أمد المكتبة الغنائية العربية بكثير من القصائد المغناة التي يعود أغلبها إلى الشاعر نزار قباني، فيتحفنا بقصيدة خفيفة في بنائها، ثقيلة في دلالتها، فيقول كريم العراقي على لسان الساهر وألحانه:

كثر الحديث عن التي تهواها.
كثر الحديث.. من التي تهواها؟
شقراء أم سمراء؟ عيناك أحلى أنتِ أم عيناها؟
إلى أن يقول:
عيناها بيتي وسريري
ووسادة رأسي أضلعها...
ضميني يا أحلى امرأة
لو صمتت قلبي يسمعها
بغداد.. بغداد..
وهل خلق الله مثلك في الدنيا أجمعها؟

وأخيراً نختم بمفاجأة سمعناها في مقدمة أحد المسلسلات.. حيث يقدم مسلسل «التغريبة الفلسطينية» أغنية استثنائية في جمالها وتميزها وقوتها وتحكي عن الشهيد الفلسطيني. لا عجب في ذلك، فوراء كلماتها الشاعر الفلسطيني الكبير إبراهيم طوقان. تقول الكلمات:

لا تسل عن سلامته.
روحه، فوق راحته.
بدلته همومه..
كفناً، من وسادته.
إلى أن يقول:
صامتٌ لو تكلما
لفظ النار والدما.
قل لمن عاب صمته:
خُلق الحزم أبكما.

وهذه الاختيارات استمدت قوتها من بقائها في ذاكرتنا رغم مرور السنوات، علماً بأننا لم نسمع بعضها منذ مدة طويلة.. ولكل منا أغانيه وقصائده الخاصة التي لو فتحنا كراساتها سنجدها مليئة باختلاف مدهش وغنى متنوع..



لا يمكن اختزال شاعر كبير مثل محمود درويش في مقالة ولا في عشر مقالات.. واختيار أجمل ما كتبه الشاعر الراحل في مثل هذه المساحة المحدودة يشكِّل مجازفة صعبة تقارب حدود الاستحالة، فكانت هذه المختارات التي انتقاها الشاعر شوقي بزيغ مجرد تحية إلى محمود درويش الذي غادرنا إلى دار البقاء.

بأبيات من شعره نحييه..

مختارات من أجمل أشعار محمود درويش

تكمن ميزة محمود درويش في ذلك الحلف الوثيق الذي عقده مع الجمال والشفافية والقدرة على قطف جوهر المعنى. إنه لاعب النرد الذي يرفع المصادفة إلى رتبة الإرادة. بحيث يندر أن تخلو قصائده من صور مدهشة أو جمال مباغت.

واذا كنت عزمت على قبول المجازفة في اختيار أجمل ما قاله درويش، فليس لأن ما سأختاره من شعره هو الأجمل بالقطع، بل لأنه مجرد عينة منتقاة من هذا الأوقيانوس الشاسع الذي لا تنضب مفاجآته. وقد آثرت أن تكون هذه الاختيارات الرمزية قادرة على الجمع بين الجمال والكثافة وأن يكون بعضها جارياً على ألسنة الناس كالمثل السائر، بما يشبه ما أطلق عليه العرب تسمية بيت القصيد، آخذاً بعين الاعتبار أن تكون الأبيات والمقاطع موزعة بين مجموعات درويش ومحطات شعره المتعددة.

إنا نحب الورد لكنا نحب الخبز أكثر
ونحب عطر الورد لكن السنابل منه أطهر

***

أحن الى خبز أمي
وقهوة أمي... ولمسة أمي
وتكبر فيَّ الطفولة يوماً على صدر يوم
وأعشق عمري لأني
إذا مت أخجل من دمع أمي

***

نحن في حلٍّ من التذكار
فالكرمل فينا
وعلى أهدابنا عشب الجليل

***

آه يا جرحي المكابر
وطني ليس حقيبة
وأنا لست مسافر
إنني العاشق... والأرض حبيبه

***

عيونكِ شوكة في القلب
توجعني وأعبدها
وأحميها من الريحِ
وأغمدها وراء الليل والأوجاع... أغمدها
فيشعل جرحها ضوء المصابيحِ
ويجعل حاضري غدها
أعزَّ عليَّ من روحي

***

كان لا بد من الاعداء
كي نعرف أنَّا توأمانْ
كان لا بد من الريح
لكي نسكن جذع السنديانْ

***

نحبُّ الحياة اذا ما استطعنا إليها سبيلا
ونزرع حيث أقمنا نباتاً سريع النموِّ
ونحصد حيث أقمنا فتيلا

***

عندما يذهب الشهداء إلى النوم أصحو
وأحرسهم من هواة الرثاءْ
أقول لهم: تصبحون على وطنٍ من سحابٍ
ومن شجرٍ من سرابٍ وماءْ

***

أكلما نَهَدَتْ سفرجلةٌ نسيت حدود قلبي
والتجأت إلى حصارٍ كي أحدد قامتي
يا أحمد العربي
لم يكذب عليَّ الحب،
لكن كلما جاء المساء امتصَّني جرسٌ بعيد

***

الآن بحرٌ كلُّه بحرٌ،
ومن لا برَّ له
لا بحر له

***

..وأعطينا جداراً واحداً لنصيح في شبه الجزيرة
بيروت خيمتنا الأخيرة
بيروت نجمتنا الاخيرة

***

على هذه الأرض ما يستحقُّ الحياة:
على هذه الأرض سيدة الأرض، أمُّ البدايات،
أمُّ النهايات، كانت تسمى فلسطين،
صارت تسمى فلسطين. سيدتي
أستحقُّ لأنكِ سيدتي، أستحقُّ الحياة

***

الكمنجات تبكي مع الغجر الذاهبين إلى الأندلس
الكمنجات تبكي على العرب الخارجين من الأندلس

***

- ومن يسكن البيت من بعدنا يا أبي؟
- سيبقى على حاله مثلما كان يا ولدي...
- لماذا تركت الحصان وحيداً؟
- لكي يؤنس البيت يا ولدي،
- فالبيوت تموت إذا غاب سكانها...

***

أمرُّ باسمك إذ أخلو إلى نفسي
كما يمرُّ دمَشقيٌّ بأندلسِ
هنا أضاء لك الليمون ملح دمي
وهاهنا وقعت ريحٌ عن الفرَسِ

***

هزمَتك يا موتُ الفنونُ جميعها
هزمَتك يا موتُ الأغاني في بلاد الرافدين،
مسلةُ المصري، مقبرةُ الفراعنة، النقوشُ
على حجارة معبدٍ هزمَتك وانتصرتْ
وأفلَتَ من كمائنك الخلودُ
فاصنعْ بنا، واصنعْ بنفسك ما تريدُ

***

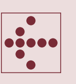
من أنا لأخيِّب ظنَّ العدم؟!



«احتمال وارد» مجموعة قصصية هي الأولى للقاص السعودي الشاب خالد الصامطي.
ولأن القراءة المتأنية لهذه المجموعة التي تتضمَّن خمس عشرة قصة قصيرة، وبعضها قصير جداً، تؤكد موهبة تستحق التوقف أمامها، الأمر الذي لم يحصل بشكل منصف في الإعلام المطبوع، تعرض لنا **فاطمة الجفري** قراءتها لهذا العمل، وتختار لنا اثنتين من قصص المجموعة التي تجعلنا ننتظر الثانية.

«احتمال وارد»

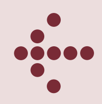
خالد الصامطي يفي بأكثر مما يعد



إن كانت مجموعة خالد الصامطي الجديدة «احتمال وارد» أمامك على رفوف المكتبة، فثق أن عينيك لن تغفل عنها وتتجاوزها لتتصفح غيرها.

ربما كان لهذا علاقة بالغلاف المبتهج بألوانه، المفعم بروح فتية تحذرنا ضمن ما تحذرنا منه على الغلاف، بملصق «قابل للكسر»، إلا أنه تحذير لا يقوم على إيمان حقيقي بأن محتوى الكتاب هش فعلاً ويمكن أن يتعرَّض للكسر بسهولة، بقدر ما هو آتٍ من أن القاص نفسه يبدو وكأنما لا يأخذ تجربته في عالم الكتابة والنشر بجدية المكافح الآمل في مساحة ما وسط الزحام. فهو -كما يبدو من حديث له في أحد منتديات الإنترنت- مقدمٌ عليها بنوع من المزاجية المترفعة التي تأتي وتذهب كما يروق له.

ولكن القارئ لقصص الصامطي يدرك بسهولة أن هذه المزاجية والاستغناء عن مطاردة حلم الانتشار تتوقف بشكل مفاجئ وقاطع أمام حدود ما يكتبه قلمه. نرى الجدية والإحكام، والعمل الدؤوب المتأني في كل قصة من القصص الخمس عشرة التي تحتويها المجموعة، والتي تبدأ بقصص متوسطة الطول تحتل صفحتين أو ثلاث من القطع المتوسط، وتمر بقصص قصيرة جداً لا تتجاوز مساحتها صفحة، وتختم بقصة طويلة نسبةً لبقية قصص المجموعة وإن لم تتجاوز صفحاتها العشر. وعلى الرغم من الهدوء النسبي الذي قوبلت به المجموعة المقتصر على احتفاء متابعي الكاتب ومعجبيه بها وفرحتهم بصدورها على صفحات الإنترنت، إلا أن المجموعة تستحق الالتفات والدراسة بجدية كنموذج ناجح للمجموعات القصصية السعودية الصادرة مؤخراً.





الرسوم من قصة «احتمال وارد»

عالم قصصي وارد

تبدأ المجموعة بمقدمة كتبها القاص الشاب منصور العتيق. والمقدمة استثنائية في توائمها مع لغة المجموعة وروحها، دون ذكر إحساس الصداقة الذي يتسلل إليك من المقدمة فيصيبك بالعدوى وتشعر بأنك إلى جانب صديقين طالما كنت ثالثهما.

من سمات هذا العمل عدم استجداء العطف من أي نوع على أبطال هامشيين وبؤساء.. بل نجلهم كما ينبغي أن يجل البطل

يصف العتيق أبطال المجموعة القصصية بأنهم ثائرون مهمشون، ويقدمون على أفعال غير متوقعة دائماً، وإن كانت محدودة في نطاق ضيق هادئ. وبالفعل، فإن المحور الأولي المباشر الذي يجمع بين غالبية أبطال القصص هو أنهم لم يحوزوا شرف «العادية». ليس منهم من هو عائل أسرة يكد ويسعى ليحصل على قوته وقوت أولاده، وليس منهم من هي فتاة تقف بين أن تتزوج الفقير الذي تحب أو الغني الذي تحبه عائلتها، وليس منهم العجوز الذي تركته أسرته يقاسي برد الوحدة في آخر عمره. حياة أبطال الصامطي قصص في حد ذاتها، قبل أن يقرر كاتبها أن يحكي خيطاً واحداً من عشرات الحكايات المنسوجة في عالمهم. وربما لا يخرج الكاتب في هذا عن بقية القصّاصين الذين رفعوا راية المهمشين في الأرض، وكرَّسوا مساحات واسعة من إنتاجهم للتعبير عنهم، إلا أن المجموعة تتميز بجملة سمات تتزاوج فيما بينها لتقدم خلطة متقنة ومتفردة قد يتعود القارئ على نكهتها، وسريعاً ما يعرفها باسم كاتبها، خاصةً إذا تابع إنتاج الكاتب على الوتيرة نفسها.

فعلى سبيل المثال، للافتتان بحالة «الدروشة» -إذا جاز لنا أن نختصرها بهذا التعبير- مكان واضح في قصص خالد الصامطي. إذ من بين خمس عشرة قصة، نجد أربعة متفوقة منها تستكشف هذه التيمة: الدرويش في «حالة استطراد طويلة»، البله في «أشعث أغبر»، المهووس في «مجرد قارئ جيد»، المتشرد في «ترقُّب»، وكلها تنويعات على وتر يعرفه القارئ. الرجل الذي غوته فكرة ما فأفقدته عقله، أو جزءاً منه.. أو على الأقل هذا ما يراه الناس فيه، بينما يجرؤ الصامطي بكل بساطة أن يتعايش مع ما وراء الدروشة، فيقدم تبريرات أو شروح -أيهما تفضل- لهذه الحالة.

هذه القصص الأربع من القصص المهمة في المجموعة، إلا أننا نتناول هنا قصة «أشعث أغبر»، التي يطلب فيها الكاتب من قارئه تجميعاً لقطع مختلفة من لعبة «بزل» حول بلاهة القرية، وتراوح هذه القطع بين تلخيص لما يراه أناس مختلفون في مواقع مختلفة في هذا الرجل المتطاول الذي يقف على الأرض العطشى مخاطباً السماء ومطالباً بالمطر، وما يستخلصه القارئ مما يقوله هؤلاء أنفسهم، فهم في نهاية الأمر تطوعوا أو اضطروا إلى أخذ موقف ما من تطاوله في نظرهم. وقد يكون اختيار الكاتب لهذا الأسلوب تحديداً مغامرةً غير محسوبة جيداً إن استخدمه في قصة أخرى، أما في هذه القصة بالذات فيصعب أن نعود ونتخيل كيف يمكن له أن يُبدع تأثيراً أجمل من هذا التأثير، بحذفه بعضاً مما يمكن أن يُقال كي يوصل إلى القارئ كل ما لا يمكن أن يُقال.

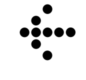
من جهة ثانية، تقدِّم هذه القصة، مع بقية القصص الأخرى، سمة أخرى من سمات عمل خالد الصامطي. فهو لا يستجدي عطفاً من أي نوع على أبطاله. على الرغم من هامشيتهم وأحوالهم البائسة. فأنت لا تشفق على هؤلاء الأبطال، بل تجلهم كما ينبغي أن يُجل البطل، وقد تدرك أن من تقرأ عنه يستحق عطفك، ولكنك لكبرياء قلم الصامطي لا تستطيع أن تشعر بهذا من الكلمات. فقصة مثل «يرحلان» الحافلة بتفاصيل ذكية حزينة، تنجح في أن تفلت من قبضة إشفاقك مع أن كل شيء فيها يدعوك إلى الوقوع في الأسر، بدءاً من الوصف الدقيق للأخ الأكبر القابض بيد متعرقة على ريالين بشكل عبثي، والأصغر الذي يختار نوعاً جديداً من الحلوى في كل مرة يدخل فيها الدكان، مروراً بالجمل القصيرة المفاجئة بعد مجموعة من الجمل الطويلة، وانتهاءً بالحدث المكثف في مقابل الوصف المطول.

بين صوت الكاتب وحضور مدينته

يُدرك القارئ الحضور الدائم للصامطي في خلفية المجموعة. وإن لم يكن هذا الحضور مستفزاً، إلا أنه في أحيان يطغى على صوت القصص.

ثقافته المتنوعة، على سبيل المثال، تفرض نفسها ضمن مفردات سرده، فهو يشير إلى رواية موريسون ولقاء الماغوط في «منتصف الليل والوطن والأشياء الأخرى»، ورواية العطر ومعزوفة فانغليز في «هنا»، كما يشير إلى بيكاسو وباخ وإبراهيم الكوني وأعماله عن الصحراء وسط حديثه عن الجدة صفية الأمية في «في جيدها عقدٌ من بلد».

وإن كانت هذه الإشارات مقبولة أو متوقعة في القصتين الأوليين، إلا أنها أيضاً مقبولة وجميلة وغير مقتحمة في معرض الحديث عن صفية، تلك التي في جيدها حبلٌ من بلد، والتي أعتبرها من أجل قصص المجموعة.



مجموعة تموج بنضارة التجارب الأولى، وعلى مستوى من النضوج تضعنا في انتظار الثانية

وهناك حضور آخر بقامة مهيبة هذه المرة نراه في حضور الرياض في قصصه، حتى في تلك التي لا تذكرها صراحة. الرياض كانت البطل المهيمن في «خط البلدة لا ينتهي»، والرياض كانت الإطار الأكبر الذي يعلو على حدود المكان الضيقة في «هنا».. وكلما أتى ذكر الرياض، اكتسبت كلماته ثقلاً يشي بما تعنيه المدينة له.

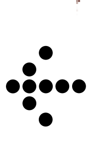
قصص المجموعة القصيرة جداً، تلك التي لم تتعد كلماتها نصف الصفحة، كقصتي «سقوط» و«أعمى» اختلفت في نوعيتها عن بقية القصص، وقد يرى البعض فيها بساطة جميلة تروق له أكثر من إحكام قصصه الأطول، إلا أن الثقل في كفة الميزان الأدبي يميل لصالح الأخيرة، ويعود جزء من هذا إلى ظهور أسلوب الكاتب وتميز بنائه القصصي فيها. أما «هنا»، القصة الأطول بين قصص المجموعة والتي اختار الصامطي أن يختم بها مجموعته، فقد كانت تغريداً خارج السرب، حيث أطلق الكاتب لقلمه العنان في استطراد لم يتفق مع بقية قصص المجموعة، ولم يضف حقيقةً لبناء القصة ذاتها.

مجموعة «خالد الصامطي» الجديدة لا تُشترى فحسب، بل تُقتنى. وليس من الضروري أن يفتنك غلافها، أو تعجب بحرفية رسومها الموزعة على قصصها المختلفة، بل وليس من الضروري أن يضاف اسم كاتبها إلى قائمة كتَّابك المفضلين. هناك سبب آخر يمكنك أن تتعلق به إن فاتتك الأسباب البديهية التي قد تدفعك إلى اقتناء كتاب. وذلك أن المجموعة من بدايتها وحتى نهايتها تموج بنضارة التجارب الأولى. يبدأ هذا من دار النشر الشابة «رحلة حياة» بقيادة أحمد عثمان، ويمر بمصممة الغلاف أروى العمر والرسامة نورة العفالق، وينتهي بالكاتب خالد الصامطي في تجربته الأولى التي وضعتنا في حالة انتظار للثانية.



خالد علي الصامطي

- قاص سعودي من مواليد الرياض في الخامس من مارس عام 1981م.
- حصل على بكالوريوس الترجمة في اللغة العبرية من جامعة الملك سعود في الرياض.
- حصل على المركز الأول في مسابقة القصة القصيرة بمهرجان الشباب العربي العاشر بالخرطوم عام 2005م، وكذلك مسابقة جمعية الثقافة والفنون في الأحساء للقصة القصيرة في العام نفسه.
- رسام كاريكاتوري نشرت رسومه في الملحق الثقافي الأسبوعي لجريدة الاقتصادية.
- يدرس حالياً الماجستير في تخصص نظم المعلومات في جامعة ديبول في شيكاغو الأمريكية.



مقتطفات

في جيدها عقدٌ من بلد

إنها جدتي.. ولقد ماتت..

صفيّة، التي لولا أنها وجدت نفسها -على سبيل القدر- امرأةً قرويّةً، ترعى الغنم، تطرحُ القصب لبقرتها، وتذهب كل صباح للسقايّة، ولولا أنها أيضاً كانت تحصد «الخَضير» وتصدحُ بأهازيج المزارعين، لكانت شيئاً آخر لا يختلفُ كثيراً عنها، مثلاً: سيّدةً إنجليزيةً نبيلة، تجمع أسطوانات موسيقية لباخ، وتحب لوحات بيكاسو وموديلياني النادرة، تكتب مذكراتها اليومية وتجاربها القديمة بكل جرأة، أو لكانت في بيئةٍ مقاربةٍ لبيئتها، مثلاً: كعجوز أسكتلندية تجلس على كرسيٍ هزاز، تستظل بمدخل منزلٍ ريفي، تغزل شالات صوفية وهي تنتظر عودة جدي من المزرعة، الذي بالتأكيد لن يكون مختلفاً عن «سراج» النائم في غيبوبة تامة منذ وفاتها، مثلاً سيكون «وليام» المحارب القديم الذي يروي دائماً حكاية قتله لخمسة جنود إنجليز، بثلاث رصاصات فقط!

لكنها -ببساطة ودون الحاجة إلى أي تبرير- جدتي صفيّة التي ماتت.

أعني أنها هي كما عاشت حقيقةً، لذا كانت تضحك راضيةً، وعندما تفعل ذلك، تظهر أسنانها مكتملةً بيضاء، كعقدِ لؤلؤ. أكدت لي يوماً أنها ليست نادمةً على شيء، أو بالضبط؛ خلال ثمانين سنة لم ترغب بعيشةٍ أخرى، وكما قلت: كانت تضحك، رغم أنها تحزن عندما تحكي قصة «الأغراب»، أولئك الذين قالت عنهم: (كلامهم يابس، أتوا من الصحراء، لا فيها مطرٌ يرطب أصواتهم، ولا هم يحصدون).

متأكد من أنها كانت تستمتعُ باسترجاع الماضي، عدا تلك الفترة الناتئة على سطح ذاكرتها الصلبة، الفترة التي جاء فيها «مطرف» ورجاله، تتذكر اسمه جيداً كما يفعل أهل القرى المحيطة جميعهم، وعلى كلٍ، فإن نسيانها لهذا الاسم يُعد أمراً غير وارد على الإطلاق، إنه الشخص الذي أطلق عليها في الحقل لقباً رافقها حتى ماتت.

أذكر أنني كنت جالساً جوار قدميها حينما تنهدت: (قديماً يا إدريس، كنا ورجال القرية نرعى سوياً، نزرع ونسقي سعداء، كما فُطرنا عشنا، لكنهم جاءوا ومنعونا، قالوا بأن ما نفعله من عمل الشيطان، بعض النساء امتثلن لأمرهم، فذهبتُ إلى كبيرهم «مطرف»، رجوته بألا يمنعنا مما جُبلنا عليه من الحق، لكنه تجاهلني، واستمر يردد الكلام الجديد والوعيد. وذات يوم لحق بي رجال رجموني حتى تفطَّرت قدماي).

ولأن جدتي أُميَّة، فمن المنطقي أنها لم تقرأ ما يكتبه «الكوني» عن الصحراء. وتنفي بكلامها -من حيث لا تدري- فلسفته. ولكيلا تُتهم بتبني مبادئ متطرفة، يجب أن أقول إذا أتينا للحق، إن جدتي ماتت وهي لم تسمع مسبقاً بالصحراء الكبرى ولا «الطوارق» وتظن أن «تركيا» امرأة، وأن اليهود من الجن!

في إحدى المرات، وكمحاولة لممازحتها ومشاكستها، كنت أتحدثُ بما لا تفهمه عن العولمة، إنفلونزا الطيور، والإنترنت، فقاطعتني وكأنها تكملُ حديثاً سابقاً: (لم أترك الزراعة أبداً، ولم يجبرني جدك على بتر جذوري الضاربة عُمقاً في الأرض، بل لم يكترث مثلي بما لقبوني به، وكان يمازحني باللقب أحياناً، حتى أنني أحببته عندما يقوله هو، وذلك عندما «أنغزه» في خاصرته، الأمر الذي يجعله يقفز بشكلٍ مضحك ويحاول أن يستفزَّني. إن جدك يا إدريس إنسانٌ رائع، لم يتخل عني أبداً، ولم يتخلَّ عن مزرعته إلا بعد أن قطعها الإسفلت، كنا نعمل بها غير مبالين بكلام الأغراب، ولا الذين تبعوهم من أهل القرية، أجزم بأنهم لم يقتنعوا، لكن الحديث الذي انتشر حينئذ.. أرهبهم).

كنت أستغل شرودها وتأملها، أتأكد من أنها ليست منشغلةً بتلاوة ما تحفظ من سور، أحرِّضها على الحديث، ليس لرغبتي وحرصي على حكم ووصايا الجدات، بل لأنها تملك مشاعر دافئة، وحساً كوميدياً بريئاً، يشرحُ صدري ويركنُ كلَّ تعبٍ خلفَهُ الترحال. الآن، لم تعد الجنوبُ «صفيّة» لأزورها، ماتت، كشجرة زيتونٍ اجتثت من مكانها. ماتت وهي تصلي، تماماً كما قررت وجهرت في أدعيةٍ مضت. ثمة الكثير مما أريد قوله كتأبين متأخر لروحها بطريقتي، ولكني لا أريد أن أبدو كمن يحاول أن يجعل من جدته رمزاً لثورة ما. كل ما في الأمر، أن ثمة عجوز أسنانها مكتملة بيضاء كعقدِ لؤلؤ، عجوز اسمها صفيّة.. ماتت.

فـي زيارتي الأخيرة، أذكر أنها قامـت لتتوضأ، اتجهت إلى جـدّي الذي بالـكاد يسمع، جـدّي الذي طرحتـهُ الأمراض وغـاب وعيهُ بعد وفاتهـا، عندما مرت جـوارهُ أفزعته وهي «تنغز» خاصرته وتقول: (قم صلّ يا سراج).
نظر إليها وهو يعتدل جالساً، ابتسم، ثم قال بصوتٍ مبحوحٍ وساخر: (من؟! حمّالة الحطب!).
ضحكـتْ جدتي، فبانـت أسنانهـا مكتملةً بيضـاء كعقد لؤلؤ.

13 نوفمبر 2005

يرحلان

يخرجـان. يفعـلان ذلك كل يوم، وفي أوقـات غير محددة. يذهبـان إلى الدكان في آخر الحارة، الأكبر هو الذي يطوي في يده اليسرى بشـكل عبثي ومتعرق «ريالين»، يمسك بيده الأخـرى الأصغر الذي أحياناً لا يرتـدي حذاءه، الأصغر ذا القميـص البنـي، وطاقية بيضـاء كالسحـب. الكبير ينتعل حـذاءً أبيض ومتسخاً ماركـة (أديداس) مقلَّـدة، قميصه رمادي وطاقيته مخرمـة. يسيران في أزقة الحارة بمعرفة، يرحلان بصمت إلى أحلام بعيدة وهما ينظران إلى القطط على حافة برميل الزبالـة الكبير، إلى النوافذ، يركل الأكبر الحصى في الطريق، يسأله الأصغر:
هل يؤلمك ذلك؟
فيجيـب بالنفـي، ثم يتحدثـان عـن الأشياء فـي الطريق، ويضحكان.



فـي الدكان، يقـف الكبير على رؤوس أصابعـه أمام الثلاجة، يتنـاول عصير برتقـال، في الوقـت الذي يكـون الصغير قد اختار نوعاً جديداً من الحلوى، وإذا ما صرَّح برغبته في شرب «عصير» في طريق العودة، فإن الكبير يمنحه نصف عبوة من عصيـر برتقال. أحياناً، في منتصـف الطريق يتسابقان إلى البيـت، في كل مرة يصل الصغيـر أولاً، الكبير يخشى الفوز، لكيلا يلتفت عند خط النهاية فلا يجد أخاه الأصغر.
لأسبـاب لا يتقنان فهمهـا؛ لا يستطيعان اللعب مع غيرهما، ولأسباب يجهلها الآخرون، يرحلان.

منـذ سنة، لم تشاهدهما القطـط على حافة برميل الزبالة الكبير، ولا النوافذ. الحصى على الطريق يفتقد ركلة حذاء أبيض متسـخ، ثلاجة العصير تأن، تمعن فـي التساؤل عن طفل بقميص رمادي كان يأتي في كل يوم ويقف على رؤوس أصابعه، يتناول عصير برتقال، وبجواره طفل آخر بقميص بني يمسك بنوعٍ جديد من الحلوى.

5 يوليو 2006

قول آخر

المال يثأر من الشعر!

ماهر شرف الدين*

المقال المهم الذي نشرته «القافلة» في عدد نوفمبر/ ديسمبر 2007م، والموسوم بـ «أما زال الغرب يقرأ الشعر؟» لدانا دجويا، يتقاطع مع مقال آخر يدور حول الموضوع نفسه ويحمل عنوان «الشعر الأمريكي في القرن الجديد» (نشرته صحيفة «الغاوون» في عددها الثاني، ترجمة وتقديم: فادي سعد)، كتبه جون بار رئيس «مؤسسة الشعر» الأمريكية التي نشأت على أنقاض «جمعية الشعر الحديث» بعد تلقّيها هبة مالية ضخمة (100 مليون دولار) من السيدة روث ليلي الوريثة الوحيدة للشركة الدوائية العملاقة «ليلي».

كلا الكاتبَيْن جاء من خلفية مهنية غير شعرية، إذا صح التعبير، فالأول يعمل في إدارة الأعمال، والثاني يعمل في البورصة. وفي هذا الإطار يبدو أن الحديث عن علاقة الشعر بالجمهور هو حديث عن تسويق الشعر، ولذلك يتنطَّح لنقاش هذا الموضوع من لديه خبرة تتجاوز «سلعة» الاستعارة والتشبيه إلى سلعة العرض والطلب. وهذا على كل حال ربما يعطي تفسيراً للهجة الإحصاء التي مرَّت عبرها معالجتا الموضوع.

تقاطعات عدَّة التقى فيها المقالان، لكن أبرزها على الأرجح تماثل الشاعر بهوية المدرِّس، في معنى تحول الشعر من فوضى الشاعر في وصفها تجسيداً أقصى للحرية، إلى التزام الموظف. هذا الانتقال المريب لـ «بندقية» الشعر من كتف (الحرية) إلى أخرى (الوظيفة)، يختزل في حقيقة الأمر مشكلة الأداء لا الهوية، أو بالأحرى مشكلة المكانة لا الأصل. فالنقاش اليوم يدور حول مقولات مثل: نحن في زمن الرواية لا في زمن الشعر، حتى تلك التي تحمل بريقاً قاتلاً مثل سؤال: هل مات الشعر؟.. فكلها أسئلة يقع مرماها في ملعب الوظيفة التي افتقدها الشعر في رحلة الشاعر من «وظيفة» المؤرِّخ (لأمجاد قبيلته) وعالم الأنساب واللغوي و... إلى وظيفة -لا تحتاج إلى وضع قوسين- هي وظيفة المدرِّس.

سنكون أكثر موضوعية إذا تناولنا «خسارة» الشعر من منظار الدور. أي تحديداً من تبدُّل وظيفة الشاعر ومكانته، وبالتالي أهميته. إذ لم يخسر الشعر من دون أن يربح الفن عموماً. خذوا السينما مثلاً على ذلك. الصورة السينمائية التي كانت -في الماضي- حكراً على الشعر، بل ومن اختراع الشعر، صارت اليوم فناً قائماً بذاته. الصورة الكاريكاتورية التي برع فيها الشعراء صارت اليوم أيضاً فناً قائماً بذاته، وهكذا دواليك.

الشعر أنجب أبناء... يحاولون اليوم (كعادة جميع الأبناء) قتل الأب!

في هذا المعنى يكون الشعر هو أبو الفنون، لا المسرح. صحيح، تذكّروا المسرح أيضاً (وإن لم يأخذ الصيت الذي فاز به الشعر في العالم كله) والحديث عن موته. ألم يخسر المسرح من صحته لمصلحة فنون أخرى أيضاً؟ الشعر -كالمسرح- فن أبوي إذا صح التعبير، وبقية الفنون أبناء... وإن يكن عقوقها جميل وساحر بالنسبة إلى أبناء جيلنا المتأخر.

في العالم العربي خسر الشعر أكثر من سواه، وهذا طبيعي بسبب ارتباطه البنيوي بالحضارة العربية. لقد أفل نجم الشعر العربي منذ أفول نجم الحضارة العربية، والحديث عن مرحلة النهضة أوائل القرن المنصرم هو حديث يفتقد الدقة كما يفتقد اللباقة التاريخية.

في أمريكا، السيدة روث ليلي المليونيرة التي حاولت نشر بعض القصائد في مجلة «شعر» الأمريكية وقوبلت بالرفض يومها، عادت وتبرَّعت بثروتها لهذه المجلة. هكذا بين ليلة وضحاها تحولت مجلة شعرية عريقة وفقيرة إلى مجلة ثرية. وممن؟ من سيدة ثرية رفضت المجلة نشر قصائدها.

لحظة من فضلكم. الصورة أصبحت على الشكل الآتي: رفضت مجلة «شعر» قصائد روث ليلي وقبلت نقودها؟ رفضت مديحها وقبلت ثأرها؟ نعم، ثأر جميل وبديع قامت به المليونيرة ليلي.

أخيراً، وجد المال الطريقة المناسبة للثأر من الشعر. للأسف، في بلادنا العربية المال لا يفكِّر في الثأر أبداً!

* كاتب من لبنان

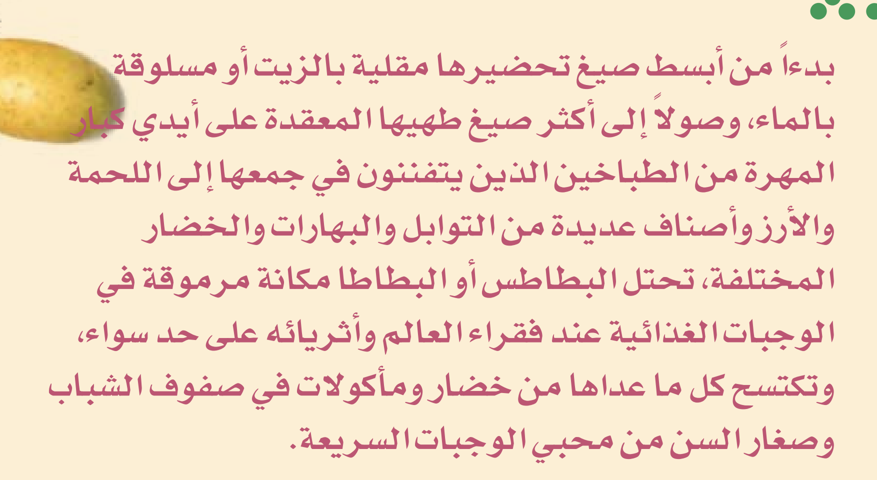


البطاطس

لم تكتسب معزة الخبز ولا عز الأرز. ولكنها احتلت مكانة لا يضاهيها صنف آخر من المأكولات. إنها البطاطس التي تحظى بمجد عالمي على شاكلة أصابع رفيعة مقلية بالزيت، وتفرض نفسها بقوة عجيبة على كل عائلة الوجبات السريعة، لترافق ملايين الوجبات اليومية أينما كان في العالم. وإلى هذا المجد الشعبي، تضاف مكانتها الغالية في معظم المطابخ وبين أيدي أشهر الطباخين في أرقى المطاعم.

والعام الجاري 2008م، هو وفق قرارين من هيئة الأمم المتحدة ومنظمة الأغذية والزراعة الدولية، «عام البطاطس». ويأتي هذا الإعلان متزامناً مع ارتفاع أسعار المواد الغذائية الذي بات يهدِّد بمجاعات في شتى مواقع الفقر في العالم، علماً بأن البطاطس لم تنل الاعتراف بها كثمرة صالحة للأكل إلا حين ضربت المجاعات مناطق مختلفة من القارة الأوروبية. وهي بذلك تستحق هذه الالتفاتة التي يسهم بها فريق التحرير في هذا الملف.

البطاطس
من اكتشافها إلى سنتها العالمية



بدءاً من أبسط صيغ تحضيرها مقلية بالزيت أو مسلوقة بالماء، وصولاً إلى أكثر صيغ طهيها المعقدة على أيدي كبار المهرة من الطباخين الذين يتفننون في جمعها إلى اللحمة والأرز وأصناف عديدة من التوابل والبهارات والخضار المختلفة، تحتل البطاطس أو البطاطا مكانة مرموقة في الوجبات الغذائية عند فقراء العالم وأثريائه على حد سواء، وتكتسح كل ما عداها من خضار ومأكولات في صفوف الشباب وصغار السن من محبي الوجبات السريعة.

يتباهى الفرنسيون بأنهم مخترعو البطاطس المقلية المسمّاة «المقليّات الفرنسية» (French Fries).. هذا الطعام الذي راج عالمياً إلى درجة جعلت تسميته رمزاً للإبداع في فن الطبخ. وهذا ما دفع الأمريكيين خلال خلاف سياسي مع فرنسا إلى تغيير اسم هذه الوجبة البسيطة وكأن في الأمر تعديلاً لموازين التفوق. غير أن المظالم التي تعرَّضت لها هذه الثمرة خلال تاريخها تكاد تحصر الفضل في ظهورها ورواجها وانتصارها الكبير إلى مزاياها دون غيرها. إذ ظلت لأكثر من قرنين بعد اكتشافها محتقرة من قبل الفقراء قبل الأغنياء. وراجت حولها شتَّى التهم والأفكار الخرافية، غير أنها وببطء شديد فرضت نفسها بنفسها لتصبح اليوم غذاءً أساسياً أينما كان في العالم، وربما مخرجاً من أزمة الغذاء العالمية حسبما جاء في أحد تقارير هيئة الأمم المتحدة.

ونبدأ بتاريخ البطاطس الذي يكاد يختصر تاريخ المجتمعات وأحوالها الاقتصادية والثقافية أينما غرست نبتتها.

عرفت سهول الأنديز في البيرو وتشيلي زراعة البطاطس لأكثر من ثمانية آلاف سنة، ووجد علماء الآثار في الأطلال التي تشهد على تاريخ تلك المنطقة بقايا بطاطس تعود لأكثر من خمسمائة سنة قبل الميلاد. كما عرف هنود حضارة الأنكا التي قامت بين العام 1200م و1572م هذه الثمرة، وذكروها في صلاتهم كقوتهم اليومي، وأدرجوها مع أكفان موتاهم. خزَّنوها لأكلها في الحروب والمجاعات.. جفَّفوها وطبخوها بصلصة الطماطم وحملوها معهم رفيقاً أميناً في رحلاتهم الطويلة، وعندما كان محصولها يصاب بالفشل لسببٍ أو لآخر، كانت تقوم الدنيا ولا تقعد، فيساق البعض من سيئي الحظ لتقطع أنوفهم، اعتقاداً من البقية أن هذه الوسيلة الوحيدة لاسترضاء البطاطس.

وعندما وطأ الإسبان أرض البيرو غازين وباحثين عن ذهب الأنكا، كانت البطاطس أمامهم تنتظر مستكشفاً بعيد النظر ليرى ما قد تقدِّمه هذه الثمرة الغنية للعالم أجمع، وطال انتظارها أكثر من قرنين من الزمان كي يكتشف العالم الغربي أهميتها، وقرنين آخرين كي يدرك العلم على نطاق واسع غناها. إلا أن الدلائل على تميز البطاطس كانت طوال الوقت أمام أعين الجميع، وأولها قدرة هذه الثمرة على شق طريقها في أرض قاسية كسهول الأنديز، فهذه النجود القاحلة ترتفع عن مستوى سطح البحر أكثر من اثني عشر ألف قدم، وأي مخلوق يتواجد عليها وتصلح له سكناً لابد أن يكون مثابراً صبوراً. وكما ينطبق هذا على سكان الأنديز، فإنه ينطبق على قوتهم اليومي أيضاً.



مزارعو البطاطس في سهول الأنديز.

رسم للأنكا في بيرو يحصدون البطاطا.

فالبطاطس تعيش في منطقة لا تعرف الاعتدال. الأرض التي لا يحول بينها وبين أشعة الشمس حائل في النهار، تقف عزلاء مستكينة أمام صقيع الليل، وهذا التفاوت الهائل في درجات الحرارة التي تتعرَّض لها التربة ذاتها خلال اليوم الواحد لا يقف عقبة فقط أمام النمو الطبيعي للنباتات، بل يعني أيضاً تعرضها لهذه التقلبات الجوية، سواء أكانت جفافاً أم صقيعاً، على مدار السنة. وتحت أحوال كهذه، ليس للنباتات الحسّاسة كالقمح أو الذرة أو الشعير مكان. أشجار قليلة جداً هي التي تستطيع البقاء في أرض قد لا ترتوي بقطرة مطر لأكثر من سنة، أما ثمار هذه الأرض، فهي ثمار قزمية ملتصقة بها، وأولها البطاطس.

البطاطس، عروس الأنديز، تزهو بمواءمتها لهذه الأرض، إذ يستطيع بعض فصائل البطاطس العيش في تربة تعلو عن مستوى سطح البحر أكثر من خمسة عشر ألف قدم، وقشرتها السميكة تحميها على الدوام، وخاصة خلال تعرض المنطقة لنوبة صقيع تجمّد كل ما تقابله، أو نوبة جفاف تمتص الحياة، وتقاوم لأكثر من سبعة شهور. فالبطاطس تنمو في أقسى وأكثر الترب فقراً، وفي أي سطح يمكنها التواجد فيه، ولذلك هي -بأنواعها التي تتجاوز 230 نوعاً- هبة لا تقدَّر بثمن على سهول الأنديز، وهذه الأنواع هي التي سمحت لسكان السهول في الماضي تخير وزراعة أكثرها ملاءمة للظروف المناخية، وهي ذاتها التي سمحت للأوروبيين، وإن كان في مرحلة متأخرة من القرن التاسع عشر، بمقاومة الآفات التي حاقت بمحاصيل البطاطس عبر اختيار فصائل أخرى خالية من الأمراض وتقديمها في أسواقهم.

ليس توافق البطاطس مع تطرف الأرض هو السبب الوحيد الذي جعلهم يقدمون عليها كقوت يومهم، هناك أسباب أخرى دفعتهم لذلك، ومنها أن الأرض الزراعية كانت نادرة، وعادة ما تكون متفرقة على امتدادات ضيقة، فيضطر المزارعون إلى حرثها بأنفسهم من دون مساعدة آلية أو حيوانية. ولم تخيِّب البطاطس المزارع الصبور، فهي لا تحتاج إلا لعناية يده ومجرافه، والثمرة الواحدة تحمل عدة براعم تعده بالخير الكثير.

لم تكن الصعوبات أمام المزارع وعائلته تنتهي بالحصول على الطعام، فالوقود في تلك الأرض كان أندر حتى من مساحاتها المزروعة، والصقيع ينهي ما تبقى فيجمد كل ما تحتويه مخازن القرية. والبطاطس التي تحمل أكثر من 80% من وزنها ماء كانت معرَّضة لمصير مشابه لباقي الأطعمة، وربما كانت أولها تعرضاً له، إلا أن الأنكا وجدوا حلاً مبتكراً حوّلوا فيه حساسية البطاطس من الصقيع لصالحهم، فكانوا يقتسمون بعضاً من محاصيل البطاطس، والباقي يتركونه معرضاً لصقيع الأرض القارس في عتمة الليل، حتى تتجمد مياه الثمرة، فإن أتى النهار بحرارته، يذوب الجليد عن البطاطس، ويتكفل الأهالي بطرقهم التقليدية بعصر الثمرة حتى لا يبقى فيها إلا أقل القليل من الماء، وبالتالي تصبح عصية على هجوم الصقيع، ويجمعونها في سلال يخبؤها في غرف مقفلة بإحكام. هذه البطاطس التي عرفها أهل الأنديز باسم «تشونو» chuno كانت لا تستغرق سوى دقائق لتنضج وتصبح جاهزة للأكل بعد وضعها في الماء المغلي. اليوم لا نفكر إلا في البطاطس المقلية كجزء من مفهوم الوجبات السريعة، إلا أن التشونو سبقها بمئات السنين. أضف إلى ذلك أن التشونو كان يبقى صالحاً للأكل حتى سنوات عشر، مما يعني ضماناً استثنائياً ضد مجاعة ممكن أن تضرب المنطقة في أي وقت.

من جهة أخرى تقدم البطاطس على الطاولة قيمة غذائية متفوقة على غيرها من الخضراوات. إذ يقول العلم اليوم إن البطاطس توفر كل العناصر المغذية التي يحتاجها الجسم، عدا الكالسيوم وفيتاميني (أ) و(د)، مما يعني أن نظاماً غذائياً معتمداً على البطاطس والحليب يمكن أن يمد الجسم بكل ما يحتاجه. ويوفر الفدّان الواحد المزروع بالبطاطس لعشرة أشخاص طاقتهم السنوية وحاجتهم من البروتين، وهو شيء لا يمكن أن نقوله عن الذرة، أو الأرز، أو فول الصويا، أو حتى القمح.

ضحية التعصب الطبقي أولاً

بعد أكثر من ثلاثين سنة من اكتشافهم للبطاطس في الأنديز، حمل أحد الغازين الإسبان هذه الثمرة الغريبة معه إلى دياره.. وليس لنا أن نفترض أن هذا البحار كان مدركاً لما يقدِّمه لبلاده عبر هذه الثمرة الصغيرة التي حفظها في جيب سترته الداخلية. بل يرجِّح الباحثون أنه لم يحملها إلا كتحفة أو تذكار لغزوته، ومثالاً على طرافة وغرابة الأرض



التي تنتمي إليها، وبالتالي، لم يكن ليدري أنه بهذه الرحلة، كان أول من عرَّف إسبانيا، والعالم من بعدها، على البطاطس.

فبعد سنوات ثلاث من هــذه الواقعة بدأت البطاطس «مستقبلها المهني» فـي أوروبا، حيث استخدمهــا الأطباء لإطعام المرضــى الفقراء في أحد مستشفيات إشبيلية بإسبانيا، ولو كان الإسبان يعلمون ما يخبئه المستقبل، لأدركوا أن هذا التذكار التافه سيلعب ذات يوم الدور نفسه الذي لعبه في أرضه الأصلية، وإن اختلفت تضاريس مسيرته بعض الشيء.

فالبطاطس ستقدم، رغماً عن أنف أوروبا، ملاذاً من المجاعات، وستنمو في كل مـكان. في بساتين الملوك، وحظائر الصيد، ومزارع الفلاحين، وحدائق العمال، في أية تربة.. غنية كانت أم فقيرة. وستصبح سلاحاً في يد الفلاح الطامـح للحريــة والاستقلال المــادي عن الإقطاعــي المسيطــر، وأماناً له ولعائلته في الوقت نفسه من الجوع القارض. ولن تكون محصورة على الفلاح المتمرس، فلأنها لا تحتاج إلا إلى عناية اليد البشرية والمجراف، فستكون أداة شعبيــة أخرى، يجتمع الفلاح مع العامل مع الموظف على زراعتها. ومع الحليــب أو أي من منتجاته لتوفير الكالسيــوم وفيتاميني (أ) و(د)، ستقدم البطاطس نظاماً غذائياً كاملاً كانت جموع الفقراء تفتقده في كل بلد أوروبي والعالم. كما أن البطاطس تقي أيضاً من الإصابة بالاسقربوط، المرض الذي كان ملاييــن الأوروبييــن يتعرضون له في ظل غيــاب قدرتهم على الحصول على الفواكه الغالية التي تؤدي الدور ذاته. وأخيراً، ستمد البطاطس طاولات الطعــام بوجبات رخيصة وسريعة تستلزم أقـل القليل من الأدوات الزراعية لإنباتها والوقود لطهيها، وهي سمات كان مطبخ الطبقة المتوسطة والفقيرة طيلة القرون الماضية في أمس الحاجة إليها.

إلا أن كل هذه المميزات، ويا للمفارقة، كانت غائبة عن أعين الأوروبيين فـي تـلـك الأوقات، إذ لـم ير هؤلاء سـوى أن البطاطس طعــام يستطيع الفقراء الحصول عليه بسهولة، وأوروبا بطبقاتها المختلفة كانت ملكية أكثـر من الملك، حتى أن الفقراء ترفعـوا عن أكلها لأنهم كانوا يتفادون بيأس ملهوف كل ما من شأنه الإشارة إلى طبقتهم الاجتماعية.

وجزء من هذه الشهــرة المسيئة للبطاطس يعود إلى الغزاة الإسبان في القــرن السادس عشر، ليس بسبب مــا عُرف عنهم من أنهم قطَّاع طرق لا يهتمــون سوى بالغنائم والغنى المبتذل من ذهــب أو فضة، ولكن لأنه كان مــن الصعب على أي كان في أواخــر القرن السادس عشر بأن يتنبأ أن محصــول العالم مــن البطاطس قد يقدَّر في نهايــة القرن العشرين بأكثـر من مائة بليون دولار أمريكي. غنيمــةٌ تتجاوز بمراحل كل الذهب والفضــة التي حرصــ الإسبان على حملها معهم إلــى الديار من أمريكا الجنوبيــة. ويمكن لنا أن نتخيـل كيف لبحار فظ أن يضحك ملء شدقيه إن تجــرأ أحد ليذكــر له الفكرة، ومــن السهل أيضاً تخيـل أن الضحك سيستمــر حتى أواخر القــرن الثامن عشر، وهو الزمــن الذي بدأت فيه مزايا الثمرة تتضح للعيان.

الحقيقــة، أن تضييع الأسبان لفرصــة استثمار البطاطس لصالحهم لم يكــن غبــاءً مجرداً، بل كان نتيجــةً طبيعية للتعصــب الطبقي الذي كان سمة تلك العصور. وبناءً عليه، إن كان العالم الجديد ببدائيته وبعده عن التحضــر قد اعتمد على البطاطس غــذاءً له بدلاً من الخبز، فهذا يعني أن الثمــرة رديئة لا يليق بإسبانيا حضاريــاً أن تقترب منها ولا أن تعتمد عليها كقوت يومها.

البطاطا الحلوة المدللة



البطاطس الحلوة تقدّم الى جنرال.

لا يمكن أن يكون السبب الوحيد لتأخر وصول البطاطس إلى إسبانيا هو كونها طعام الهنود، فالإسبان أنفسهم كانوا حريصين على تبني عدد من مزروعات العالم الجديد. البطاطا الحلوة، التي تتشارك البطاطس في الاسم وتختلف في الفصيلة، عادت مع كولومبوس إلى إسبانيا فوراً بعد أن رآها في تاهيتي. ومنذ العام 1493م توالت السفن الإسبانية على موانئ المدن الأوروبية عائدةً من هاييتي وغيرها من جزر الهند الشرقية تحمل مجموعات مختلفة من فصائل البطاطا الحلوة. وعندما عادت السفن بالبطاطا الحلوة من بنما عام 1508م شقت طريقها بأمر ملكي خلال ثماني سنوات فقط إلى حدائق قصر الملك فرديناند والملكة إيزابيلا. ووقع صهرهما الملك هنري الثامن ملك إنجلترا أيضاً تحت سحر البطاطا الحلوة، ولكن لسبب مختلف عن مجرد إعجابه بمذاقها، فقد اعتقد أنها مقو، وأقبل على أكلها بشراهة. ودام هذا الاعتقاد وشاع حتى بعد وفاة الملك، ففي إحدى مسرحيات شكسبير وهي مسرحية (زوجات ويندسور البهيجات) يصرخ البطل السير جون فولستاف «لتمطر السماء بطاطا»، والتاريخ الذي كُتبت فيه المسرحية يشير بما لا يدع مجالاً للشك أن البطاطا المقصودة هي البطاطا الحلوة.

في أوروبا، وإسبانيا تحديداً، كان تبني البطاطا الحلوة لأسباب اجتماعية أيضاً. فقد كانت الأسئلة المهمة عن الأصل والفصل والمنشأ والمنبت، وهي الأسئلة التي كان الإسبان بصفتهم أمة متحضرة في ذلك الحين يهتمون بها كجزء من ذوقهم المنتقي فيما يتعلق بطعامهم، تأتي أجوبتها لصالح البطاطا الحلوة. من أين أتت؟ من جزر الكاريبي المورقة المخضرة، بينما بطاطستنا المستكينة تأتي من سهول الأنديز القاحلة السمراء. من يأكلها؟ الملوك والأغنياء فقط، فمناخ إسبانيا هو المناخ الأوروبي الوحيد الذي يسمح لها بالنمو، ويصعب نموها في بقية دول القارة، بينما تنبت الأخرى في كل مكان، وفي أية تربة. ما هو مذاقها؟ حلو سكري، يتماشى مع الموضة الذائعة في تقديم المأكولات الجديدة السكرية، كالشوكولاتة والفانيليا التي انضمت إلى المأكولات التقليدية ككعك الزنجبيل والمرزبانية المصنوعة من اللوز والسكر، والفطيرة والجيلي. من رعاتها؟ الملك فرديناند والملكة إيزابيلا، بالإضافة إلى الملك هنري الثامن الذي كان يأكلها مطبوخة في فطيرة مغموسة بالبهارات الحراقة والسكر، وهي عادة استمرت بعد وفاته لسنوات طويلة. البطاطا الهندية لم يكن لديها رعاة ولا محامون، ولا حتى قدرات خاصة تؤكل لأجلها، بالعكس.. وصلت إلى إسبانيا وحكم الإعدام معلَّق في عنقها. طعام الفقراء والهنود. وفي ذلك الزمن، من يود أن يوصم بأنه ينتمي إليهما؟

هويتها

من أين أتت؟
من جزر الكاريبي.
من يأكلها؟
الملوك و الاغنياء فقط.
أين تزرع؟
في إسبانيا حيث المناخ الأوروبي الوحيد الذي يسمح لها بالنمو، ويصعب نموها في بقية دول القارة.
ما مذاقها؟
حلو سكري.
من رعاتها؟
الملك فريناند والملكة إيزابيلا والملك هنري.

هـذا التعصب الطبقي لم يأت مباشرةً، فمدونات المستعمرين الإسبان الأوائل لـم تذكر البطاطس كثيـراً، إلا أنهـا في الحـالات القليلة التي أتـت فيها على ذكرهـا كانت تثني علـى مذاقها. إذ قـال أحدهم عنها إنهـا «طعامٌ جيدٌ جداً، مذاقـه ككستناء مسلوقة». وقال آخر «هي جذور مزهـرة وطعمها طيب». أما الرحالة الإسبانـي بيرناب كوبو فقد انفرد بشـق عصـا الطاعة على هـذه الآراء وذكـر أن البرويين قـد استبدلوا الخبـز بطعـام رديء (البطاطس) من دون طعـم، كعادتهم في أكل أي شـيء إن لم يكن يضرهم وإن كان ألـف نوعاً من الصراصير المقرفة. إلا أنه عاد واستثنى البطاطس عندما تحضِّرها النساء الإسبان، ووقتها فقط تنتج أفضل الفطائر اللذيذة.

ظـل الرأي العام في إسبانيا يـرى البطاطس طعاماً دونياً يأكله السكان المحليون في العالـم الجديد. وعندما اكتشف الإسبـان منجماً للفضة فـي عام 1545م، استغل تجارهم وصفة التشونو البيروية وباعوها بثمن رخيص لعمالهم في المنجـم، العمال الذين كانت طبقتهم الاجتماعية تشبـه في كثير من الأوجـه الرقيق، كي يزيد طين البطاطس بلة، فبهذا لـم يعرف عـن البطاطس إلا أنهـا طعام للرقيق أيضـاً، ولذلك استبعد التجار أنفسهم تصديره من البيرو لإسبانيا، وهذا ما يفسِّر مدونةً لأحد الرحالـة حول الحياة فـي المستعمرات، بعد سبعيـن سنة من اكتشاف الأسبـان بالبطاطـس، تصفها بأنهـا «طعامٌ لذيذ للهنـود، وطعام أنيق حتى للإسبـان أنفسهم». واللافت في الحديث عـن البطاطس في هذا التقرير هو أنه يجد أن من الغريب والمثير للدهشة أن الهنود والإسبان قـد يعجبـون بصنف واحـد من الطعـام، وأيضـاً أن البطاطس لا تزال مخلوقـاً أجنبيـاً يستدعي التعريف بـه والحديث عنـه، وتأكيد جدارته للاستهلاك الآدمي.

البطاطس في الزمن المرّ

في أمريكا، يقولون عن الشخص الكسول المستلقي أمام شاشة التلفزيون دون حـراك «شـوال البطاطـس» (couch potato)، أو عـن الشخص العبيط الذي لا يفكِّر (potato head)، أي رأس بطاطس. بينما يقول الفرنسيـون إن الكسول تسري فـي عروقه دماء البطاطا، ويصفون ذلك الذي لا يجيـد الرقص بأنه يرقص كجراب البطاطـس. والطرافة التي نراهـا في هذه التعبيرات تأتي من استلطافنـا للبطاطس اليوم، إلا أنها آتية من سياق سلبي متهكم، يحتقر البطاطس ويترفع عنها.

مـع مطلع العام 1600م، كانت البطاطس قد وصلت، خلال ثلاثين سنة مـن اكتشافها، إلى إسبانيا وإيطاليـا والنمسا وبلجيكا وهولندا وفرنسا وسويسـرا وبريطانيا وألمانيـا والبرتغال وإيرلندا.. ورغـم أن القائمة مثيرة للإعجاب، إلا أن هذا مجرد تعداد ولا يعني أن البطاطس المترحلة مـن بلد لآخـر وجدت في أي من هذه الدول بيتـاً حقيقياً لها، فما يعنيه وصولها إلى هذه البلدان هو أنها احتلت موقعاً في حدائق علماء النبات ومنها إلى حدائق الملوك، كنبات زينة لأجل ورودها الأورجوانية، وليس لثمارها القبيحة الشكل التي لم تكن تستحق الحصاد في نظر أصحابها. وبينما رأى النبلاء زهورها متعة للناظرين، لم يجد فيها الفلاحون سوى شـراً زؤوما عليهم اجتنابه. اختلاف نمـو البطاطس عن بقية النباتات كان مثيـراً لذعر رجـل الشارع في القرن السابع عشـر، فبقية النباتات التي خلقها الله تنمو بالبذور، وليس بجزء من الثمرة نفسها. أما ثمرتها التي كانت وقتذاك بحجم شجيرة صغيرة فرآها المزارع البسيط قبيحةً «لابد وأن يكون بينها وبين الأرواح الشريرة رابط»، ولابد أنها تتسبب في الإصابة بالدرن والجذام. فـي عام 1596م أتى النباتي جازبارد بوهين وصنَّفهـا ضمن ثمار الصولانين، وهي مادة شبـة قلوية سامة توجد في براعـم الطماطم، وتنتمي إليهـا مجموعة من النباتـات ذات العصارة السامـة كالتبغ وتفـاح الجن، وبهـذا اكتملت الدائرة حـول البطاطس. الشيطـان والأرواح الشريرة والجـذام والدرن والمـواد السامة ضيوف لا ترغـب أن تراهم على طاولتك. المفارقـة، أن العلم الحديث أثبت أن



ميدالية سُكَّت فـي هولندا تحمل اسم البطاطس بكل لغات العالم

الخرافـات الأوروبية كانـت محقة ولو بجزء بسيط جـداً في الحذر من براعم البطاطس، فهي كبقية النباتات المنتمية لعائلة الصولانين، تنتج مـادة شبه قلوية هي مادة القلويدات الستروئيدية، ومن سماتها السمية. وحتى اليوم لم يفهم العلماء ما وظيفة هذه المادة تحديداً، إلا أن هناك دلائـل تشيـر إلى كونهـا مادة تبعـد المفترسين، وتحمـي البرعم وورق الشجر. بالتأكيد البطاطس المعافاة لا تسبب أي ضرر ولكن الإكثار من أكل المريضـة منها يؤدي بالإنسان إلى المرض، ولأن الصولانين يتركز في قشرة البطاطس، فتقشير الثمرة المصابة جيداً يمحو المشكلة، كما أنه يسهل اكتشاف الصولانين إذا كان بمعدل ضار من خلال لون الثمرة الذي يصبح مائلاً إلى الاخضرار.

البطاطس في قفص الاتهام

في عـام 1729م كتب جوناثان سويفت، صاحـب رواية «رحلات جوليفر» المشهورة مقالاً هزَّ أرجاء إنجلترا وإيرلندا بعنوان «اقتراح متواضع». يبدأ المقـال بوصف دبلن عاصمة إيرلندا التي أتـى منها الكاتب، ويحكي عن الشحاذات اللاتي يجبن الشوارع وتجر كل واحدة منهن ثلاثة أو أربعة أو ستة أطفال. ويتوقع بأن الحال إن استمر على هذا المنوال فإن الوضع في المدينة لن يتحسن، لأن البطالة سادت البلد، والنقود أصبحت كائناً غير معـروف للإيرلنديين. والحل، فـي رأي سويفت، أن يصـدِّر الإيرلنديون

الفقراء أطفالهم بدلاً من أن يصدِّروا اللحوم أو الدجاج. لحوم الأطفال، كما يشرح الكاتب، غنية بالعناصر المغذية التي سينتفع منها البريطانيون وبقية سكان أوروبا، وفي الوقت نفسه، فالاقتصاد الإيرلندي سينتعش من هذه التجارة التي لابد أن تحوز رضاء الكثيرين، وأولهم الإنجليز. المقال يدرَّس الآن كنموذج للأدب الساخر، إلا أنه حينئذ كان معبراً عن واقع البلاد. فقرٌ مدقع، وتضخم سكاني مريع، ومجاعة تلو مجاعة، وما من مخرج، عدا المخرج الذي اقترحه ابن البلد جوناثان سويفت بمرارة. وإن لم يكن هناك مخرج، لابد أن يكون هناك متهم تعلَّق برقبته مشاكل البلاد، ولم يجد المراقبون -وأكثرهم من الإنجليز- في ذلك الحين سوى البطاطس ليزجوا بها في القفص.

قدمت البطاطس لإيرلندا في نهاية القرن السادس عشر، واستقبلتها الأرض بترحاب بالغ. وكبقية الدول في أوروبا، كانت البطاطس ملائمة للتربة والمناخ الإيرلندي، ولكن على العكس من بقية الدول، اعتنق فلاحو إيرلندا البطاطس كبر أمان ضد موجات الآفات الاجتماعية التي ابتليت بها البلاد من بطالة وفقر وتضخم سكاني. وبالتدريج، ومع توالي المجاعات التي كان سببها ضعف محصول الشوفان، تحول الطعام الإيرلندي من اعتماده الكلي على خبز الشوفان إلى الاعتماد على البطاطس، فلم يأتِ العام 1780م إلا وكانت البطاطس قد تربعت على سدة حكم القوت اليومي للإيرلنديين، مع كونها رمزاً طبقياً للفقر، حيث انتشر مثل إيرلندي في ذلك الوقت يقول: «صلصة الرجل الفقير: بطاطا صغيرة يأكلها مع البطاطا الأم!». وبعدما تسيَّدت البطاطس القوت اليومي للإيرلنديين، تضاعف عددهم من 4 ملايين إلى ثمانية في غضون ستين عاماً فقط.

أثار التضاعف المتسارع الدهشة، ولكنه في هذه الحالة كان مثيراً للتساؤل: هل هناك رابط مباشر بين البطاطس والتضخم السكاني؟ بالنسبة للمعاصرين، لم يكن الأمر يحتاج إلى كثيرٍ من التأمل والدراسة. العلاقة واضحة وضوح الشمس. المراقبون الإنجليز -الذين أثارت نقمتهم الزيادة السكانية التي تهدِّد بغلبة كاثوليكية إيرلندا على بروستانتية إنجلترا- أشاروا إلى أن الزواج المبكِّر هو سبب ارتفاع نسبة المواليد في إيرلندا، والبطاطا الرخيصة كانت السبب الوحيد الذي يمكِّن فقراء إيرلندا من الزواج، حيث إن أي مزارع لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره يقدم على الزواج حالما يحصل على إيجار أقل من فدان من الأرض، فيزرعه كاملاً بالبطاطا الرخيصة، ويعيش مع زوجته وأولاده على جزء منه، ويدفع إيجار الأرض من الباقي. واقترح آنذاك أحد الكتَّاب على السلطات أن تمنع إقامة أي منزل على مزرعة تقل مساحتها عن خمسة فدادين، لأنه: «بذلك لن يكون هناك مزيد من البطاطا الرخيصة».

حصلت البطاطس اليوم على براءتها. إذ يقول الباحثون إن السبب وراء فقر إيرلندا لم يكن في البطاطس الطيبة، وإنما كانت القوانين التي تحيط بإيجار الأراضي وولايتها، وربما وجد مراقبو ذلك الزمان أن البطاطس ضحية طيِّعة يمكن مهاجمتها بسهولة، بدلاً من محاولة قلب قوانين ملكية الأراضي.

في إنجلترا: مسألة مبدأ

الإنجليز، بعيداً عن كل الحديث عن كون البطاطس طعاماً للفقراء، أو كونها مرتبطة بالأرواح الشريرة، أو حتى سبباً للإصابة بالجذام، كان لديهم اعتراض أولي على إضافة البطاطس إلى طعامهم. فالبطاطس تنتمي إلى الخضراوات، ونبلاء إنجلترا لم يكن للطعام مذاق لديهم إن لم يكن منتمياً بشكل أو بآخر للحوم. وحتى القرن التاسع عشر، يذكر الكتَّاب الإنجليز أن السَلَطات الباردة تحتاج لرشة فلفل كي تدفئ الدم، وأنها لم تؤكل أصلاً، وتحتوي على أقل القليل من المواد المغذية!!





«أكل البطاطا» للفنان فان غوخ

رمز منعطف في تاريخ الفن

خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي، كانت رغبة الفنانين بالاستقلال عن الضغوط الاجتماعية وشروط زبائنهم من البرجوازية، وسعيهم إلى إعطاء الفن ككل وظيفة وشخصية مختلفة عن تلك التي كان يمثلها منذ عصر النهضة، من جملة العوامل التي أدت إلى نشوء نظرية «الفن للفن».

ولكن «استقلالية» الانطباعيين عن أذواق زبائنهم من البرجوازيين لم تتجاوز حدود التقنية والمعالجة الفنية للموضوع الذي بقي من ضمن باقة الموضوعات الجميلة: مناظر طبيعية عند بيسارو ومونيه وسيسلي ورينوار، وشخصيات أنيقة عند ويغاس ومانيه وموريزو... ولكن، من بين كل هؤلاء الانطباعيين انفرد فنسان فان غوخ في دفع المفهوم الجديد للفن حتى حدوده القصوى.. وتقول هذه الحدود إن موضوع اللوحة يمكنه أن يكون عادياً حتى «التفاهة» أو حتى «القباحة»، شرط ألاَّ تنعكس هذه التفاهة أو القباحة على اللوحة فتجعلها تافهة أو قبيحة بدورها.

وفي عالم الشعر كان الفرنسي بودلير سباقاً في هذا المجال، فكتب على سبيل المثال قصيدة رائعة تصف جيفة حصان ميت تأكله الديدان.. أما في الرسم فلم يقترب أي فنان من هذه النظرة إلى الفن كما اقترب فان غوخ.

رسم فان غوخ غرفة نومه المتواضعة، وأحذيته القديمة التي تذكر دائماً كمثل على أن الموضوع التافه يمكنه أن يكون مادة للوحة رائعة. ولكن الأمثلة التي تذكر أكثر من غيرها في هذا المجال هي لوحات فان غوخ التي تتمحور حول البطاطس.

رسم فان غوخ البطاطس بكل حالاتها في عدد مدهش من اللوحات. رسم مشهد زراعة بذورها في الأرض، ورسم امرأة عجوز تقتلع شتلات البطاطس، ورسم أكثر من ست لوحات لفلاحين يجمعون ثمار البطاطس من الحقول، ورسم لوحتين أو أكثر لامرأة تقشِّر البطاطس، ورسم أكثر من مرة البطاطس على المائدة بعنوان «آكلو البطاطس».. وتشكل من جهة أوضح مثال للمفهوم الجديد للواقعية، ومن جهة أخرى قدرة الفنان العبقري على الانطلاق من موضوع تافه لإنجاز عمل فني عالي المستوى، وهذا ما حاول فن الرسم العمل به خلال القرن العشرين.



«تقشير البطاطس» للفنان فان غوخ



«الدعاء بموسم بطاطس جيد» للفنان جان فرانسوا مييه

«جمع البطاطس في الحقل» للفنان جول باستيان

«مزارعون يقتلعون البطاطا» للفنان فان غوخ



كانت الطبقة المتعلمة تزرع البطاطس في حدائقها الخاصة، إلا أنها لم تتخلص تماماً من النظرة المتشككة التي تحيط بها، وهذا يظل ظاهراً حتى في تلك الكتابات التي تصب في مصلحة البطاطس حيث يتعامل معها الكتَّاب من بعيد، وكأنما ينصح بها الآخرين المحتاجين ولكنه يترفع هو عن أكلها.

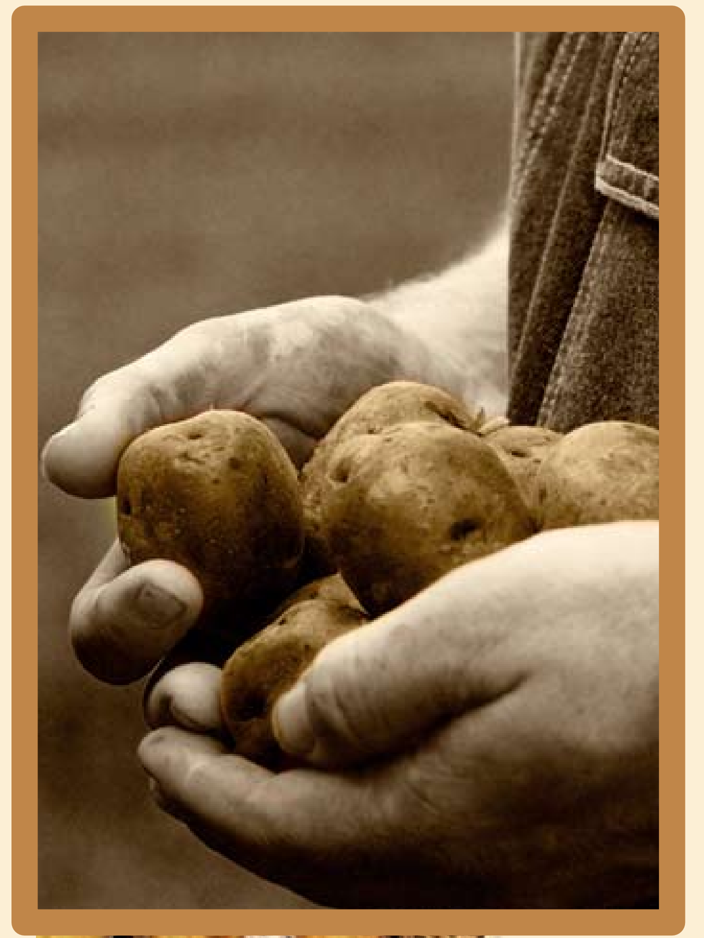
فقد كتب الصحافي جون فروستر في عام 1664م مقالة طويلة يزعم فيها أن البطاطس تقدِّم علاجاً فعالاً وسهلاً لنقص الطعام، وتنبأ بأن البطاطس ستكون المعجزة الاقتصادية للبلاد إن زرعت بشكل جدي في إنجلترا وويلز، حيث سيجد عشرة آلاف رجل فقير قوتهم وقوت عيالهم. ولكي يثير اهتمام الملك تشارلز الثاني ملك إنجلترا في ذلك الوقت، اقترح فورستر عليه أن يسجِّل البطاطس باسمه، ثم يبيع الامتياز التجاري لزراعة البطاطس لبقية الأمم، وبالتالي يجمع الأرباح. ورغم حاجة الملك إلى المال، فإنه صرف نظره عن الاقتراح ولم يفكر بتبنيه. وكما تعامل فروستر مع البطاطس على أساس أنها المعجزة الاقتصادية التي ستنجد فقراء البلد، نجد جول إيفيلين، خبير البستنة الأشهر في ذلك الوقت، يكتب أن البطاطس مفيدة للفقراء وخدم العائلة عندما يعاني رب المنزل الإقطاعي من صعوبات مالية.

ثم، قامت الثورة الصناعية، وتسارعت وتيرة الحياة بشكل لم يعرفه العالم من قبل، حيث كانت مثلاً رحلة الصيف من أدنبرة إلى لندن تستغرق عشرة أيام في عام 1754م، ثم تقلَّصت لتصبح 4 أيام في 1776م، وثلاثة أيام في 1786م. كان هذا التسارع واضحاً في التوجه من الريف إلى المدينة، وساعد البطاطس على أن تكسر الحصار. وعندما استمر التغير حتى القرن التاسع عشر، ظهرت البطاطس وعليها الأمان.

في تلك الفترة، كانت إنجلترا تمر بفترة نمو سكانية ملحوظة. لم يكن هناك إحصاء سكاني، إلا أن التقديرات تشير إلى أن سكان البلاد بلغ عددهم في عام 1700م خمسة ملايين نسمة، وبحلول العام 1750م أصبح عددهم ستة ملايين تقريباً، ثم أصبحوا تسعة ملايين تقريباً في العام 1800م. وتوزع أكثرية هؤلاء السكان في المدن الصناعية كلندن ومانشستر وليفربول.

خلق النمو السكاني وتركزه في مناطق معينة حاجة إلى توزيع الطعام ونقله إلى العمال الذين انتقلوا من زراعة طعامهم بأنفسهم إلى شرائه من الدكاكين. ولم تكن هذه مهمة سهلة، فمع أن الوقت الذي يستغرقه إيصال البضائع من الريف إلى المدينة قد قل كثيراً بفضل المحرك البخاري، إلا أن عملية النقل نفسها لم تكن آمنة، نظراً لحالة الطرق الرديئة وتعرض المأكولات للتلف. وبذلك لم يجد سكان المدن سوى البطاطس لزراعتها أو شرائها ممن يزرعها في المدينة نفسها. وكانت لانكستر الصناعية أول المدن التي تبنت هذا الحل، وتقبلت البطاطس في أواخر القرن الثامن عشر، واشتهرت بطبق «يخنة البخار» الذي يعتمد على البطاطس واللحم والبصل والصلصة، وهو أول طبق يحتوي على البطاطس وتقبله الناس في إنجلترا.

إلى ذلك، هناك أسباب أخرى دفعت العامة لتقبل فكرة أكل البطاطس، وتأتي من الضرورة والحاجة أيضاً، حيث إن الثورة الصناعية أحضرت معها ساعات العمل الطويلة في المصانع (بين 12 و16 ساعة يومياً) لكل أفراد العائلة، حتى الأطفال. ولم يكن لدى العائلة الوقت للأكل فكيف



بالطبــخ؟ وكيف تطبخ العائلة، وأغلب المنازل لـم تكن تحتوي على أفران أو أدوات الطبــخ المتوافرة في هــذه الأيام، وإن توافرت، كان الوقود غالي الثمن ويستخدم معظمه لتدفئة المنزل، وليس للطبخ. لم يكن أمام العامة سوى ابتياع الخبز والبطاطا المسلوقة من الدكاكين.

ورويــداً رويداً، عرفت شوارع إنجلترا البطاطس، وألفتها، وأحبتها، وتوجتها أميــرة فــي مطاعمها عبر وجبــة السمــك والبطاطس المقليــة «Fish and Chips» التــي قال عنها ونستون تشرشل إنها الصحبة الطيبة. وظهرت لأول مــرة رفقتهما فــي أواخر القرن التاســع عشر، حينما كان عمــال المصانع يهرعون إلى خطوط الإنتاج قبل شروق الشمس في شوارع المدينة المظلمة، ويعــودون في آخــر الليل بعد ست عشــرة ساعة من العمــل المتواصل. وفي طريقهــم، يعبــرون على مطعم للسمــك والبطاطس المقليــة. لا نعرف متى بــدأت هــذه الصحبة تحديــداً، إلا أننا نعــرف أنهما وصــلا منفصلين إلى الشارع البريطاني، وتشير الشواهد إلى أن السمك المقلي وصل إلى الشارع قبــل البطاطس بثلاثــة عقود، حيث ذكــر تشارلز ديكنز في روايتــه «أوليفر تويست» التي نشــرت مسلسلة بين العامين 1837 و1839م مطعماً للسمك المقلي وكأنما تمتلــئ بمثــل هذه المطاعــم شوارع لنــدن، بينما لم تظهــر وصفات قلي شرائح البطاطس الرفيعة إلا في ستينيات القرن التاسع عشر.

وعندما جالت في أوروبا

تشبث الفرنسيون بخوفهم مــن البطاطس أكثر من الإنجليز، وإن كانت هنــاك قلة حاولت دحض هذه الخرافــات مثل روبير تورجوجاك، حاكم ليمــوج الذي تقول الروايات التاريخية إنه أقدم على أكل البطاطس علناً

إنها الصحبة الطيبة!

مطاعم السمك والبطاطا المقلية في إنجلترا.

أمـام مجموعة من المزارعين، وطلب منهـم الجلوس إلى نفس الطاولة معه كي يروا أنها لم تصبه بأذى.

وفـي العـام 1771م نشـرت هيئـة دراسات باريـس بحثاً تُقسـم فيه أن البطاطـس حميدة، بل ونافعة، ولكـن أحداً لم يقتنع. وإن اقتنع البعض، كانـت رغبتهـم في الحفـاظ على مظهرهـم الاجتماعي أكثـر إلحاحاً، فكيـف يقدمون على طعام يصفـه مثقفو العصر بأنـه طعام الوحوش؟ وكانـت هذه المعتقدات سارية فـي ألمانيا أيضاً، حيث اعتقد الفلاحون أن البطاطـا تصيب بالسّـل والكساح والدرن، وجادلـوا الملك فردريك عندمـا صدر أمره بزراعتهـا لتأمن البلاد خطـر المجاعات. ففي عام 1774م أرسلـت مدينة كولبرج الألمانية رسالـة للملك تقول فيها: «هذه الأشيـاء ليس لها طعـم أو رائحة، وحتى الكلاب لا تستطيـع أكلها، فما فائدتهـا؟». أصر الملك، وأطاع الشعب علـى مضض، ولكن بعد سنوات سبـع من هذه الطاعة المزعومة، كان الفلاحـون قريباً من جبال الألب ينتقلـون من حكم إقطاعي إلى آخر عندمـا يصر سيدهم على أن تكون البطاطس جـزءاً من قوتهم اليومـي. وفي روسيا، قـررت الإمبراطورة كاثريـن أن البطاطس «شيءٌ جيّد» ولم تستمع إلى الملتزمين الكاثوليك الذيـن اعترضوا على زراعة نبـات لم يذكر في الإنجيـل. وافق البعض على مـا قررته الإمبراطـورة، ولكن الغالبية العظمى مـن الروس كانت تعتقـد أن البطاطس هي السبـب الأول للإصابة بالكوليرا، ولم تنتشر زراعتها إلا في العام 1850م بقرار من القيصر نيكولاس الأول.

أنطونيو أوجستين بارمينتير.. 15 ألف صفحة عن البطاطس

لـم يكـن لدى فرنسا فردريـك ولا كاثرين، بل كان لديهـا أنطونيو أوجستين بارمينتير. ففي حرب السنوات السبع، التي اشتركت فيها كل الدول الأوروبية تقريبـاً بيـن العاميـن (1756 و1763م) كان بارمينتيـر ملتحقـاً بالجيش الفرنسي كصيدلاني، وسقط في أسر الألمان الذين أجبروه في السجن على أكل البطاطـس، الثمرة التي كان يظن أنها خلقت لتكون علفاً للخنازير. ولم يقـدم له الجنود سواهـا. وعندما عاد إلى فرنسا بعد انتهـاء الحرب سليماً معافـىً، كانت البطاطس قد كسبته حليفاً ونصيراً وصديقاً. درس الكيمياء، وطبـق مبادئها على دراسة البطاطا، وفي عام 1770م تقدم بمقال لمسابقة أقامتهـا إحـدى الأكاديميـات العلمية في فرنسـا، وكان مقاله حـول فائدة البطاطـس وقيمتهـا الغذائية لمرضـى الدوسنتاريا. فاز الرجـل بالجائزة، ونتيجـة لذلك ألغـي القانون الذي أصـدره البرلمان الفرنسـي عام 1748م بتجريم زراعة البطاطس بناءً على الاعتقاد الشائع بتسببها بالجذام.



وفي عام 1772م صدر قـرار من هيئة باريس الطبية يبيح تناول البطاطس ويشجِّع عليه. وتنبه لويس الخامس عشر ملك فرنسا في ذلك الوقت لإخلاص بارمينتيـر للبحـث فأسبـغ عليه منحـة ملكية ليتفـرغ للدراسـة، واستغلها بارمينتيـر في سبيل البطاطا، حيـث رآها المنقذ الوحيد لأمته من الجوع.. ولـم يتوقف منذ ذلـك الوقت عن الدفاع والكتابـة عنها. وكان واسـع الحيلة ظريفاً ساخراً، فبالإضافة إلى الخمسة عشر ألف صفحة التي دونها للحديث عن البطاطس وفائدتها، كان يقيـم دعـوات العشاء الفاخـرة للحاشـية الملكية والنبلاء، ويقدم لهـم وجبات كاملة مكونة من عشرين طبقـاً وأكثر، وكلها تعتمد فـي مكوناتها الأساسية على البطاطس. وعندما تولى لويس السـادس عشر الحكم، أقنعـه بارمينتيـر بجمال وتفرد زهـرة البطاطس حتى أصبح الملك يضعها في عروة سترته.

ومـن لويـس السـادس عشـر التقطتهـا مـاري آنطوانيت، وأصبحت زهـرة البطاطس بلونها الأرجوانـي الموضة الرائجة في البـلاط الملكي. ومـرة أخرى أقنع بارمينيتر الملـك بالسماح له بتجربة عامـة، دحضاً للرأي القائل بأن زراعـة البطاطس تفسد التربة، فقرَّر أن يثبت أن العكس صحيح، وأن البطاطس تهزم أسوأ أنواع التربة وأقساها، ولذلـك اختـار خمسين فدانـاً في إحـدى ضواحي باريـس المقفرة عام 1786م، وزرع البطاطـا فيها، وبخبثه المعهـود عيَّن حراساً حولها خلال





إلى نابليون «هذه البطاطس الأفضل، جلالة الإمبرطور!»

النهار فقط ليلفت الانتباه إلى «قيمة» الثمرة المزروعة، وكما كان يأمل، أقدم المزارعون على زيارة المزرعة في الليل لسرقة البطاطس. حيلة استخدمها كثيراً بعد ذلك، وفي أكثر من منطقة. أكسبته إنجازاته ولفتاته الذكية ميدالية من الملك، وثناءً مستحقاً من زملائه العلماء.

وبعد المجاعة التي هزَّت فرنسا في عام 1788م، استمعت الهيئة الفرنسية للتموين لنصائح المواطن الصالح بارمينتير، وطبعت عشرة آلاف مطوية كتبها حول زراعة البطاطس، ووزعت على كل القرى والبلديات. وأسبغ التغير الجمهوري في فرنسا في ذلك الحين على البطاطس عباءة شعبية، حيث إن الجمهوريين حملوها على الأكتاف هاتفين بفوائدها، وأولها حماية النظام الجمهوري الجديد من السقوط في حال تكررت المجاعات. وبالتالي أصبحت البطاطس منقذاً لحرية المزارع السياسية الجديدة، ورمزاً لخلاصه من الإقطاعيين الظلمة. ومع ذلك، لم يكن الكل مقتنعاً بأهمية البطاطس، فعلى سبيل المثال، عندما ترشح بارمينتير لمنصب أمين بلدية باريس اعترض أحد الناخبين ناقماً: «سوف يجبرنا على أكل البطاطس، هو أصلاً من اخترعها!»، وبالفعل، خسر الرجل الذي «اخترع البطاطس» الانتخابات. ولكنه توفي عام 1813م منتصراً بعد أن تضاعف إنتاج البطاطس خمسة عشر ضعفاً نتيجة لجهوده.

المحارب الأخير

في عام 1818م كتب المزارع والصحافي البريطاني وليام كوبيت غاضباً في مقاله الأسبوعي: «هي الموضة الآن أن نأكل البطاطس! الكل يتغزل في محاسنها وكل العالم يحبها، أو يتظاهر بحبها، والنتيجة واحدة».

أن يأتي هذا الحديث بعد أحزان المجاعات التي أنهكت سكان إنجلترا بين الأعوام 1795 و1800م، والتي انتهت على يد البطاطس، والبطاطس وحدها، أمرٌ مستغرب، ولكن أن يأتي من أكثر مفكري بريطانيا تحرراً في ذلك الوقت، ويليام كوبيت، فهو أمر مذهل، ويدعو للعجب. إلا أننا لن نستغرب كثيراً إن عرفنا أكثر عن الرجل. إذ يقول معاصروه إن العامل المشترك بين كل مواقفه المختلفة هو حبه الشديد للمعارضة وتمرده على السلطة، وكرهه للجديد. كان كوبيت يعلن دعمه اللامحدود لمصلحة المزارع البريطاني الصغير، ويعلن في الوقت نفسه بتمرد عجيب كرهه لعشرات الأشياء الأخرى. يكره المدن. البرلمان. الضرائب. شرب الشاي. مسرحيات شكسبير. اليهود. أما البطاطس، فقد كانت كرهه الأول والأخير. يسميها «جذور القذارة، النفاية، البؤس، والعبودية». في رأيه، هي الموت الاجتماعي والروحي، ومن يناصرها هو إما مصابٌ بالعمى، أو باع روحه للشيطان. ولأن السير والتر راولي كما هو شائع قد قدَّم البطاطا لإنجلترا فهو من أشر أشرار الأرض، والحمد لله أنه قد لقي جزاؤه شنقاً، وبناءً عليه فإن كوبيت يرى أنه يفضل رؤية الفلاحين والعمال الإنجليز مشنوقين، وهو معهم، على أن يعيشوا ليأكلوا «الثمرة الكسول».

في السنوات الأخيرة من حياته، كتب كوبيت: «فكرة أن البطاطس قد تحفظنا من المجاعة تميتني ضحكاً، أو أن البطاطا قد تجاور الخبز وتتفوق عليه.. بما أنها طعام القطعان من غنم وخنازير، هذه أسوأ المحاصيل التي يمكن الحصول عليها، ولكني قلت هذا كثيراً من قبل، ولذلك الآن أصرف البطاطس مع الأمل بألا أضطر مرة أخرى للكتابة عنها، أو حتى رؤيتها».

توفي كوبيت عام 1835م، ولم يتحقق أمله حتى الآن، ولا يبدو أنه قد يتحقق في المستقبل.

الحلم الأمريكي

وصلت البطاطس إلى أمريكا في العام 1621م، وكانت تسمى بالبطاطس الإيرلندية تمييزاً لها عن عدد من أنواع الخضراوات التي أُطلق عليها الاسم ذاته، أما البطاطا الحلوة فكانت تسمى البطاطا الإسبانية.



الملكة ماري أنطوانيت، الملك لويس الرابع عشر وزهرة البطاطس.

وفي منتصف القرن الثامن عشر، وبينما كانت البطاطس تحاول إقناع الشعوب الأوروبية بجدواها، احتلت مكانها معزَّزة مكرَّمة في أمريكا، بل إن الكونجرس الأمريكي أشار إلى أن البحارة يجب أن يأكلوا اللفت أو البطاطس ثلاثة أيام في الأسبوع كجزء من تموينهم. أصبحت البطاطس خلال قرن واحد من أهل البيت في أمريكا، ولم تجد أياً من المصاعب التي لاقتها في طريقها لقلب القارة الأوروبية.

أتت البطاطس المقلية كما نعرفها اليوم كوصفة مغمورة اعتاد الطباخ الفرنسي أونرو جوليان طبخها لمستخدمه الرئيس الأمريكي توماس جيفرسون، ومن هنا كسبت قلوب الشعب الأمريكي وعرفها باسمها الحالي: المقليات الفرنسية (French fries). ولكنها لم تكتسح العالم إلا عندما قرر الإخوة ديك وماك ماكدونالد تقديمها ضمن مطعمهما الصغير الذي افتتحاه في كاليفورنيا عام 1940م. وفي عام 1948م بدأ الإخوة ماكدونالدز بتطبيق نظام الخدمة السريعة، مما أسس لأول مرة مفهوم مطاعم الوجبات السريعة.

كانت البطاطس المقدَّمة في المطاعم الأولى مريعة أحياناً، وذلك لأن أنواع البطاطس التي تقدَّم كانت مختلفة، القلي يناسب بعض الأنواع كالبطاطا «الروسيتس» التي تفضلها مطاعم ماكدونالدز، بينما لا يناسب البقية كبطاطا «فنغرلنج». ولأن البطاطا «الروسيتس» لا تتوافر على مدار السنة، أقدمت الشركة بقيادة راي كورك الذي ابتاع امتيازها التجاري على إنفاق ملايين الدولارات على الأبحاث كي يوفقوا إلى أفضل نوع مناسب للبطاطس المقلية، إلى أن أتت القفزة مع ابتكار جون ريتشارد سيمبلوت البطاطس المجمدة، والتي سجل براءة اختراعها عام 1953م، مما عاد عليه في وقتٍ لاحق بالبلايين.



وفي عام 1967م اتفق الاثنان، كورك وسيمبلوت، على تزويد ماكدونالدز بالبطاطس طوال العام. وفي آخر إحصاءات أجرتها مجموعة أبحاث أمريكية، اتضح أن شركة سيمبلوت ما زالت تزود نصف سلاسل المطاعم الأمريكية للوجبات السريعة بحاجتها من البطاطس المجمدة. والبطاطس المقلية اليوم، مع أن اسمها ينسبها من دون شك للفرنسيين، أصبحت رمزاً للثقافة الشعبية الأمريكية والقوة التي تمارسها في تشكيل وجه العالم اليوم.

البطاطس في منزلك

إن زراعة البطاطا في منزلك ليست أمراً صعباً، وتشبه التعامل مع صداقة جديدة بالغة الود والدفء، بدءاً من اختيار درنات البطاطا الصديقة، سليمة، وخالية من الأمراض، ثم وضعها في مكان دافئ ووافر الضوء لمدة عشرة أيام قبل الزراعة، لتنمو براعمها. ولكي تحصل على كمية تراوح بين 2 و4 كلغم من البطاطس الطازجة، ما عليك سوى أن توفر ثلاث درنات صغيرة، بارتفاع 7سم تقريباً، ودلو يبلغ قطره 50 سم تقريباً، وتربة. وإذا كنت في منطقة معتدلة، قم بالزراعة في منتصف فصل الربيع، أما إذا كنت في منطقة استوائية ففي مقدورك أن تزرع البطاطا على مدار العام. بعد الأيام العشرة التي قضتها الدرنات في ضيافة الشمس والدفء، وبعد أن تصبح براعم البطاطا قوية صلبة، افتح فتحة تصريف في قاع الدلو. ثم املأ الدلو حتى ثلثه بالتربة. وبعناية صديق اضغط على أجزاء البطاطا المعدة للزراعة إلى الأسفل لإدخالها في التربة مع إبقاء براعمها متجهة إلى الأعلى. ثم املأ الجزء المتبقي من الدلو بالكمبوست أو التربة. ولتسهيل عملية التصريف ضع الدلو فوق آجرات، وذلك في مكان ذي إضاءة معقولة. حيث إن درجة الحرارة المثالية تبلغ من 10 إلى 15 مئوية. الشمس، والماء، عنصران مهمان في زراعة البطاطا، على أن يراعى الاعتدال في كليهما خلال رعاية البطاطا.

من المهم أن يضاف المزيد من التراب حول قاعدة النباتات مرتين أو ثلاثاً خلال موسم الزراعة. وأن تبقى مروية بصورة جيدة وبوجه خاص حينما يبدأ ظهور الأزهار.

يتعين أن تكون التربة رطبة وليست جافة. ولكن احذر من الإفراط في الري كيلا تصاب الأوراق بالعفن. ويفضَّل الري كل يومين أو ثلاثة. ولكي تصبح الدرنات أكبر حجماً قم بإزالة أية أزهار تنتجها النبتات. وحينما يتحول لون أوراق النبتة إلى اللون الأصفر وتبدأ تموت، توقف عن الري. وبعد أسبوعين إلى ثلاثة ستكون الدرنات الموجودة تحت التربة قد أصبحت حبات بطاطا صغيرة يمكنك أن تقوم بحصادها. أما إن أردت الحصول على درنات أكبر حجماً فعليك الانتظار مدة أربعة إلى ستة أسابيع أخرى. إذا اخترت أن تنتظر الأسابيع الثلاثة أو الستة، فإن أوان الحصاد يحل بنهاية أحد الزمنين، اختر طقساً جافاً للحصاد ثم قم بتفكيك التربة بلطف ثم مدّ يدك تحت النبتة لإزالة الدرنات الكبيرة. ويمكنك إبقاء الدرنات الصغيرة كي تواصل نموها. وإن كنت تريد تخزين درناتك فاتركها تجف على سطح التربة في الشمس لمدة ساعة. ثم اخزن درناتك على رفّ في مكان بارد ومعتم وجاف وجيد التهوية. حيث إن البطاطا المجففة والمخزنة بصورة صحيحة تبقى سليمة لمدة تصل إلى ستة أشهر.



في طهو البطاطس

إنهـا البطاطا اللذيذة .. مشويـة ومسلوقة ومخبـوزة.. تقدم الأصناف الحديثة من البطاطا مجموعة عريضة من خصائص الطهو التي تناسب أطباقـاً مختلفة وشهية. حيث يمنــح بعضها الشوربات كثافة قشدية، ما يضفي عليها مذاقاً رقيقاً يبرز المكونات الأخرى للشوربة.

أمـا البطاطس المخبوزة فهـي تقدم كوجبة خفيفـة وبسيطة أو تقدم مع الفطائـر المحشوة كوجبة كاملة. كما تعـدّ البطاطا المشوية -بهشاشتها ولونهـا الذهبي من الخـارج ورِقَّتها من الداخل- أفضـل رفيق يقدم إلى جانب اللحم المشوي. ويقال إن البطاطا المهروسة الناعمة القشدية هي «الغذاء المقنــع الذي لا يعلى عليه». بينما تعـدّ البطاطا «غير الناضجة» المطهوة بتعريضها للبخار أو مسلوقة طعاماً شهياً من نوع خاص.

وتعدّ البطاطس من الخضار الأكثر شعبية في العالم، كما لاقت الترحاب في مطابخ مختلف البلدان في العالم. حيث تستخدم في الكري في الهند وفـي الباستا فـي إيطاليا، وتصنع منها يخنة مع المـوز في كوستاريكا، وتخبز مــع الأرز في إيران وتحشى بالكبد في بيلاروس، وتقلى ممزوجة مع الفاصوليا الخضراء في إثيوبيا، وتطهى في سائل على درجة الغليان مع سمك الحَدوق المدخَّن في شوربات الشتاء في فنلندا.

يكمن سرّ نجـاح البطاطس في تنوعها الكبير. حيث تأتي البطاطس في مـكان ولادتها بجبـال الأنديز في صـورة آلاف من الأصنـاف «البلدية» التي يتمتع كل منها بلون وقوام ومذاق مميز (ففي بيرو يمكن أن تحتوي سلطة البطاطا على ثلاثة أو أربعة أنواع مختلفة من البطاطا).

تعـدّ غالبيـة وصفات إعـداد المأكولات مـن البطاطس سهلـة التحضير. غيـر أن انتقاء الصنف المناسب ضـروري للحصول على طبق جيد حيث تصنف البطاطس في المطبخ تبعاً لمحتواها من النشا لأنه هو الذي يحدد كيفيـة استجابتها للطهو. وبصورة أساسية، كلمـا ازداد محتوى البطاطا من النشا زادت سهولة انفجار خلايا النشا في الدرنة عند تسخينها.

السيد بطاطس

عيناه حبّتا عنب، وأنفه جزرة، وهو حبة بطاطس مكبرة من حديقة المنزل. هذا هو السيّد بطاطس الذي قدمه مبتسماً الأمريكي جورج ليرنر لأخته الصغيرة التي استغرقت في الضحك، واختطفته لتغير من ملامحه، وتضيف إليه أذنين من الخس أو فم من شرائح الطماطم. الصغيرة أعجبتها الفكرة وظلت تلعب بها لشهور طويلة وفي كل مرة تظهر ملامح وتعابير جديدة على السيد بطاطس، مما دفع بالأخ الودود إلى أن يفكر جدياً في تسويق الفكرة لملايين الصغار في أمريكا.

دار ليرنر على شركات الألعاب يعرض فكرته، فأعرضت عنه، وكان عذرهم في ذلك أن الشعب الأمريكي سيجد حرجاً في أن يلعب الأطفال بثمار البطاطس الحقيقية، ولم يجد نفعاً تقديمه لنموذج بطاطا بلاستيكية ليلعب بها الأولاد.

وأخيراً، لم يجد سوى إحدى الشركات المصنعة لوجبة الفطور «رقائق الذرة المحمصة»، ليقترح أن توزَّع أشكال بلاستيكية مختلفة يمكن أن تلصق بثمرة البطاطا وتحولها إلى سيد بطاطس.. زوج من العيون، شارب، قبعة، أنف، نظارة.. إلخ. أعجبت الشركة بالفكرة، وبالفعل اشترت حقوقها بخمسة آلاف دولار لتضمنها عبواتها كهدية. ولم تنته مسيرة ليرنر مع رأس البطاطس هنا، فيبدو أنه استكثر فكرته على أن تُقدم كإعلان تسويقي قد لا يجد الاهتمام الكافي، فاستمر في بحثه عن راعٍ لها، ووجده أخيراً في مصنِّعي الأقمشة ميريل وهنري هاسينفلد اللذين أعجبتهما الفكرة، فعاد بنقودهما إلى شركة الرقائق ليبتاع فكرته بسبعة آلاف دولار هذه المرة. وقدمت شركة الألعاب «هازبرو» السيد بطاطس لأول مرة للسوق الأمريكية عام 1952م، ولم يخفت الإقبال عليه حتى اليوم.

2008 السنة الدولية للبطاطا

لأن البطاطس كانت قد نشأت أصلاً في جبال الأنديز في أمريكا الجنوبية، كان من الطبيعي أن يكون ممثل حكومة بيرو في منظمة الأغذية والزراعة التابعة للأمم المتحدة صاحب الاقتراح بإعلان العام 2008م سنة دولية للبطاطس.

ففي المؤتمر الذي عقدته المنظمة في نوفمبر 2005م، تقدم ممثل بيرو الدائم باقتراحه هذا الذي وافقت عليه المنظمة في الشهر نفسه، وبعد ذلك بشهر وافقت الأمم المتحدة في قرار خاص أصدرته لهذه الغاية.

وقد أشار قرار الأمم المتحدة بأن البطاطس غذاء أساسي في الوجبة في أطعمة سكان العالم، وإلى الدور الذي يمكن للبطاطس أن تضطلع به في تحقيق الأهداف التنموية المتفق عليها دولياً، ومن ضمنها الأهداف الإنمائية للألفية.

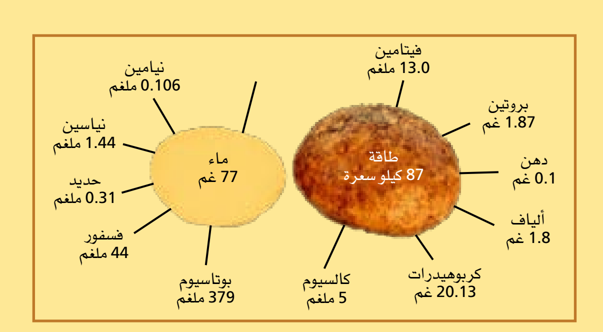




الانتاج العالمي من البطاطا خلال الفترة ١٩٩١-٢٠٠٧

البلدان	١٩٩١	١٩٩٣	١٩٩٥	١٩٩٧	١٩٩٩	٢٠٠١	٢٠٠٣	٢٠٠٥	٢٠٠٧
	مليون طن								
المتقدمة	١٨٣,١٣	١٩٩,٣١	١٧٧,٤٧	١٧٤,٩٣	١٦٥,٩٣	١٦٦,٩٣	١٦٠,٩٧	١٥٩,٩٩	١٥٩,٨٩
النامية	٨٤,٨٦	١٠١,٤٨	١٠٨,٥٠	١٢٨,٧٢	١٣٥,١٥	١٤٥,٩٢	١٥٢,١١	١٦٠,١٢	١٦٥,٤١
المجموع	٢٦٧,٩٩	٣٠٠,٧٩	٢٨٥,٩٧	٣٠٣,٦٥	٣٠١,٠٨	٣١٢,٨٥	٣١٣,٠٨	٣٢٠,١١	٣٢٥,٣٠

المصدر: FAOSTAT

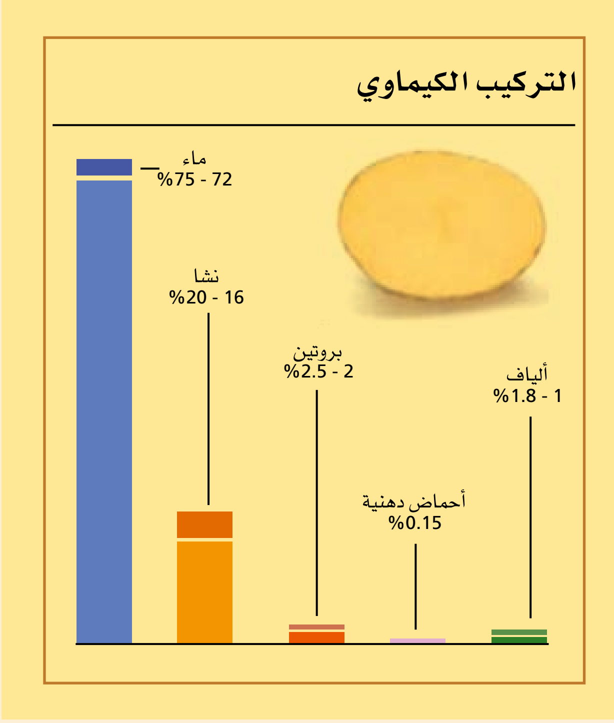




انتاج البطاطا حسب الإقليم في عام ٢٠٠٧

	المساحة المحصودة	الكمية	الغلة
	هكتار	طن	طن/ هكتار
أفريقيا	١٥٠٣١٤٥	١٦٣٠٣٠٨٩	١٠,٨٤
آسيا/ أوقيانوسيا	٨٧٦٣٨٥٧	١٣٧٦٨٣٩٤٩	١٥,٦٨
أوروبا	٧٤٣٩٥٥٣	١٢٩٥٠٨٣٧٧	١٧,٣٨
أمريكا اللاتينية	٩٦٢٤٣٤	١٥٩٨٨٨٨٥	١٦,٦١
أمريكا الشمالية	٦١٥٠٣٣	٢٢٦٦٢٧٨٨	٣٦,٧٨
العالم	١٩٣٩٤٠٣١	٣٢٠٧١١٩٩١	١٦,٥٤

المصدر: FAOSTAT



القافلة
مجلة ثقافية تصدر كل شهرين
عن أرامكو السعودية
يوليو - أغسطس 2008
المجلد 57 العدد 4

ص . ب 1389 الظهران 31311
المملكة العربية السعودية
www.saudiaramco.com